

الله
المُعْزِلُونَ
الناظمُونَ
وَأَخْذُونَ أُسْسَ الْوِجْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكَبِيرِ

تأليف
عَارِفٌ تَامِّر
دكتور في الآداب

منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت

جُنْقَلُ الطَّبِيعِ وَالنَّشَرِ مَهْفُوظَةٌ
لِدَارِ الْأَفْتَاقِ الْمَحْدُودَةِ
الطبعة الأولى
١٤٠٢ / ١٩٨٢

مقدمة:

ينقدنا بعض المتأدبين في احاديثهم، ويسروننا بالسنة حداد في تقولاتهم... لا شيء - الا لأننا نقف من الدراسات الفاطمية موقف الحياد والاعتدال، ولنلزم بالمبدا القائم على ايراد القضايا التاريخية كاملة صحيحة مستقاة من يتبع الحقيقة المجردة، مع الابتعاد، ونبذ كل مصدر تاريخي ينطوي على التعصب الديني الذميم، والحدق البغيض سواء أكان مصدره دعوة الفاطميين ام غيرهم.

لقد أنكرنا منذ ان تخصصنا بهذه الدراسات مبدأ التعصب، وابتعدنا عن اثارة التعرات، ودعونا الى الالفة والمحبة والتسامح، ووقفنا أخيراً من هذه الانتقادات موقف اللامبالاة، واعتبرناها عاصفة في فنجان اثارتها وشيرها الرواسب القديمة، ومخلفات عهود الظلام التي لا تزال كامنة في النفوس تنتظر الفرصة للوثوب، وتعطيل مسيرة الخير والحب والسعادة الانسانية. فموقعنا هذا من الفاطميين املأه ويليه علينا وجداننا وضميرنا وقناعتنا بان هذه الأسرة قد ظلمها التاريخ وتتجنى عليها المؤرخون في العصور القديمة والحديثة، عن قصد او دونما قصد... لا أحد يدرى؟

ونقف أخيراً امام شعارنا هذا الناطق بالتسامح والنسيان، وتجاوز كل ما صدر - ويصدر، لنلزم انفسنا من جديد بالاستمرار، واستئناف عملنا وفق ما تعهدنا به، وكرستنا انفسنا له، من كتابة التاريخ الصحيح مستقى من المصادر الموثوقة، والينابيع الصافية.... وخاصة هذا الكتاب الذي يعبر عن اهم فترة في تاريخ الفاطميين، وأعني بها عهد الخليفة الفاطمي الرابع الامام المعز لدين الله، واضع اسس الوحدة العربية الكبرى... وسواء اكان في المغرب، او في مصر، او في الشام، فعصره يعتبر من الأهمية

بمكان بالنسبة لتاريخ الدولة الفاطمية العام الذي سبق لباحثين وكتاب عديدين ان تناولوه في بحوثهم ومؤلفاتهم، فجاء بعضه، او القسم الأكبر منه مشوهاً ومستنداً الى مصادر قديمة وضعها اعداء الفاطميين بتوجيهات اموية او عباسية او فئات اخرى معادية.

اما هذا الواقع كان لا بد لنا من تخطيها ، وعدم اعتبارها ، او الاخذ بها ، لأنها حفلت بالدس والخداع والتحامل مما لا يتلاءم ومبدأ الباحث المنصف .

اما المصادر الفاطمية انفسها ، وما اورده بعض الكتاب الاسماعيليين الأقدمين او المعاصرین ، فهو لا اياضاً ، وبعوضهم ذهب به الغرور والحماس الى حد تشویه الحقائق والطعن والتجريح ، والخروج على مبدأ الواقع ، وكأني بهم ارادوا ان يدحوا فطعنوا ، وان يخدموا فأساعوا .

ان مؤلفاتنا العديدة عن العهد الفاطمي ، لم تكن يوماً من الايام مشحونة بالخداع والتعصب ، فنحن كثيراً ما وجهنا انتقاداتنا الى المصادر الفاطمية المبالغ بها نفسها ، وشجبنا موقف بعض الكتاب الاسماعيليين الذين ضاعوا بين الخطأ والصواب ، ولم يميزوا الغث من الثمين ، فكان ابعادهم عن جادة الحقيقة ، وخروجهم على المبدأ الفاطمي الأصيل مدعوة لتعطيل مسيرة التاريخ ، وكثيراً ما اعطينا رأينا بحرية وصراحة دون اية مؤشرات منتقدين القضايا التي تخرج عن دائرة العقل ، وكل هذا عرضنا الى اللوم والانتقاد ايضاً .

ومهما يكن من امر ، فنحن بالخاتمة هذا الموقف نرى لزاماً علينا ان نعلن باننا لم نتقاض اي اجر او مكافأة من احد ، لأن الفاطميين طواهم الدهر ، ولم يبق من اثارهم سوى أفكارهم وتعاليمهم وذكرياتهم والحقيقة فأني لا أجد في هذا العصر من يمثلها أو يعتنقها أو يضطلع بها . فالدعوات والمنظمات الطائفية القائمة الآن ومع كل اسف ليس لها اية

ارتباطات أو صلة بالفاطمية القديمة، وهذه الحقيقة لا يدركها الا قلة من الناس.

ان الأسرة الفاطمية التي نؤكد وندعم ونقر انتسابها للامام علي بن ابي طالب، ولو فاطمة الزهراء ابنة النبي الكريم محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، لم تكن «قدآخنة» أو «ميمونية» أو «ديسانية» أو «فارسية» كما جاء في مصادر تاريخية عديدة.... فهذه النعوت، وتلك الالقاب لا تخرج عن كونها اساطير وهمية واتهامات سخيفة الصدقها الاعداء بهذه الاسرة تشفيأً وانتقاماً وطعنأً وتقليلأً من أهميتها بالنسبة للعلميين العربي والاسلامي، ولعمري بان من يسلط السيف على رقب ابنائها في العهود الماضية البعيدة، ويسوقهم الى موقع النطع، ويستحل دماءهم، ويطاردهم اينما وجدوا، فلا يجد غضاضة بتشویه نسبهم، والطعن بأصولهم، واشاعة الاراجيف عنهم، ومن الواضح ان كل هذا جرى بالعهددين الاموي والعباسي، وخاصة في الفترة الزمنية المعروفة «بدور الستر» وهي الفترة التي كان بخلالها الأئمة الفاطميين مسترين عن الأنظار تحت اسماء وألقاب مستعارة لاخفاء شخصياتهم عن اعدائهم الحاكمين الذين كانوا يحصون عليهم الانفاس، ويقتلونهم على الشبهة .

وكم هو جدير بالتنويه القول: بان احد هؤلاء الائمه، او مؤسس دعوتهم الأول «محمد بن اسماويل» اتخذ من مهنة طب العيون المعروفة في العصور القديمة باسم «قدآخ» ستاراً لاخفاء شخصيته، وابتعداً عن مكان الخطير، وجاء ابنه من بعده يتتخذ من «ميمون» اسماً له للتغطية وللتمويه.... فليس معنى هذا ان الاسرة الفاطمية تنتمي الى «ميمون القداح» وانها دخلة على العرب والاسلام، وانها لا تقت الى علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء بأي نسبة.

وبحذا لو ان هؤلاء عرروا، او حاولوا معرفة «ميمون القداح» هذا الذي لم يكن سوى اسم لشخصية اسطورية خرافية اتحلها محمد بن اسماويل

وابنه اخفاء لشخصيتها ، فالتبس كل هذا على الناس حتى على اقرب المقربين للفاطميين ... وهكذا ضاعت الحقيقة الا عن قلة من الناس ، وراح الاعداء وراء تصوراتهم وأوهامهم . وانه من الصعوبة بمكان اصلاح الاخطاء والعودة بالتاريخ الى جادة الحقيقة - والواقع في يسر وسهولة .

ان الاسرة الفاطمية هي «علوية» بانتسابها الى الامام علي بن ابي طالب ، و «فاطمية» بانتسابها الى فاطمة الزهراء ابنة النبي العظيم محمد (صلوات الله عليه وآله وسلامه عليه) ، وهذا الانتساب الاخير غالب عليها وميزها عن علوين آخرين ينتسبون الى علي بن ابي طالب ، ولكنهم من امهات غير فاطمة الزهراء .

اجل ... لقد ظلت هذه الاسرة قبل ظهورها على المسرح السياسي محافظة على تسلسلها - الامامي حتى عهد الامام الخامس «جعفر بن محمد الصادق» ففي عهد هذا الاخير وقع الانقسام في المجموعة الشيعية الكبرى ، وذلك بعد وفاة ولده الأكبر «اسماويل» الذي تؤكد المصادر انه مات في حياة والده . فقالت الاسماعيلية بان الامامة لاسماويل ، ما دام ان ولادة العهد كانت منحوة له في عهد والده ، وما دام الامر على هذا المنوال فان الامامة يجب ان تؤول الى ولده «محمد» من بعده ، بينما رأت «الاثني عشرية» بان الامامة بعد اسماعيل يجب ان تنتقل الى اخيه الاصغر «موسى الكاظم» وهكذا وقع الانقسام الكبير بين المجموعة الشيعية ... ذلك الانقسام الذي لم يكن هناك بدأ منه .

اما «محمد بن اسماعيل» الذي يعتبر الامام السابع من الوجهة الاسماعيلية ، فقد كان عليه ان يغادر المدينة المنورة وينجو بنفسه من شبح الموت الذي كان يلاحقه ، ويُسد عليه المنفذ ... فخرج متخفياً تحت جنح الظلام ، وجاء الى بلاد فارس حيث اشياعه واتباعه ، ولكنه تعرض الى مضائقات وملاحقات ومطاردة عباسية عنيفة ، اضطرته اخيراً الى الخروج والذهاب الى ناحية نائية تخفيه عن انظار العباسيين - فحط الرحال في بلدة «تدمر» السورية ، وأقام فيها تحت اسم «القدّاح» اي طبيب العيون ، فعرف في تلك

الديار باسم «القدّاح الفارسي».

وبعد موته انتقل ولده «عبدالله» الى بلدة «سلمية» السورية، واخذ يعمل في التجارة والزراعة تحت اسم «ميمون القدّاح»، وبعده تسلّم الامامة ولده «احمد» ثم «الحسين» واخيراً «علي».... وعلى هذا مات في سن مبكرة تاركاً ولده وولي عهده «القائم» في عهدة ابن عمّه - «سعيد الخير» او «عبد الله المهدى» الذي احتضنه وكفله وقام بالوصاية عليه تحت شعار «الامامة الاستيداعية» المعترف عليها في التعاليم الامامية الفاطمية.

ومن المعروف ان «عبد الله المهدى» انتقل من سلمية الى المغرب، وأسس الدولة الفاطمية وقبل وفاته سلم الى القائم بأمر الله شؤون الخلافة والامامة باعتباره صاحبها الأصلب، وبعد القائم تسلّمها «المنصور» ثم «المعز لدين الله» الذي نكتب سيرته في هذا الكتاب.

ان كل ما ذكر وسطر في كتب التاريخ القديم والحديث خلاف هذا عن هذه الاسرة يعتبر مزاعم وترهات وسخافات لا اساس لها من الصحة. وعلى العموم فهي مغالطات بعيدة عن الواقع.

اما «القرامطة» الذين يلعبون دوراً مهماً في كتابنا، فموضوعهم اتخاذ منه بعض المؤلفين - والكتاب واصحاب دور النشر في هذه الايام مادة للربح والتجارة، مثيرين حولهم الاقوال المتناقضة - والقصص الغريبة.

لا جدال ان القرامطة فرقة من الاسماعيلية خرجت على الدعوة في عهد «الستر» ببلدة سلمية - السورية، اذ اشكل على بعض اقطابها ودعاتها فهم الواقع، او النهج الباطني الذي كان يسلكه، وينقطع له الائمة الفاطميين في تلك الحقبة العصيبة، كما ان اجتهااداتهم ومحاسهم ذهب بهم الى حد اشعال الثورة المبكرة دون مراعاة او حسبان ما قد تجره تلك الثورة من فشل وانعكاسات، وكل هذا ادى الى حدوث انقسامات في الصفوف، فخرجت هذه الفرقة عن المجموعة، واتخذت لنفسها سبيلاً اخر، ومن الواضح ان القرامطة تنكروا للفاطميين، وابتعدوا عنهم، - وشنوا عليهم حروباً كانت

اقدس وأشد من حروب الامويين والعباسيين . من هنا فيجب علينا كباحثين التفريق بين الفاطميين والقراطمة ، وعدم الأخذ بما ذكرته بعض المصادر . فالقراطمة كانوا اقدس على الفاطميين من العباسين ، وعندما نذكر ذلك يتبادر الى ذهتنا جريتهم التي ارتكبواها في سلمية عندما اقدموا على قتل اسرة عبيد الله المهدى والقائم وعددهم / ٨٣ / شخصاً ، وحرمواهم التي شنواها على الفاطميين في ديار الشام ، وطرقهم ابواب القاهرة اكثر من مرة . وبعد هذا كيف نحسبهم من الفاطميين ، وهل من الانصاف ان نعتبرهم المسؤولين عن تصرفاتهم ؟

لقد سبق لي ان قلت اكثر من مرة ، بأنه لو لا موقف القراطمة المعادي للفاطميين في بلاد الشام ولو لا وقوفهم بوجه تطلعاته وطموحاتهم ... اذن لزالت الدولة العباسية من عالم الوجود ، ولتحقققت في عهد المعز لدين الله اكبر وحدة عربية اسلامية كبرى ، ولتغير وجه التاريخ .

اجل ... لقد ثبت بالدليل القاطع ان القراطمة في ثورتهم حرمواهم كانوا اداة طيعة في ايدي العباسين يوجهونهم اينما شاءوا وأرادوا ، ولم يكونوا في يوم من الايام مع الفاطميين . اما بالنسبة للعقيدة الدينية ، فالقراطمة اعتنقوا المذهب الفاطمي في بدء ظهورهم ، ولكنهم تحولوا فيما بعد الى فرقة علمانية تقوم تعاليمها ونظمها على الاممية ، والتتكر للاديان السماوية كما هو واقع الشيوعية الآن .

في ربع التاريخ:

ان ما ذكرناه في المقدمة لا نعتبره انتصاراً للفاطميين ، واما هي الكلمة حق سجلناها - للحقيقة وللتاريخ ، فنحن نأبى ان نسند لأنفسنا مهمة الدفاع عن هذه الاسرة الكبيرة التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح العالم العربي والاسلامي ، وكتبت في سجل الحضارة انصع الصفحات . فمهمنتنا كما عاهدنا انفسنا تنحصر بايراد الواقع والاحاديث مأخوذة عن المصادر الموثوقة ... دون تعليق ... فالتعليق معناه الرد ، والرد معناه ايضاً فتح الباب على مصراعيه ، والدخول في مناقشات ومهاترات لا حد لها ... وكل هذا نضرب صفحأً عنه .

والحقيقة فاني لم ار في التاريخ العربي اسرة حاكمة نالت من اهتمام الناس ، و تعرضت للطعن - والسب والشتم كما تعرضت هذه الاسرة ، ويكتفي ان يكون الامر قد وصل ببعض المتهجمين الى حد نسبتها - للיהودية تارة ، وللمجوسية اخرى .

وهنا لا بد من استعراض بعض اراء المؤرخين والمستشرقين المنصفين: ان المستشرق الافرنسي «دي ساسي» DE-Sacy في كتابته عن هذا الموضوع القى قبساً من النور ، وخرج عن مبدأ التحيز ، ويبدو انه وضع امامه فكرة نقد شذرات مهمة كتبها «الشريف اخو محسن العلوي الشيعي» وهو ضد الفاطميين ، وعميلاً للعباسيين ، وقد نقلها عنه «ابن النديم» ونسبها خطأ الى «ابن رزّام». ولكن المؤرخ «النويري» في كتابه «نهاية الارب» و «المقريزي» في كتابه «اتعاذه الحنف» ناقشا عبارة أخي محسن تلك ، وفندوا اقواله ، ولم يأخذوا بها .

اما « دي ساسي » وبعد ان اطلع على كل ذلك ، مال الى الأخذ بمبدأ صحة نسب - الفاطميين فقال :

« لو ان عبيد الله المهدي كان دعياً حقاً ، ولم يكن من سلالة علي بن ابي طالب ، فان ابناء علي الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس الى نفوسهم لم يفقدوا الامل قط في انه سيأتي اليوم الذي يستطيعون فيه ان يؤكدوا حقوقهم ، وان يهتموا بكشف القناع عن هؤلاء الادعاء ... ويضيف : ان مسألة نسب الفاطميين من اعقد مسائل تاريخ الشرق ، واكثرها غموضاً وابهاماً ويقيني ان كتاب التاريخ في ذلك العصر كتبوا ما كتبوا متأثرين بسطوة العباسيين الحاكمين .

وقال المستشرق « كترمير » « Quatremere »

على ان بعد الزمن ، وما ساد العقول من اوهام ، وما تسلط على نفوس الرجال من ميول ونزوات ، وما ادى به المؤرخون من ادلة متناقضة متضاربة ... فمنهم من كتب متأثراً بسلطان العباسيين ، ومنهم من قام بهذا العمل عن سابق عداوة وحقد لهذه الاسرة ، وكل هذا قد أحاط مسالتهم بظلام دامس ، وعلى الرغم من تباين اراء الكتاب الاقدمين في هذه المسألة ، فأني اميل الى القول باطمئنان وثقة : بان نسب الفاطميين الى علي وفاطمة صحيح ولا غبار عليه .

ويعلق بعض المؤرخين على قصيدة « التسريف الرضي » الشاعر الكبير ، والفقيه العلوى - المشهور ... تلك القصيدة التي أثارت وحرّكت احقاد وحقن الخليفة العباسي القادر . فقد نقل المؤرخ المقرizi عن هلال الصابي وابنه محمد بان الرضي لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفاً من الخليفة العباسي لأنَّ فيها دعماً لنسب الفاطميين ، ودليلًا على قرائته منهم ، ودحضها لما جاء في الوثيقة التي اجبر الشريف الرضي على توقيعها ... وتعتبر هذه القصيدة وثيقة تاريخية تثبت انتساب الشريف الرضي لخليفة مصر الفاطمي :

ما مقامي على الهوان وعندی مقول صارم وانف حیٰ
احل الضیم في بلاد الاعادی وبیصر الخلیفة العلوی
من ابوه ابی ومولاه مولا ی اذا ضامنی البعید القصیٰ
لف عرقی وعرقه سیدا النا س جیعـاً محمد وعلی
اما المؤرخ «ابن الاثیر» فقد جعل لقصيدة الشريف الرضی هذه اهمية
تاریخیة کبری وزاد فقال:

انه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلویین العارفین بالانساب،
فلم يرتابوا في ان الفاطمیین من ابناء علی وفاطمة.

ويأتي المؤرخ «ابن خلدون» ليدھض في مقدمته کافة الاقوال التي
انکر فيها الكتاب والمؤرخون صحة نسب الفاطمیین فيقول:
ومن الاخبار الواهية ما یذهب اليه الكثیرون من المؤرخین عن «العبیدیین»
ای اسرة - عبید الله المهدی الشیعة في القیروان، ونفیهم عن اهل البيت،
والطعن في نسبتهم الى اسماعیل بن جعفر الصادق، فھؤلاء يعتمدون على
احادیث لفقت للمستضعفین من خلفاء بني العباس تزلفا اليهم بالقدح من
ناصیبهم العداء.

اما المؤرخ المقریزی، فقد شدد النکیر على هؤلاء القائلین بعدم صحة
النسب، قفي بعض - مراجعه یعتبر ان نسبتهم الى القداح اسطورة
سخیفة... ويضيف على ذلك قوله:

ان الأئمۃ الفاطمیین في «سلمیة» لم یكونوا معروفین لغير خاصتهم، وان
العامۃ لم یکونوا یعرفون اسماء هؤلاء الأئمۃ، كما ان دعاتهم انفسهم کانوا
يختلفون قصداً في ذکر اسمائهم. وذلك لکی یحوطوهم في سیاج من المتعة
والتحفی . وقال في مكان اخر:

ان علیة القوم في مصر، ومن بینهم طائفة من الاخشیدین ورجال
البلاط... جميع هؤلاء قدموا كل ما استطاعوا من معونة لعبید الله

المهدي ، عندما جاء الى مصر بطريقه الى المغرب لا شيء الا لانه من اولاد علي وفاطمة .

وذكر حسن ابراهيم حسن . وطه احمد شرف ، في كتابهما عن المعز لدين الله الفاطمي :

بان المعز لدين الله يننسب الى الرسول العظيم محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، والى علي بن ابي طالب ابن عم الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وزوج ابنته فاطمة ... فهو فاطمي لانه من سلالة فاطمة ، وعلوي لانه من سلالة علي .

وفي الآيات التالية للشاعر المغربي « ابن سعدون الورجيلي » بيان واضح عن نسب عبيد الله المهدي :

هذا امير المؤمنين تضعضعت لقدمه اركان كل امير
هذا الامام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المحذور
يا من تحير من خيار دعاته ارجاهم للعسر والميسور

الإمامية الفاطمية: قيادة وسياسة في ظل الإسلام:

هذا الفصل كان لا بد من اثباته في كتابنا هذا ، لانه يلقي الاضواء على نواحي غامضة في تاريخنا ويظهر حقائق محجوبة عن الانظار ، ويعطي فكرة صحيحة عن موضوع شغل ويشغل فكر المثقف العربي اذن بكل ما نذكره في هذا الصدد لا يخرج عن كونه خدمة ادبية مجردة .

فنحن عندما نقول : بان الفكر العربي بالرغم من اتساعه وشموله ووفرة عطاءاته ، وخصب مخاته قد تأثر في عهد ظهور الاسلام بافكار غريبة ، ولقاءات جديدة تربت اليه من المجتمعات الدينية وثقافية اخرى بفعل -

العوامل السياسية العنيفة التي اتخذت اهدافاً مغایرة كانت ترمي الى احداث الفجوات في البنيان المتين الذي اكتمل بظهور الرسالة المحمدية السمحاء. فلا نكون قد خرجننا عن مبدأ الواقعية، او تجاوزنا حدود الحقيقة.

فهذا الفكر كان لا بد له من الرضوخ والانصياع الى الملائم، والى الاشعاعات التي ظهرت بسرعة في المجال، ثم تسربت الى الارض الخصبة تخلع عليها مبادئ جديدة وافكار تحمل في باطنها طعن الاصل والجوهر، وتفكيك كل ما جاء به من افكار وتعاليم ومبادئ. وقد يكون من اولى الواجبات على الباحث المنصف دراسة التقلبات الفكرية، والتلاحمات العقلية في ظل ذلك العصر البعيد، وتسلیط انوار العقل، واستخدام المجاهر لرؤیة الخيوط المشابكة، وسير اعمق ما وراء الموضوع من امور خافية، وقضايا مجھولة غطّت على الحقيقة وحجبتها عن الانظار. فالعقل الانساني منذ ان وجد على سطح هذا الكوكب يحنُ الى الانفلات من القيود التي توضع في ظروف مختلفة لتقيد افكاره وتطلعاته، ويتوقد الى الكمال المطلق حيث المعرفة والراحة والاطمئنان.

هذا الواقع الحيوي لا اجد له تعبيراً سوى القول:

بانه انتفاضة العقل، او الثورة على القديم ... فكثيراً ما تكون هذه الانتفاضات مخلوقة فيه، او راقدة في اجزائه تنتظر الفرصة السانحة للظهور، وقد يكون للعوامل، وللمؤثرات الخارجية اسبابها وفاعلياتها في تحركه وخروجه احياناً عن الواقع المألف.

اجل ... كان العقل العربي بعد ان استراح في ظل الاسلام يمتلك قوة روحية وطاقة طافحة بالایمان كانت مستعدة بقبول اي تأثير نبيل يدخل عليها ويزيدها قوة وتقدماً وانطلاقاً ... اذ ان الاسلام غمرها بالشمار الفكرية اليائنة، والدفع الجديد، والدم الشاب، فأفاض عليها الخلق والابداع واعطاهما النمو والازدهار، وقلب الموازين، وغير الاتجاهات لدرجة انه نفذ الى ما وراء الحدود ليزرع فيها بذور المعرفة والثقافة والشروع. ولكن

بعد هذا لا بد لنا من التساؤل؟

هل استمر ذلك الواقع طويلاً، وهل سلمت الافكار الجديدة من مؤثرات بروزت للوجود وفي جعبتها التيارات الجارفة والتعاليم العصبية التي تهدف الى احداث الانتفاضة في بناء العقل وتحوبله عن مبادئه واهدافه، وجعله يسیر في اتجاهات اخرى تكمن في جوانبها الشغرات والفحوات.

ان مبدأ «التشيع» كان اول بذرة غرست في ارض البناء... بل اول دعوة تسرية للمجتمع الاسلامي بعد انتقال النبي العظيم محمد (صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهي في الحقيقة فكرة يثنا وعمها ودعا اليها الفريق المعارض الذي خسر معركة الخلافة الاولى، او بلغة اصبح هي الطعنة النجلاء التي كان لا بد من توجيهها للفئة الحاكمية التي استأثرت بالحكم.... وتلك المبادئ كما هو معروف ارتدت الطابع الديني باسم «الخلافة» ثم تفرعت منها فيما بعد الدعوات الاخرى المختلفة التي لا تزال قواعدها قائمة وعاملة حتى يومنا

هذا . فالامامة التي تعتبر من وجهة النظر الشيعية المحور او الركن الاساسي للعقيدة وللدولة ، تطورت وانبثقت عنها نظريات اخرى اخذت ابعاداً اخرى مختلفة ثم تشعبت وادت الى اختلافات وانقسامات بالاصل وبالفروع ، مما يطول شرحه .

وفي هذه الصفحات نرى لزاماً علينا ، ونحن في صدد التحدث عن التاريخ الفاطمي ، ان نستعرض اراء اعلام الفاطميين في « الامامة » ودورها في القيادة ، وكل هذا مأخوذ من مصادر تاريخية موثوقة ، ولا شك انها سوف تغير الافكار ، وتحوّل النظريات ، وتعيد الحقيقة الى قاعدها ، والواقع الى اساسه .

فالامامة لم تكن في يوم من الايام بالنسبة للفاطميين الا القاعدة الرئيسية للدولة وللدين ، والمعروف انهم استعواضوا بها عن الخلافة التي قال بها الامويون والعباسيون كما انهم اطلقوا عليها اسم « الوصاية » ومعناها « التولية » ... اذن فهي نظام من انظمة الحكم قوامه القرآن واساسه الشريعة المحمدية .

فالامام عندهم هو نائب النبي والقائم مقامه في الحفاظ على اسس الدين ، وحماية الشريعة وحراسة مقدساتها وحفظها من اي تغيير او تحويل او تبديل . ومن الحقائق الثابتة :

ان الامامة ليست رجعة الامام بعد موته ، او التجسيم ، او الحلول ، او معرفة الغيب ، والاسرار ، والقدرة على كل شيء ، او تقمص الالوهية . وقد يكون من المفيد ايراد الشواهد التي تلقي الانوار الساطعة على هذه العقائد الفاطمية ، وتبعد عنها التقولات الاجرى التي هي بحد ذاتها بعيدة كل البعد عن الجوهر والاصل .

فقد ورد في كتاب « المجالس والمسائرات » خطاب وجهه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الى قاضي قضااته « النعيمان بن حبيون التميمي » قوله : « انه انتهى اليك والينا قولهم : انا ندفع تبوءة محمد ، وندعى النبوة بعده ،

وندفع سنته، وشريعته، وندعو الى غيرها . فلعن الله من قال بهذا، او اتحله، وادعاه، ومن تقوله علينا، ورمانا به، ونسبة اليـنا» .

وقال المعز لدين الله:

«يتنهـي اليـنا اخبار عن البعض ، من يزعم انه يتولانا ، وبعض من يدعـي انه يدعـو اليـنا . . . من الغلو فـينا ، والقول بما لم نقله في انفسـنا ، وبما لم يسمعـه احدـ منـا ، حتى كـأنـهم اعلمـ منـا بما يقولـونـهـ فـينا . ونحنـ نـبرأـ الىـ اللهـ منـ كـذـبـهمـ عـلـيـناـ ، وـتـقـوـلـهـ فـيناـ . فـحنـ مـنـ عـبـادـ اللهـ مـخـلـوقـونـ ، وـمـرـبـوبـونـ ، لاـ عـلـمـ لـنـاـ الاـ ماـ عـلـمـنـاـ وـصـارـ اليـناـ عـنـ نـبـيـهـ جـدـنـاـ مـحـمـدـ (صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـيـلـهـ)ـ مـاـ اوـدـعـهـ اللهـ ايـاهـ ، وـأـورـثـنـاـ مـنـ بـعـدهـ وـأـوـدـعـنـاـ . . . لاـ نـحـيـطـ مـنـ عـلـمـهـ الاـ بماـ شـاءـ ، وـلاـ غـيـرـهـ الاـ ماـ اـطـلـعـ عـلـيـهـ مـنـ اـرـضـاهـ كـيفـ اـحـبـ وـشـاءـ . . . لاـ نـدـعـيـ النـبـوـةـ وـالـرـسـالـةـ بـلـ نـحـنـ مـسـتـحـفـظـونـ عـلـىـ الـامـامـةـ . حـلـلـنـاـ مـنـ كـتـابـ اللهـ ، وـحـرـامـنـاـ مـنـهـ ، وـطـاعـتـنـاـ مـفـرـوضـةـ عـلـىـ عـبـادـ اللهـ بـحـكـمـتـهـ . فـمـنـ عـرـفـنـاـ فـقـدـ عـرـفـ اللهـ وـمـنـ جـهـلـنـاـ فـقـدـ جـهـلـهـ . نـحـنـ الدـالـوـنـ بـحـكـمـتـهـ عـلـيـناـ ، وـالـقـائـمـوـنـ بـأـمـرـهـ عـلـىـ عـبـادـهـ . نـحـنـ دـوـنـمـاـ يـقـوـلـهـ الـغـالـوـنـ ، وـفـوـقـ مـاـ يـظـنـ الـجـاهـلـوـنـ . . . اـنـ اـرـادـ مـنـ نـحـلـنـاـ عـلـمـ الـغـيـبـ ، وـنـسـبـ اليـناـ تـنـزـيلـ الـوـحـيـ ، اـنـ يـجـعـلـ ذـلـكـ مـقـدـمةـ لـنـفـاقـهـ عـلـيـناـ . . . »

وقال داعـيـ الدـعـاةـ الفـاطـمـيـ المؤـيدـ فيـ الدـينـ فيـ مـجـالـسـهـ المؤـيـدـيةـ :

«منـ دـانـ باـهـيـةـ الـبـشـرـ مـنـ مـضـىـ وـمـنـ غـيرـ ، خـابـ فيـ الدـارـيـنـ وـخـسـرـ ، وـمـاـ فـيـهـ عـبـرـةـ لـمـ اـعـتـبـرـ ، وـذـكـرـىـ لـمـ تـذـكـرـ . فـاستـعـيـذـوـاـ بـالـلـهـ تـعـالـىـ مـنـ الـوـقـوفـ فيـ مـوـقـفـ شـرـكـهـمـ ، وـاـطـلـاقـ الـالـسـنـ بـمـثـلـ اـفـرـائـئـهـ وـكـذـبـهـ . . . »

وقـالـ فيـ اـحـدـ مـجـالـسـهـ ايـضاـ :

«وـجـانـبـواـ الـغـلوـ فـيـهـمـ ، فـانـ الـغـالـيـ هـالـكـ ، وـفـيـ سـقـرـ هـالـكـ . وـاعـلـمـوـاـ انـ اوـلـيـاءـ اللـهـ مـنـ طـيـنةـ الـارـضـ مـعـجـونـونـ ، وـلـلـكـونـ وـالـفـسـادـ مـنـ حـيـثـ اـجـسـامـهـمـ مـضـيمـونـ . . . يـسـكـهـمـ الـشـرابـ وـالـطـعـامـ ، وـتـلـحـقـهـمـ الـاـمـراضـ وـالـآـلامـ ، وـيـقـضـيـ عـلـيـهـمـ عـنـ اـسـتـيـفاءـ اـيـامـهـ الـحـيـامـ ، لـاـ كـمـاـ زـعـمـ الـزـاعـمـوـنـ مـنـ الجـهـلـةـ

الذين تسببوا في اعتقادهم السخيف الى الراحة، واطراح التكليف انهم متزدون برداء الاهية... ففي قوهم من الخلل ما لا يعلق بقلب، ولا ينطوي على ذي لب..».

وقال الفيلسوف الكرماني في رسالة «المادي والمستهدي» :
«ان اعظم الفرق ضلاله هي فرقة الغلاة التي ضللت وأضلت غيرها فانسلخت عن جلة اهل الدين والديانة .»

وقال المؤرخ المقرizi :
«ان الحاكم بامر الله عمد سنة ٣٩٥ هـ. الى اصدار قوانين بداع الشعور الديني لاصلاح الاخلاق وتطهير النفوس من رذائل المجتمع، كما انه اصدر السجل المشهور وسماه: امان جدنا محمد خاتم النبيين وأبيينا علي خاتم الوصيين ». .

وقال ابن خلدون:
«واما ما رمي به الحاكم بامر الله من الادعاء بالالوهية غير صحيح، ولا يقبله عقل سليم »

وقال العلامة الدكتور سرور:
«ليس هناك ما يثبت ان الحاكم بامر الله قد ذهب بتصوراته الدينية الى حد الخروج على قواعد الاسلام». .

وقال الخليفة الفاطمي الثالث «المنصور بالله» وكان عالماً بالنجوم:
«والله ما نظرت فيها الاً طلباً للعلم، وتوحيد الله، وتأثير قدرته، وعجب خلقه، ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها، فما عملت في شيء من ذلك باختيار مني دلائل النجوم، ولا التفت اليه.»

وقال القاضي النعيم بن حيون قاضي قضاة الدولة الفاطمية:
«فإنما لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن أولياء الله، الزاعمون انهم يعلمون الغيب». .

وقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ايضاً :
إنما يذهب إلى النار من انتسب إلينا . وقال عَنَّا إننا نعلم الغيب . وما
تحفي الصدور »

وقال الدكتور « محمد كامل حسين » في كتابه « في ادب مصر
القاطمية » :

« وهكذا فانتا نرى الفاطميين لا يختلفون في عباداتهم عن غيرهم من
المسلمين ... فهم يحرمون ما حرم الله ، ويتجنبون المأثم والمعاصي ، ويحللون
ما احله الله لل المسلمين . قالوا :

بان الامام مكون من جسم ونفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم الى ما
يتاسبه ، فالجسم الترابي يعود الى التراب ، والنفس اللطيفة تعود الى ما
يناسبها ويحيط بها ... فلا تتناسخ ، ولا تتلاشى ... فالفاطميون لم يقولوا
بالتناسخ ، ولا بالخلو ، ولا بالتلاشي وهذا اكبر داعٍ من دعاتهم
المؤيد في الدين يقول في هذا المعنى » :

فكيف شرع الانبياء ندفعُ وما لنا الاَّ الذي مرجع
بنوره في الدرجات نرتقي وبالكرام العالمين نلتقي
يا رب فالعن جاحدي الشرائع وارهمم بافجع الفجائع
والعن الهي غالياً وقاليَاً ولا تذر في الارض منهم قالياً

وما يذكر عن الامام علي بن ابي طالب انه كان اشد قسوة وصرامة
على القاتلين باللوهية ، وهكذا جعفر بن محمد « الصادق » الذي حارب
الافكار المتطرفة الدخيلة كما حاربها احفاده .

وجملة القول : فان الفاطميين رتبوا لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكماً نكاد لا
نجد له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا الحاضر . وعندما
نقول ذلك يتبادر الى ذهننا العصر الذي عاشوا فيه ... ذلك العصر الذي
يعتبر من ازهى عصور الاسلام ، واكثرها رقياً ومدنية وحضارة ، وخاصة

من الناحية الفكرية حيث ان الحياة العلمية وصلت الى درجة كبيرة من النمو والازدهار.

فالفاطميون قرروا العلماء، وشجعوا الطلاب، وأوقفوا الارزاق الثابتة على المشتغلين بالعلم، وكانتوا اسبق من كافة الدول الاخرى في هذا المجال، وبكفي ان يكونوا قد عرفوا للعلماء قدرهم، وأعطوهם حقهم وفوق حقهم، وقد رأينا كيف كانوا يهتمون بإنشاء دور العلم والمعاهد وخزانة الكتب والمكتبات... وهكذا وجد العلماء لديهم ملاداً يأويهم من العوز، ويحميهم من الفاقة، كما وجدوا لديهم ما يشجعهم علىمواصلة البحث والتحصيل والدرس والتأليف.

وشعروا العلم القائم على العلم والعقل والجدل والمناظرات، لأن مبادئهم كانت تقوم على العلم والعمل بآن واحد، واستندام العقل، ومطابقة المحسوس للمعقول.

ولقد اثرت الفلسفة اليونانية، والمذاهب القديمة فيهم، فاهتموا بهذه الفلسفة، واستعملوا بعض اصطلاحاتها وطرقها، وقطفوا زهورها وزبدتها، ودرسوها حق دراستها... في وقت كانت الفرق الاخرى ترمي كل من يشتغل بالفلسفة بالزندة والاحاد. وقد ذكر المستشرق « او ليري » : « بان الحركة الفاطمية اخذت مكانتها في جو مشبع بالفكرة « الهليني » واحياء المواد اليونانية ». وقد ذكر التاريخ :

بان الخليفة الفاطمي الخامس « العزيز بالله » كاتب جبرائيل بن بختيشوع « واستدعاه الى مصر ولكنه اعتذر، واستدعى الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بامر الله « الحسن بن الهيثم » فاستجاب له وأقام في القاهرة تحت كنفه. وكتب الحاكم بامر الله ايضاً الى والي حلب يطلب اليه دعوة « المعري » الى مصر، وكان قد عرض عليه بناء دار للعلم خاصة به، مضافاً الى ذلك انه سمح له بخراج « معرة النعمان » طيلة حياته، وقيل بعد موته .

وكانا ذكرنا في بحوث سابقة ان الفاطميين كان لهم دعاء في جميع ارجاء البلاد الاسلامية يناقشون ويجادلون اصحاب المذاهب الاخرى ، وذكرنا كيف كان يلتفّ العلماء حول هؤلاء الدعاة ويتخذون عنهم العلوم والمعارف ، وهذا يدل على ان حركتهم لم تتوقف في قطر معين بل شملت كافة الاقطان الاسلامية وخاصة في القرن الرابع للهجرة .

فاين حوقل كان متشارقا حتى نسب اليه انه كان من دعاهم ، والفارابي عندما يتحدث عن القلم واللوح والحدود العلوية فانه يستخدم تعبيرهم واصطلاحاتهم ، وابن سينا عرف بأنه ابن احد دعاهم ، وابن فلسفته مستقاة من فلسفتهم مع بعض التعديلات والاجتهادات ، وابن الهيثم كان متصلاً بأحد أئمتهم ، والمعري كان متأثراً بآرائهم إلى حد بعيد ، وهكذا المتنبي ، وبديع الزمان المحمذاني ولد من ابوين اسماعيليين ، والغزالى في اواخر حياته آمن بفلسفتهم ، وهكذا نصیر الدين الطوسي ، والجريطي .
والحقيقة :

فإن الوقت لا يسمح ببعض التفصيل عن المدرسة الفاطمية الفكرية ودورها في خدمة العلم والفلسفة ... ولكن لا بد من القول :
بان كتابهم « رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء » قد ضم مختلف انواع العلوم كالرياضيات ، والموسيقى ، والطب ، والمنطق ، والادب ، والشعر ، وعلم الفلك ... الى غير ذلك . وهكذا يظهر لنا انهم اخذوا في كل علم ، وتفوقوا في كل فن .

اما « التوحيد » لديهم فيعطي الدليل على ايامهم بان الباري منزه عن الاسماء والصفات ، لم يتجلّس ، او يتشكل ، ولا تبصره الابصار ، او تدركه الافكار ، او تتحقق به العقول ... تعالى عن شبه المحدودين ، وتحيرت الأوهام في نعت جبروته ، وقصرت الافهام عن صفة ملوكته ، وكلّت الافكار عن ادراك عظمته .

قيام الدولة الفاطمية في المغرب: عبيد الله المهدي - الخليفة الأول:

شخصية خارقة فذة ضربت المثل الاعلى بالاقدام.... لم يكتب له الشهرة والظهور على مسرح الحياة، كما كتب لغيره من العظماء، ولعل هناك عللاً وأسباباً اعترضت مسيرة التاريخ.

صنفه بعض علماء التاريخ الانساني في عداد الخالدين الذين قارعوا الاحداث وانتصروا عليها وواجهوا العقبات فتجاوزوها ، ووصلوا اخرا الى شاطئ الاهداف .

وذكر بعضهم :

بانه من العباقرة الذين لا يوجد بهم الدهر الا عندما تحمل الارض وينحبس المطر ويعم العقم بني الانسان.

مؤسس دولة كبرى لعبت دوراً منها على مسرح الحياة في المشرق والمغرب في تاريخه شؤون وشجون، وحكايات مثيرة... وفي حياته تتجلى العظمة باجل مظاهرها .

في رحلته السرية سلمية - سورية الى سجلات في المغرب الاقصى تتجلى براعته وعقربيته ، وضlosureه في التخفي ، وانتحال الصفات ، والافلات من كائن الاعداء ، واختيار الوقت المناسب للعمل الملائم ، وباختصار: فان عبيد الله المهدي من رجال التاريخ ، وكم يكون التاريخ منصفاً وعادلاً عندما يضعه في طليعة الخالدين .

الرحلة العجيبة: - من المشرق الى المغرب -

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينك انا نحاول ملكاً او ثنوت فنعتذرنا

يختلط ماهر، وعقبري فذ، وقائد مظفر متين الاعصاب، يصحو من نومه ذات يوم على همسات الاصدقاء المخلصين، والدعاة الثقة العارفين بالامور الذين هرعوا الى لقائه، وفي جعبتهم ما يشير الخواطر، ويهز المشاعر... اجل.. لقد جاءوا اليه منذرین، طالبين الى قائدتهم الاسراع بعغادة مقر الدعوة «سلمية» الى مكان يكون اكثر امناً وراحة، وذلك قبل ان تحل الكارثة، ويقع ما لم يكن بالحسبان.

فماذا على القائد الكبير «المهدي» ان يفعل وهو يرى الحقيقة تتراهم امامه بأجل مظاهرها؟ فراح يقلب شتات الافكار بسرعة، ويضع امام عينيه كافة الاحتمالات. واخيراً: رأى ان يستجيب لانذار رجال دعوته المخلصاء، وينجو بنفسه من مكامن الخطر.

لقد علم في تلك الدقائق ان القرامطة قد اتخذوا كافة الاجراءات للانقضاض على مقر الدعوة «سلمية» وتدميرها، وادخل في حسابه انه لا يملك من القوى ما يكفل الوقوف بوجه هذه القوى الجباره او ايقاف زحفها. ومن جهة اخرى فان الدولة العباسية ذات التفوذ الواسع الممتد، والمixin على شتى بقاع العالم العربي والاسلامي سوف لا تقف مكتوفة الابدي بعد ان ظهر لها مقر الدعوة الفاطمية الذي يخبط القائمون عليه الى تقويض دعائم الدولة العباسية، والاطاحة بخليفتها.

هواجس وافكار عرضت للمهدي وهو في موقفه هذا... فهذه الدنيا الفسيحة على رحبتها ضاقت عليه بل ضئّت بفسحة صغيرة يتخذ منها ملجاً له ومقرًا؟ والى اين يذهب؟ والى اين يوكل امر اهله وقومه؟ وها ان الشغور والمرارات والموانئ والمحطات قد اصبحت ملغومة بالعيون والارصاد، فكلها تترقب حرکاته وسكناته.... تفحص كل عابر، وتدقق بهوية كل مسافر، وغرضها القبض عليه ونيل المكافأة والحظوة.

ويخطر في باله، وهو في خضم الاحاديث، الذهاب الى اليمن حيث اتباعه ومريديه، ولكن احوال اليمن لا تبشر بالخير.. وعرض في باله

المغرب... اي افريقيا الشمالية.... فهناك داعيته المخلص «ابو عبد الله الشيعي» الذي ناداه امس للحضور، وارسل اليه الاموال والتحف ليستعين بها اثناء الرحلة... ولكن كيف يمكنه الوصول الى المغرب، واختراق الطوق المحكم الذي فرض عليه، واجتياز هذه الايام الشاسعة الملبدة بالعثرات والاخطر والآفات.

انها خواطر مزعجة، وافكار سوداء، وهواجس كائحة دارت في رأسه، ولكن هل استطاعت الاحداث الطارئة ان تلين من قناته، او تجبره على الاستسلام؟... اليه هو الرجل المعروف لدى الناس بأنه لم يهن يوما من الايام امام المفاجآت، او يستسلم الى الاحداث منها بلغت من الشدة والعنف، او يطأطئ راسه امام الخطوب، او يتنازل عن كبرياته وعزته؟ وفي تلك الدقائق الرهيبة اتخاذ قراره بالرحيل، ولكنه ابقي ذلك سراً وبلمحة البصر انتقى رفقاء الرحالة العجيبة الشاقة، وفي تلك الليلة، وتحت جنح الظلام انتقل المهدى الى مدينة «حماه» السورية، وكان يرافقه ولي العهد «القائم بامر الله» وزوجته «أم حبيبة» وابنته، وابنه الصغير وبعض الخدم، وامين سره المخلص «جعفر الحاجب» ومن حماه انتقل الى قرية «سلحب» التي تبعد خمسة وعشرين كيلو متراً عن حماه الى الجهة الغربية الجنوبية، فبقي فيها ليلة بضيافة احد دعاته المشرف على تربية خيوله العربية الاصلية. وهناك مصدر آخر يذكر:

بانه ذهب الى قرية «طيبة الامام» الواقعة الى الشمال من حماه على بعد خمسة عشر كيلو متراً، فأخذ ما يلزمه من الخيول، وتوجه باتجاه دمشق... فكان يسير في الليلي، ويستريح في النهار.... ومن احدى ضواحي دمشق قصد حوران ثم تابع السير دون توقف حتى وصل الى «الرملة» التي تقع الى الشمال الشرقي من القدس، وكان للمهدى فيها داعياً مخلصاً يسمى «ابو الكوثر» فنزل في ضيافته، وهو يخفي شخصيته عن كل الناس الا عن داعيه صاحب المنزل وكان على جانب كبير من النفوذ والجاه والمكانة في

البلدة، مضافاً الى مرونته وخبرته، فنصح المهدي بالتريث . وعدم متابعة السفر، لأن علماء العباسين زرعوا الطرق والمرات والموانئ بالعيون والارصاد... وهكذا اقام المهدي في الرملة ينتظر الاحداث والأخبار ويتلهم لسماع ما جرى في بلدته «سلمية» بعد ان غادرها؟

احل ... كان يعتقد: بان القرامطة مهما بلغ بهم الجنون والخذلان فلا يتجرأون على مداهمة المدينة التي نهلوا منها ينابيع معرفتهم وافكارهم، ولا الاسوء الى الاسرة التي وجهتهم ورعنهم وضحت في سبيلهم، ولكن الواقع والاحداث جاءت على غير ما توقعه.

فإن «يحيى بن زكرويه» الملقب «بأبي مهزول» ما كاد يصل الى سلمية، بعد ان فرغ من تدمير «معرة النعمان» و «حاه» حتى فرض عليها حصاراً شديداً، وكان يظن ان المهدي لا يزال فيها، فامتنعت عليه البلدة بادئ ذي بدء، ولكنه عاد فهادن اهلها، ثم اقنعهم اخيراً بأنه ما جاء محارباً ولا غازياً، وإنما جاء يفرض الاجتماع بالمهدي، وتصفية بعض الخلافات تمهدأ لاعادة الامور الى مجاراتها وحالتها الطبيعية.... وبالاضافة الى كل ذلك اعطاهم العهد والأمان، ففتحوا له الابواب... وعندما تم له دخول البلدة اغمد السيف في رقاب اهلها، ومنع احداً من الخروج من الأبواب.

ويذكر التاريخ:

انه قتل جميع سكانها دونما استثناء، ولم يسلم منهم احد حتى صبية الكتاتيب كما امر بقتل الحيوانات الاليفة، والطيور الأهلية... وآخرأ جاء الى قصر المهدي الواقع في الجهة الجنوبية على مقربة من القلعة، ومن المسجد «ذو المحاريب السبعة» فأخرج كافة الافراد من عائلة المهدي والقائم باامر الله الى الساحة العامة للقصر وأمر احد السيافين، فتولى قطع رؤوسهم الواحد بعد الآخر، ورمى بجثثهم في احد الآبار، وذكر: ان عددهم كان /٨٣/ بين رجل وامرأة وطفل... ولكن هل شفى كل هذا غليل القرامطة وقادتهم يحيى؟

في الحقيقة: كانت رغبة السفاح تكمن بقتل «عبيد الله المهدي» وولي العهد «القائم بأمر الله» ولكنه لم يجدهما، وهذا ما جعله يشعر بالخيبة . . . فنزع إلى الخيلة وهو يظن أنها تتحقق رغباته، وتوصله إلى غايته. فكتب كتاباً إلى المهدي ، وأمر أحد رجاله - وقيل أحد أخواته - بالذهاب إلى الرملة او إلى أي مكان آخر يكون المهدي قد وصل إليه، فيسلمه الرسالة، ويؤكد له بان يجيء ما جاء إلى سلمية الا للاجتماع إليه، ولisburyته بالزعامة والقيادة . . . وان الناس بانتظاره الآن على اخر من الجمر على ابواب سلمية .

وصل الرسول إلى الرملة، وبعد جهود مضنية تمكّن من الاهتداء إلى مقر المهدي فدخل عليه وسلمه الرسالة . . . وكانت الاخبار قد وصلت إلى المهدي قبل ذلك صحيحة مفصلة عن هجوم القرامطة على سلمية وبادة الاسرة الفاطمية . . . وهنا تأبى عظمة المهدي الا ان تتجلى عند استقباله موعد زعيم القرامطة ، فلم تظهر عليه اية دلائل تشير إلى انه سمع بالاخبار، بل على العكس كان استقباله للرسول عادياً وحاراً . فتسلم منه الرسالة، وبعد قراءتها اعلن له عن موافقته على العودة بعد خمسة ايام اي بعد ان تكون زوجته قد استعادت صحتها ، ثم انه حَلَّه رسالة إلى أبي مهزول يخبره فيها بما عزم عليه .

بعد ذهاب الرسول ادرك عبيد الله بان بقاءه في الرملة لم يعد جائزاً ، اذ ربما جرّ عليه هذا البقاء كارثة اشد وادهى ، وبالرغم من عيون العباسين المنبثة في كل مكان قرر السفر . . . وهكذا كان . . . فغادر الرملة تحت جنح الظلام باتجاه الاراضي المصرية عبر «غزة» والواحات الصحراوية وكان يرتدي ثياب التجار الايرانيين ، وهكذا افراد عائلته ، وفي الاراضي المصرية لم يجد ما كان يخشى منه ، بل على العكس وجد الترحيب والاكرام في كل مكان . . . ولكن هذا لم يجعل دون القبض عليه ، وهو في موقع «الوجه البحري» ، وكان قد اجتمع إليه في ذلك المكان احد دعاته الاقوياء

المكلف بشؤون مصر وهو: « محمد بن علي بن محمود - «المقيم» » والى هذا الداعي يعود الفضل بتسهيل مهمته، وايصاله فيما بعد الى حدود «برقة» .
اجل ... جاء الجندي بعد الله المهدى الى مقر « محمد بن سليمان » القائد الاعلى ، او حاكم مصر من قبل العباسين في ذلك الوقت ، وكان مكلفا من قبل الخليفة العباسى « المكتفى » بطرد آخر ولاة الطولونيين في مصر ، وبعد ان تفذ اوامر خليفة بغداد ، مددت اقامته في مصر لفترة قصيرة معينة وتشاء الظروف ان يصل المهدى الى مصر خلال تلك الفترة وعندما جاء به الجندي « اي المهدى » طلب الاجتماع بالقائد على انفراد ، وبعد خلوة قصيرة خرج « محمد بن سليمان » ليعلن للناس: بيان الرجل ليس هو المهدى المطلوب ، وللتعميه امر بوضع جائزة مالية كبيرة لمن يقبض عليه .

وما هو جدير بالذكر ان بعض المصادر ذكرت: بيان الذي قبض على المهدى هو « عيسى النوشرى » عامل العباسين على مصر ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن المصادر التاريخية عادت وذكرت بعد ذلك: بيان خليفة بغداد العباسى قبض على محمد بن سليمان بعد عودته الى بغداد بتهمة الرشوة ، وقبض الاموال من المهدى لقاء اطلاق سراحه . وهناك مصدر فاطمي يؤكّد: بيان محمد بن سليمان كان من دعاة الفاطميين السريين .

وحدثنا « جعفر الحاجب » رفيق المهدى وأمين سره بسيرته:
بان المهدى نفسه دخل مصر متستراً في زي التجار ، وكانت الكتب قد وصلت الى مصر من بغداد في شكله وصفاته والأمر في طلبه ، ولكن بعض اهل خاصته وواли مصر كانوا مؤمنين بدعة المهدى ، فأسرع اليه بعضهم بالخبر ، ولطف الامر ، الى ان خرج من مصر ومعه القائم بامر الله وبعض افراد عائلته وخدمه وعيده .. . ويزيد جعفر على قوله:

سرنا - اي المهدى - ورجاله من الرملة الى مصر ، فاستقبلنا « ابو علي الداعي » وكان مقیما في مصر يدعوا بها ، واكثر دعاء الامام من قبله ، وكان الداعي « فيروز » هو الذي رعاه ورباه وزوجه ابنته ام اي الحسين ...

فتقدم اليه المهدى قبل دخوله مصر بان لا ينزله عنده ولا عند من يشار اليه بشيء من الامر، وان ينزله عند من يشق به، فأنزله عند «ابن عياش». ويروى المؤرخ الثقة «الأمير المسيحي» حكاية نقلها عن ابن محمد علي الداعي المقيم في مصر - وهو الذي رافق المهدى اثناء وجوده في الديار المصرية عندما كان في طريقه الى شمال افريقيا... قال: كنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الامام المهدى الى ان سمعت الجرس والنداء يقول:

الآ برئت الذمة من رجل آوى رجلاً صنته : كذا... وكذا...
ونعته: كذا... وكذا... ووصف صفة المهدى... فمن اتى به فله عشرة
الف دينار حلالاً طيباً... فقال المهدى:

يا ابا علي... المقام بعد هذا عجز، ثم ركب الجسر، وسرت معه
وسأله ان ارحل معه الى بلاد المغرب؟... فقال:

على من ادع من لي ههنا؟... فبكى فأنشدني شعراً مربى القيس:
بكى صاحبِي لما رأى الدرب دونه وأيقن أثنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينك اثنا نحاول ملكاً او ثموت فتعذرا

ويروى المؤرخ الامير المسيحي قصة اخرى عن وصول المهدى الى مصر، ورحيله عنها في زي التجار... وهذه القصة سمعها من احفاد ابي علي الداعي المقيم الذي رافق المهدى اثناء اقامته في مصر فقال:

صلى المهدى صلاة الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الاخضر
ومعه ابو علي الداعي، فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم
المهدى وقال له:

قد حصلت لي عشرة الف دينار... فقال له: وكيف ذلك؟ قال:
لانك الرجل المطلوب، فضحك المهدى ثم ضرب بيده على كتف الرجل،
واخذ به الى صدر الجامع وقال له:

عليك عهد الله، وغليظ ميثاقه، اذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة الاف دينار، ثم اخذه بيده، واتى به الى حلقة قد اجتمع الناس فيها، فأدخله من جانب، وفارقها بسرعة من باب الجانب الآخر، ولم يلتقيا بعد ذلك.

هذا... ويجب ان لا ننسى ان الداعي فiroz المصري كان مولجاً بالدعوة في الديار المصرية بعهد عبيد الله المهدي، وكان من اجل الناس عند الفاطميين، ومن اعظمهم منزلة.

ومن دعاة المهدي، والقائم بأمر الله ايضاً «ابو جعفر الجزري» وقد ذكر بان المهدي قد وكل اليه امر حريمته وامواله عندما فرّ من سلمية وقد توفي هذا الداعي فيما بعد في «رقادة» اما ابو علي الداعي المقيم فقد ذكره «جعفر بن منصور اليمن» في كتابه: «الفترات والقرارات» فقال عنه: بأنه كان يلقب ايضاً بالشيخ الأجل المفید، وهو احد تلاميذ فiroz وزوج ابنته، وهذا الداعي انجب ولداً هو محمد، وكان قد بلغ بعهد الخلفاء المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز المكان الجليل.

وفي كتاب «استثار الامام» ورد ذكر عدداً من الدعاة الذين عاشوا في دور الستر في سلمية وبعضهم ادرك قيام الدولة الفاطمية وهم: ابو غفير، وابو سلامة، وابو الحسن الترمذى، وجیاد الخثعمی واحمد بن الموصلى، وابو محمد الكوفي.

واخيراً:

غادر المهدي الديار المصرية، وعند وصوله الى نواحي «برقة» تقدم عبر الصحراء والواحات في المغرب الادنى - اي ليبيا اليوم - سالكاً طرق القوافل التجارية، وما زال يسير من مكان الى آخر متحملاً الحر والمشاق وخشونة قطاع الطرق والقراصنة واللصوص... فكان يعرض عليهم الهبات والاموال ويستخدمهم في قضاء بعض الحاجات الضرورية، حتى تمكن من

اجتياز مراحل الخطر... وعندما اصبح على مقربة من طرابلس علم به «زيادة الله بن الاغلب»... ولكن غضًّا الطرف عنه رغم ما لديه من اوامر عباسية بالقبض عليه، ويقال انه لم يتأكد من شخصيته تمام التأكيد، بينما يذكر آخرون:

بان المهدى اهداه بعض القطع من الجواهر الثمينة... ومن هناك تابع سيره بجنازاً اطراف المغرب الأوسط (تونس) عبر الواحات والصحراء والتلال، وبدلًا من ان يتوجه الى القطاع الذي استولى عليه قائد ابو عبد الله الشيعي، توغل في اراضي المغرب الاقصى على حدود الصحراء حتى توصل الى «سجلهاستة» وهناك قبض عليه اميرها «اليسع بن مدرار» وكان ذلك سنة ٢٩٦ هـ.

ان المصادر التاريخية لم تذكر الاسباب التي جعلت المهدى يسلك هذا الطريق الصحراوي البعيد كما ان المصادر اغفلت ذكر ابعاد هذا الحادث الرهيب الذي جعل المهدى يرمي نفسه في احضان المداريين، وفي بلاد ليس له فيها صديق، بينما كان بامكانه ان يختصر المسافة ويسلك طريقاً اقصر للوصول الى الاراضي المغربية الوسطى التي يسيطر عليها ابو عبد الله الشيعي... فهل ضلَّ المهدى الطريق... ام ان هناك اسباباً اخرى؟ وأخيراً:

علم ابو عبد الله الشيعي، وهو يتابع فتوحاته في المغرب الأوسط بما وقع للمهدى في سجلهاستة فقابل الخبر بعدم اهتمام مدركاً بان اي تحرك من جانبه، او اي حاس يبيده قد يعرض المهدى الى القتل... وهذا الموقف جعل اليسع يشكك في شخصية المهدى، ويعلن للمقربين منه:

بان الرجل المقبوض عليه، لو كان حقاً هو المهدى، لما وقف عبد الله الشيعي مكتوف الايدي وقال: لماذا يأتي المهدى من المغرب الادنى دون ان يخرج على البلاد التي يسيطر عليها صاحبه؟ كل هذا عرض امام اليسع،

وجعله في موقف المتردد عن اتخاذ اي اجراء، واكتفى اخيراً بان ارسل رسالة الى الخليفة العباسي في بغداد يطلعه فيها على تفاصيل قصة التاجر الايراني المقبوض عليه، ولكن الجواب تأخر وتأخر وكان ذلك من حسن حظ المهدي.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد، انني عثرت على مصدر تاريخي ورد في كتاب «الناصر الاموي» لمؤلفه «سيمون حايك» وفيه يذكر: ان المهدي في سجلها اقام اقامة جبرية معززة بالحراسة الشديدة في منزل تملكه امرأة من آل مدرار تسمى «مرم» وهي عممة اليسع بن مدرار، وكانت تقية ورعة وذات تأثير على ابن أخيها، واليها يعود الفضل بحقن دماء المهدي وعدم الاساءة اليه. ومن الجدير بالذكر: ان المهدي قدر موقفها، فاعطاها الاموال الوفيرة، والمدايا، وبعد ان تم له اقامة الدولة الفاطمية، اعطى اوامره بالمحافظة عليها، ورعايتها، كما ابقى املاكها، وأحاطها بعطفه وتقديره هي وابنائها طيلة مدة حكمه.

لم يتوقف ابو عبد الله الشيعي ساعة واحدة، بل تابع تقدمه وفتحاته وما زال في اندفاعه حتى وصل الى سجلها، وقد استغرقت رحلته الحربية هذه ما يقارب الثلاثة اشهر، وبعد وصوله احكم على المدينة الحصار، وأنذر اليسع بالاستسلام، ولكنه رفض بادئ ذي بدء وآخر:

ووجد ان ليس باستطاعته الوقوف بوجه هذا الجيش الجرار الذي يحمل ال怨ة النصر، ففرّ تحت جنح الظلام مع افراد عائلته، وكان قد اعد نفقاً خاصاً للهرب ينفذ الى خارج المدينة، وبعد فراره دخل ابو عبد الله المدينة وسط الأهازيم، وأغاني النصر، وتقدم الى سجن المهدي فأخرجه، وأركبه على حصانه وجاء به الى الساحة العامة، وقدمه الى الجيش الطافر بقوله:

«هذا هو المهدي الذي كنت ابشركم به»

ان التاريخ الطافح بالاحداث، لم يفصح لنا عن الاسباب التي حدثت

باليسع بن مدرار الى الاحتفاظ بالمهدي هذه المدة التي تقارب الثلاثة اشهر... فهل كان يخشى ان لا يكون الرجل المقبوض عليه هو المهدي الحقيقي ، فيرتكب بقتله جريمة تعرضه الى نعمة الناس؟ ام ان المهدي تمكّن من شراء سكوته بالاموال والهدايا .. كما فعل مع غيره... ويأتي من يقول: ان اليسع كان يريد ان يساوم ابو عبد الله الشيعي على المهدي ، ويتخذ منه ذريعة لانقاذ ملكه وببلاده ، وهذا كان من الممكن حصوله لو ان ابا عبد الله اظهر جزعاً او خوفاً ، او اهتماماً ... وكل هذه التساؤلات والافتراضات تجعلنا نقف امام التاريخ قائلين :

ايهما التاريخ ... كم في زواياك من قضايا غامضة !! وكم اغفلت الاصحاح عن حوادث مجھولة لا يزال الناس يتربون جلاءها باشتياق . ومهما يكن من امر ، فرحلة المهدي الشاقة العجيبة لا يزال يكتنفها الكثير من الاسرار ، ولعل القدر وحدها ، والاعمار والخطر هم وراء كل ما حققه من انتصارات في رحلته تلك ، ومن جهة ثانية يجب ان لا تغفل جرأته وعقريته وتدابيره ... فجميع هذا ساعد على تحطيم العقبات ، والوصول الى الاهداف .

اننا ونحن نكتب هذا الفصل عن الرجل العظيم ، نخني رؤوسنا امام عظمته ، ونقف بفخر واعتزاز امام الرجل الذي اجتاز الصعاب بمفرده ، ووصل الى ديار غريبة عنه ، فاستطاع بفترة قصيرة ان يؤسس دولة كبرى ، وان يجعلها ذات كيان ، ومحط انتظار العالم في هذه القارة المتراوحة الاطراف .

اجل ... اخرج ابو عبد الله الشيعي - المهدي - من سجنبني مدرار اصحاب سجلاء وهو يجر اذیال النصر والخلياء ... اخرجه وجاء به الى قصر ملوك «بني الاغلب» وأجلسه في مقام الخلافة ، وأواعز الى قواد الأولوية ، ورؤساء الكتاib بمبaitه والمناداة به خليفة للمسلمين ، وأميراً للمؤمنين .

وبعد ان تم كل هذا وسط الاهازيج والحماس التي دامت بضعة ايام، ذهبوا به وعائلته الى مدينة القيروان وهناك بايعه الزعماء والقادات وافراد الجيش والشيوخ والعلماء واصحاب القبائل، وبعد ان تم له ذلك انتقل بعد مدة الى مدينة «رقاده» وذلك سنة ٢٩٧ هـ. فأقام في قصر الامارة ومنه اعلن للملأ: قيام الدولة الفاطمية، وكان يعلم ان الدولة الفتية بحاجة الى بنيان ثابت وداعم قوية وساعدة متينة، واشتراك المخلصين . لهذا شمر عن ساعد الجد ، واخذ بتعيين القواد والخبراء والولاة والقضاة ، وأقام الدواوين، وشرع بالبنيان وال عمران ، وقد خصص قسماً من اوقاته للسهر على راحة الشعب ، وسماع الشكاوى ، وتأمين حاجاته ، وتوفير الامن والاستقرار والحياة الافضل ، وكانت مبادئه تستند الى فكرة اقامة حكم عسكري يقوم على اسس العدل والحرية والمساوة . . . وكل هذا لم يشغله عن تنظيم الجيش وتقسيمه الى فرق وكتائب مستقلة ومرتبطة بقيادة عامة ، كما جعل لافراد هذا الجيش وقاده الرواتب الشهرية والمساعدات التي تتناسب وما يقدمونه للدولة من خدمات وتحسينات ، ولم يغرب عن باله الاهتمام بشؤون الواردات والنفقات وقضايا الاقتصاد ، وغير ذلك مما يرفع بنيان الدولة الفتية ، ويرسي قواعدها .

وعلى ضوء قيام الدولة الفاطمية . . . نستطيع ان نقسم مدة ولاية المهدى الى مراحل ثلاث:

الأولى

بدأت هذه المرحلة بوضع الاساس لبناء الدولة ، واقامة قواعدها ، واختيار المعاونين ، والولاة والقواد ، والخبراء ، وربابنة السفن ، واختبار قدراتهم وخلاصهم . . . فطموح المهدى وتطلعاته لم تكن لتقف عند حد اقامة اماره صغيرة فقيرة بمواردها ، وعدد سكانها ، وقدرتها العسكرية . . . بل كانت امانيه تقتد الى ابعد من ذلك . . . كان يريد ان يقيم دولة كبرى ، او امبراطورية توازي بقوتها الدولة العباسية بل تفوقها قوة وحضارة . فالقضاء

على دولة «الاغالبة» في المغرب الأوسط ليس كافياً بحد ذاته . . . بل يجب ان يتبعه زحفاً يمتد شرقاً وغرباً حتى المحيط الاطلسي ، ثم تصفية دولة «الادارسة» تمهيداً للوصول الى الاندلس ويدخل في هذا اخضاع القبائل الكبيرة وضمها الى سلطانه ، وقد خصص لجزيرة «صقلية» القسم الأكبر من اهتمامه ، لأن الاستيلاء عليها ، وضمها الى دولته يعطيه القوة للانطلاق الى البحار ، واثبات وجوده في البحر الابيض المتوسط خاصة حيث الامبراطورية الرومانية . اما مصر فتبقى أمنيته الوحيدة ، لانها تشكل الشريان الحياني للدولة العباسية ، وكان المهدى يخطط للاستيلاء عليها ، والتنفيذ منها الى المشرق العربي .

الثانية :

هذه المرحلة تقع ما بين سنة ٢٩٧ - الى سنة ٣٠١ هـ . وفي خلالها تم له تسلم كافة الصالحيات والاضطلاع بالمهام القيادية العامة ، والسيطرة على عموم مرافق الدولة ، بما فيه تحرير الولاية والقواد من النفوذ المتزايد ، والخد من صلاحياتهم . . . وكانت اخطر قضية تبرز امامه في هذه المرحلة ازدياد نفوذ ابو عبد الله الشيعي ، ومحاولاتة الاستئثار بكافة الصالحيات . . . فكان لا بد من ايقافه عند حده وتجريده من كافة الصالحيات ، والمسؤوليات ، وآخرأ قتله .

وفي هذه المرحلة ايضاً عين والياً على صقلية ، وهاجم «كلابريا» او «قلوريا» وولى على طرابلس الغرب والياً ، وعلى برقة آخر ، وهكذا على «تاهرت» في المغرب الاقصى ، كما اخضع قبيلة «زناته» عندما اعلنت الثورة والعصيان . ومن الاحداث البارزة في هذه المرحلة ارساله ولـي العهد «القائم بامر الله» سنة ٣٠٠ الى سنة ٣٠١ هـ . الى مصر لفتحها ولكن الحملة منيت بالفشل .

الثالثة :

تعتبر هذه المرحلة اكثـر المراحل عنـفاً وتـقلباً ، ففي خلالها تم اخضاع

برقة للنفوذ الفاطمي بعد الثورة الكبرى، ثم مواجهة التدخل في المغرب الأقصى... ويز في خلالها قيام الادارسة بحرب ضد التوسيع الفاطمي في مكناس، وظهور التاجر «موسى بن أبي العافية». كما تم إرسال الحملة الثانية سنة ٣٠٧ هـ إلى مصر بقيادة القائم بأمر الله، وقد فشلت أيضًا. واعقبها إرسال الحملة الثالثة إلى مصر سنة ٣٢١ هـ بقيادة القائد «حبشي بن أحمد» الكتامي الذي أخضع قسماً كبيراً من البلدان المصرية لفترة تقدر بثلاثة أعوام، ولكن الاخشيديين قاوموا أخيراً الاحتلال، وتمكنوا من جلاء الجيش الفاطمي.... وكل هذه المحاولات اثقلت كاهل الدولة الفاطمية بالنفقات والأموال الطائلة.

وفي نهاية المطاف لا بد من القول:

بان عبيد الله المهدي عاش ثلث وستون عاماً، قضى منها خمسة وعشرون على سدة الخلافة في ديار المغرب، وقبل وفاته سلم الخلافة إلى صاحبها الأصيل «القائم بأمر الله».

وجملة القول:

فإن تاريخ عبيد الله المهدي لا تفي به الصفحات القليلة... وكيف ذلك وهو مؤسس دولة كبرى عاشت وازدهرت، ولعبت دوراً كبيراً على مسرح العالم في المشرق والمغرب.

«عودة إلى التاريخ» «الفتح العربي لشمال إفريقيا»

خرج «عبد الله بن سعد» إلى غزو إفريقيا الشمالية في عشرين الف رجل، وذلك في عهد الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» وعندما وصل إلى طرابلس الغرب وجد الروم قد تحصنوا فيها فتركهم وسار باتجاه البحر حيث هاجم السفن الرئيسية في الشاطئ، فتمكن من الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من المtau والمسلح والمأمونة، ثم رحل إلى قابس وكان الروم قد تحصنوا

فيها فدخلها دون قتال... ثم أكمل طريقه حتى وصل إلى شمالي إفريقيا، وهنالك واجههم ملكها «جرجير» بمائة وعشرين ألف مقاتل، فعرض عليه ابن سعد الدخول في الإسلام، فامتنع، كما رأى أن الكثرة التي معه قادرة على سحق القلة المسلمة واقسم في ذلك أن يزوج ابنته لمن يأتيه برأس عبد الله بن سعد... وذهب عبد الله بن الزبير بثلاثين من أصحابه فسلكوا طريقاً تعودوا أن يسلكه الجندي في الوصول إلى الملك، فلما رآهم ظنهم من جنوده حتى أشهروا السلاح عليه، وقتلوا، وبعد ذلك حمل المسلمون على عساكره فهزموهم واتبعوهم في السهل والوعر حتى أبادوا أكثرهم، ثم ساروا إلى فتح المدن والأقصى، وغنموا غنائم كثيرة من الأموال والخلي والذهب وفي تلك الفترة جاءوا بابنة جرجير إلى ابن سعد، فسألها عن قاتل أبيها؟ فأشارت إلى عبد الله بن الزبير... فأعطتها له.

وفي عهد يزيد بن معاوية ولـى عليها «عقبة بن نافع» فذهب إلى القيروان، وخلف فيها ولده مع البعض من جيشه، ورحل مع عسكر عظيم إلى «باغية» فقاتل أهلها قتالاً عظيماً وهزمهم، ومنها يمـ شطر «حس» فهزم أهلها، ودخل «الزاب» وظلـ باندفعه حتى وصل إلى «تاهرت» فوجـ عليها جـوع من البربر والنصارـ فأوقعـ بهـم، وتـكـنـ في النـهاـيةـ من الانتصار عليهم، وهـكـذاـ علىـ لـوـاتـهـ، وـهـوـارـةـ، وـزـدـاغـةـ، وـمـطـمـاطـةـ، وـزـنـاتـهـ، وـمـكـنـاسـةـ، وبـعـدـ انـ فـرـغـ منـ اـحـتـلـالـ الـمـغـرـبـ الـأـوـسـطـ دـخـلـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـىـ وـذـلـكـ سـنـةـ ٦٢ـ هـ. فـوـصـلـ إـلـىـ طـنـجـةـ وـكـانـ عـلـيـهاـ «ـيـلـيـانـ» فـاسـتـاءـ منهـ، وـمـنـهـ ذـهـبـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ «ـوـلـيـلـةـ» بـقـرـبـ فـاسـ «ـقـبـلـ بـنـاءـ فـاسـ» فـهـزمـ جـوعـ الـبـرـبـرـ، وـاتـبعـهـمـ حـتـىـ «ـدـرـعـةـ» ثـمـ نـزـلـ عـلـىـ «ـأـغـمـاتـ» ثـمـ عـلـىـ «ـنـفـيـسـ» ثـمـ «ـوـادـيـ سـوـسـ»، وـسـلـكـ «ـمـاجـةـ» ثـمـ «ـرـجـراـجـةـ» ثـمـ «ـصـورـةـ» وـ«ـإـيـصـرـوـلـ» وـ«ـسـرـنوـ».

وفي سنة ٦٩ـ هـ اـرـسـلـ عـبـدـ الـمـلـكـ «ـحـسـانـ بـنـ نـعـمـانـ الغـسـانـيـ» في أربعـينـ الفـاـ فـسـارـ حـتـىـ وـصـلـ إـلـىـ الـقـيرـوانـ... وـفـيـ سـنـةـ ٨٩ـ هـ اـرـسـلـ

الوليد بن عبد الملك «موسى بن نصير» إلى الاندلس، فأرسل ابنه مروان إلى السوس الأقصى، وارسل «زرعة بن أبي مدرك» إلى قبائل البربر فطقوهم، وأخذ رهائن من كنامة، وزناتة، وهوارة، ثم ولّ عليهم طارق ابن زياد، وعاد إلى إفريقيا.

إن المتبع للتاريخ يرى:

إن هذه البلاد منذ فجر التاريخ حتى الامس القريب، لا تزال تعيش حياة الفوضى وعدم الاستقرار... أو بلغة اصح الحياة القبلية في كل ما في هذه الكلمة من معنى. فمنذ الفتح العربي حتى ما قبل عهد الاستقلال، وهي عرضة للأحداث الفاجعة، والنكبات الصادعة... قبائل تبارى وتحاسد، وتتنازع النفوذ والجاه والسيادة والغنائم، فإذا احذأها الى الامويين فلا تلبث جارتها او شقيقتها بداع الحسد والغيرة الى الانحياز للفاطميين، او الى اية جهة تعاديها.

دويلات صغيرة وامارات متاثرة، وزعامات تقليدية معرضة للاختصار الساحقة تموت احدها، فتنهض اخرى لتحيا على انقاضها... وهكذا دواليك... عشائر تعيش على الطراز القديم البالي الخارج على سن التطور والتقدم... هدفها اثبات شخصيتها، وفرض ارادتها، وتحقيق اطماعها... فلا عقيدة، او دين يردعها، او يصدّها، او يقف في وجهها، كما لا مبدأ ولا وجдан يمنعها من اقتراف الجرائم، والعبث بالقيم والأخلاق.

تنقض المواثيق المبرمة، وتنكث بالعهود المعطاة دونما مبرر... فكل امير قبيلة او حاكم مقاطعة جعل من نفسه حاكماً فرداً، وضرب بالقانون، وبالأخلاق عرض الحائط... وكل امير يتربص بجيرانه من الامراء الدوائر متحيناً الفرص للانقضاض عليه، وازالة ملكه، او اقتطاع جانب من املاكه، وكثيراً ما يلجأ الى الدس والخداع، ومصادقة العدو الراهن، والاستعانة بالاجنبي الدخيل.

امراء يتلهون بتواوفه الامور، وصغارها عن الامور الجسمام، فكثيراً ما

صرفتهم هذه الأعمال عن اداء الخير، وخدمة الوطن والامة، وجعلتهم في مهب رياح الاهواء والنزوات.

اجل... كانت بلاد شمالي افريقيا مكونة من شعوب غريبة غير متاجنة، ومن عناصر وقبائل مختلفة لم يكن بالامر السهل دمجها في وحدة شاملة، او اخضاعها لنظام عام - هذا في عهد الدولة الفاطمية التي نتحدث عنها فطبعية البلاد الجغرافية، وتوزيع السكان في المناطق، وانتشار القبائل بعضها في امكانة صالحة، وببعضها في امكانة غير ذات قيمة... كل هذا وقف حائلاً دون ايجاد العلاج الناجع. فالوحدة التامة كانت غير ممكنة التحقيق، كما ان اخضاع هذه القبائل والشعوب الى سلطة عليا، او دمجها في دولة واحدة ضرب من المستحيل... ومن هنا انبثقت المتابعة، وأطلت الصعوبات بوجه دعاة الخير والاصلاح.

ومن الجدير بالذكر:

انه في عهد الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بامر الله» برزت الى الواجهة السياسية المغربية قبيلة «صنهاجة» وهي فرع من قبيلة «زناتة» فانحازت الى الفاطميين، بعد ان رأت القبائل الاخرى اي شقيقاتها قد اتخذوا سياسة معادية للفاطميين، وانحازوا الى الامويين. فزعيم صنهاجة نفسه «زيري بن مناد» هرع الى مصالحة «كتامة» رغم العداء القديم، ودخل معها في حلف تحت سلطة الفاطميين، وذلك ردأ على زعيم آخر كان ينافسه السيادة هو «محمد بن خرز» الزناتي زعيم قبيلة مغراوة الصنهاجية في المغرب الاقصى، وكان قد اعلن الولاء للأمويين، ومن الواضح ان هذه المناورات والتقلبات دامت مدة طويلة فكانت شغل الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله الشاغل في بداية عهده، وهكذا بالنسبة للخليفة الاموي الناصر في الاندلس.

«قبائل شمالي افريقيا» «البربر»

البربر قبائل عديدة، وشعوب مختلفة نزلت في افريقيا الشمالية، وامتدت

اوطنها من حدود برقة حتى المحيط الاطلسي ، وكانوا يتكلمون لهجات اعجمية قبل استعرابهم ، ولا يزالون حتى الان ، ويرجع اصلهم الى فئات عرقية مختلفة استقرت في تلك البلاد قبل الميلاد ، وعرفت منها « مملكة نوميديا » وهي موريتانيا اليوم .

اختلط بهم الفينيقيون واليونان اختلاطاً عابراً ، ولم يرتحوا في حياتهم الى حكم روما ، ولا تقبلوا الديانة المسيحية ، فهالوا عن الاولى والثانية .
ويذكر تاريخهم :

انهم سهلوا غزو « الفاندال » لافريقيا ، ولم يساملوا او يهادنوا البيزنطيين مرة واحدة .

عن التطلع الى مبادئ الخير والشرف والانسانية .

دخل قسم كبير منهم في الاسلام مع « عقبة بن نافع » ورافقو الجيش العربي في فتوحاته الى اسبانيا بقيادة طارق بن زياد ، كما انهم اتبعوا الخوارج ، وأعلنوا في اكثر الاوقات عصيانهم على العباسيين ، وفي عهد الفاطميين سار عدد كبير منهم مع « جوهر الصقلي » لفتح مصر وبلاد الشام .

وهم ينقسمون الى ممالك وسلطات منهم :

الأغالبة ، والرمسيون ، والمرابطون ، والموحدون ... وهذه الممالك زالت جميعها في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، فاختلط اهل المدن منهم بالعرب ، واعتصم الآخرون في جبال الأوراس ، والاطلسي ، وفي الارياف والصحاري ، حيث لا يزال القسم الاكبر منهم يحافظ على عاداته ، ولهجاته ، وتقاليده .

اشتهروا بجفهم للقتال ، وتعودوا على شطف العيش ، والحياة القبلية القاسية التي اكسبتهم التمرد ، وعدم الاخلاق للنظام نفوسهم متأهبة دائماً وابداً للمخاطر ، وركوب متن الاهوال ، واخلاقهم على العموم لا

تعرف الذين، ومن المؤكد انهم دون العرب حضارة، وان للعرب الفضل الأكبر عليهم، ولكن بالرغم من كل ذلك فانهم ينظرون اليهم نظرتهم الى عدو مستعمر جاء الى بلادهم فاتحاً. اما تزودهم من الحضارة الاسلامية فلم يكن على المستوى المطلوب. والحقيقة: لم يستطع احد من الفاتحین ان يغرس فيهم حب «الشيعة» الاً ابو عبد الله الشيعي قائد الفاطميين في المغرب.

اعظم قبائلهم عدداً وقوه هي: صنهاجة، وتعتبر من اهم قبائل «البرانس» وأوفرها شدة، وبأساً، واستعداداً للقتال، وتتفرع من زناته التي هي مجموعة قبائل. ومن صنهاجة يتفرع:

الطوارق، والمغار، والملشمون، وهؤلاء لعبوا دوراً كبيراً في قيام دولة «المرابطين» وتأتي بعدهم كتامة، وهي القبيلة التي اعتنقـت المبادئ الفاطمية على يد ابي عبد الله الشيعي ، واليها يعود الفضل في كل ما حققه الفاطميون من فتوحات، وانتصارات سواء في شمالي افريقيا ، او مصر، او المشرق.

دول شمالي افريقيا :

عندما قامت الدولة الفاطمية في شمالي افريقيا ، كانت دول ثلاث تبسط نفوذها على تلك الاراضي الواسعة :

بنو الاغلب في المغرب الادنى ، والمغرب الشرقي ، وبنو رستم في المغرب الاوسط ، والادارسة في المغرب الاقصى .

ومن مجريات الاحداث يظهر: ان الاولى والثانية ما لبثنا ان انقرضا بمجرد ان سطع نجم الدولة الفاطمية. اما الثالثة فقد حافظـت فترة غير قصيرة على ممتلكاتها . ومن الجلي الواضح ان بنـي الاغـلب كانوا في حالة اخطاط عند بزوغ فجر الدولة الفاطمية ، فلم يتمكـنـوا من الصمود بوجه الفتح الفاطمي الذي استهدف بلادهم في وثبـته الاولى .

عاصمة بلادهم كانت القيروان ، واحياناً « رقادـة » ، وسلطـتهم كانت تمتد

حتى قسطنطينية ومن الثابت ان الثورات الداخلية من قبل العشائر في مملكتهم لم تكن لتهداً، وهكذا الاغتيالات، والاضطرابات والمؤامرات.

اما بنو رسم فكانت عاصمتهم «تاهرت»، وكانوا يحكمون المناطق الصحراوية «من الجزائر اليوم» وكانت علاقتهم ودية مع جيرانهم البربر وخاصة زناتة، ومن الغريب ان هذه الدولة كانت سريعة الزوال، فلم تقو على الصمود ولو يوماً واحداً بوجه الفاطميين، وهناك مناطق اخرى كانت تحكمها امارات صغيرة مستقلة الواحدة عن الاخرى:

بنو مدرار في سجلهاة وما يتبعها... وهناك على ضفاف المحيط الاطلسي امارة «برغواطة» وامارة «ناكور». اما بقية البلدان الاخرى فكانت خاضعة لسلطان الادارسة الذين يرجع نسبهم الى ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب... وكان ادريس قد دخل المغرب سنة ١٧٠ هـ في عهد «يزيد بن حاتم» في افريقيا، وامارة «هشام ابن عبد الرحمن الداخل» في قربطة، وفي فترة ظهوربني مدرار في سجلهاة خضعت للادارسة كافة البلدان في المغرب الأوسط والأقصى، وفي عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله اسدل الستار على دولتهم.

الأيام الأخيرة:

ولد عبيد الله المهدي في «سلمية - سورية» سنة ٢٥٩ هـ. ومات ودفن في «المهدية» المغربية سنة ٣٢٢ هـ، فيكون قد عمر ثلاثة وستون عاماً.

كان فصيح اللسان، يمتلك القدرة العجيبة على الاقناع... مهيب الطلعة، يؤثر في السامع، محباً لعمل الخير، جريئاً بهدوء... لا يعرف التردد، مغرياً بالقراءة، واقتناء الكتب، وتربيه الخيول والصيد وكان كريماً الى حد كبير.

ولد في بيت علم وادب وثقافة، واعني به البيت الذي وضعت فيه سطور

اول موسوعة فلسفية عربية واعني بها « رسائل اخوان الصفاء، وخلان الوفاء ». .

ان المتتبع لمجريات الاحداث في المغرب يرى: انه لم يتم للمهدي السيطرة التامة على بلاد شمالي افريقيا كاملة. فالثورات كانت تندلع من هنا ومن هناك مهددة ومنذرة... كانت تنطلق كلما وجد اصحاب المطامع والناقمين والمعارضين فرصة سانحة او سبيلاً لاضرام النار، واعلان التمرد والعصيان.

اجل... لقد لاقى المهدي صعوبات جمة في اعادة الهدوء والاستقرار الى ارجاء دولته الفتية خاصة بعد مقتل ابا عبد الله الشيعي... فكم من مرة اضطر الى خوض المعارك بنفسه، او بواسطة ولي عهده القائم بامر الله... فتأديب العصاة، واحمد الثورات كانت عمليات شاقة بالنسبة الى رجل دولة انيطت به مهمات الحكم في دولة حديثة.

واخيراً :

مات الخليفة الفاطمي الاول « عبيد الله المهدي » في قصره بمدينة «المهدية» فجأة بعد عمر طويل قضاه في الجهاد، والنضال، ومقارعة الاحداث، وعوادي الايام.

مات الرجل الذي استطاع ان يؤسس دولة كبرى من العدم في ديار بعيدة عن وطنه، وفي ارض لم يسبق ان وطأتها قدماء، او عرف شيئاً عن طبيعتها، وأحوال سكانها. فجعلها بين عشية وضحاها محطة الانظار... او قل دولة ذات كيان، ينظر اليها الشرق والغرب نظرة اعجاب وتقدير.

مات الرجل العظيم الذي نسج التاريخ عن حياته فصولاً رددتها الدهر، وتغنى بها الرواية، وكم هو رائع ان تبرز في سطورها العبرية باجل مظاهرها... تلك العبرية التي رفعته الى قمة المسؤولية، وأجلسته على عرش الخالدين.

اجل .. لم يكن موت المهدى حدثاً بنظر الناس، او عارضاً بسيطاً يمر دون اهتمام او تساؤلات ، وليس هذا في ارجاء الدولة الفاطمية ، بل في عموم المشرق والمغرب .

والحقيقة :

فانه لحدث خطير ، ومصاب اليم تتعرض له الدولة الفاطمية وهي في مطلع شبابها ... فغياب الرجل العظيم ، والمؤسس ، والقائد ، والوجه ترك في نفوس العامة والخاصة على السواء اثاراً وانعكاسات لم يكن من السهولة تناسيها ، او غض النظر عنها ، وخاصة بالنسبة لولي العهد القائم باامر الله الذي امضه المصاب ، وجعله فريسة الحزن والارتياب ... تنتابه الاحزان والآلام على الرجل الذي رياه وعلمه وترك له هذا الملك الواسع .

لقد ادرك القائم باامر الله في تلك الساعة الرهيبة «ساعة الموت» بأنه فقد اغلى انسان عليه في الوجود ... ادرك انه اصبح وحيداً في وطن ليس له فيه اهل ولا اقرباء ... لا اسرة ولا ابناء عمومة ... الا بعض الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة ... فالمهدى كان بالنسبة اليه النور الذي ينير جوانب نفسه ، والأمل الباسم الذي يطل عليه من بعيد حاملاً البشرى والرجاء .

لقد حزن القائم باامر الله ... ومن حقه ان يحزن على الرجل المخلص الذي شاركه احزانه وأفراحه ... سعادته ، وشقاءه ... ولكنها سنة الكون ... وهذه هي خاتمة المطاف .

ذكر التاريخ :

انه ليس عليه السواد لمدة عامين ... فكانت الابتسامة لا تعرف ثغره وذكر: انه صبغ حجرات القصر باللون الاسود ولم يعرف عنه انه تطيب ، او تخضب بعد موته ، كما انه لم يخرج من قصره راكباً فرسه ... وكانت هذه عادة درج عليها المهدى عندما يخرج من القصر الى المدينة ، او الى اي مكان آخر .

اجل... مات المهدى فجأة... ولكن هل كان موته كموت اي شخص آخر في الدولة الفاطمية؟ وهل انتهت قصة الموت بسهولة كأي وفاة في الدولة الفاطمية، وهل نجت البلاد بعد ذلك من الكوارث والثورات، والاضطرابات، وهل ينتهي الامر عند حد القول : «مات الملك ليعيش الملك»؟

كل هذا حسب له حسابه القائم بامر الله... لقد فكر طويلاً... وخرج اخيراً من تفكيره وهو مصمم على مقابلة الحدث بالصبر ، والوقوف بعند امام الخطب الجلل ، وعدم الاستسلام الى اليأس والقلق... انها وصايا سمعها من المهدى ، وتعلمتها منه... ولا بد من تطبيقها في مثل هذا الموقف .

ان استعمال الحكمـة والتعقل في المواقف الطارئة امر لا بد منه ، وعلى الاخص عند خشيه من ان يؤدي نبأ اعلان الوفاة فجأة على الشعب الى وقوع اضطرابات ، واندلاع ثورات ، او ريا حدوث انتفاضة سريعة تطيح بالدولة الفاطمية الحاكمة .

وأدخل في حسابه ان القواد لم يبايعوه ، وهكذا ولادة الاقاليم ، والعلماء ورؤساء القبائل ، مضافاً الى كل هذا الاعداء المتربيـين والمعارضـين وجميعهم ينتظرون مثل هذه الفرصة... ينتظرون غياب العقل المدبر للدولة ليقوموا باعماـلهم المبيـة ، وكل هذا جعل القائم بامر الله يكتـم خبر الوفـاة ، ويعلن للناس بـان الخليفة يـشكـو من مرض عـرضـي بـسيـطـ ، وـانـه لا يـلـبـثـ ان يـتـعـافـىـ ، ويـخـرـجـ لـلنـاسـ .

ومن جهة ثانية ارسل بطلب المخلصـين والمقربـين من رجال الدولة وخاصة «الكتامـين» فطالـبـهم بـباـيعـتهـ للخلافـةـ تنـفيـذاـ لأـوـامرـ المـهـدىـ ، ورـغـبـتهـ قـبـلـ موـتهـ... ثم اـنـتـقلـ بعدـ ذـلـكـ الىـ قـوـادـ الـأـلـوـيةـ وـالـكـتـائـبـ وـأـمـرـاءـ الـجـيـشـ ، وـرـؤـسـاءـ الـقـبـائـلـ ، وـالـوـلـاـةـ ، وـالـعـلـمـاءـ ، وـاصـحـابـ الرـأـيـ فيـ الدـوـلـةـ... وبعدـ انـ تمـ كـلـ شـيـءـ اـعـلـنـ عنـ الـوـفـاةـ رـسـميـاـ.... وـهـنـاـ لاـ بدـ منـ

السؤال... هل كان تدبير القائم بامر الله كافياً لاخماد ثورة المعارضين والناقمين ، والمربيسين ، والخد من مؤامراتهم؟

ان الجواب على هذا السؤال، سيظهر جلياً واضحاً في الصفحات التالية التي نتناول فيها حياة القائم بامر الله، وما شهده ابان عهده من حروب وثورات... واعتقد: بان فترة حكمه من اصعب الفترات التي واجهها حاكم. ففي خلالها لم تغمس له عين، ولم تعرف الراحة اليه سبيلاً، وحيينا نعلم ان ابواب عاصمة ملكه «المهدية» قد دقت من قبل الثائرين اكثر من مرة، وان سكانها اضطروا الى النزوح منها... اجل عندما نعلم ان اسرة القائم بامر الله نفسها قد نزحت عن المهدية الى بلد آخر... ادركنا اية صعوبات واجهت هذا الخليفة وهو في مستهل حكمه.

قد تكون الاسباب كثيرة، والعلل وفيرة، فالاقطار المغاربية المؤلفة من شعوب غير متجانسة، وغير مرتبطة تعودت على حياة الثورات، والمحروbs، والفوضى. لأن كل استقرار او حكم عادل، او امن وطيد لا يتفق وطبيعتها ، وحياتها القبلية.

ومن الجلي الواضح ان تعاليم المهدى ، واصلاحاته، وتدابيره ، وما حققه للمغرب من ازدهار، وعمران، وأمن لم يخفف من ثقل الحياة القبلية ، او يذهب اثارها... ولم تعرف به الا قلة من الناس... وانى له ان يتزعزع من النفوس، بل من الدماء هذا الشعور الموروث منذ مئات السنين.

ومهما يكن من امر... فالشعوب التي تنتقل من حالة قديمة الى حالة جديدة بسرعة لا بد لها من المرور بمراحل صعبة... والمغرب ذلك البلد الذي تحول بسرعة الى دولة ذات كيان... كان لا بد له وهو في مطلع عهده ان يتعرض طبيعياً للالاحاديث ، وللعواصف الهوجاء.

القائم بامر الله
- الخليفة الفاطمي الثاني -

ولد الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بأمر الله» في بلدة «سلمية» - السورية » سنة ٢٧٩ هـ وشبّ وتربع في ربوعها ، وشاهد بل عاصر وهو في مقتل العمر الانتفاضة «القرمطية» ضد الدعوة الفاطمية والتي اضطرته إلى الفرار مع ابن عمّه ، وابيه الروحي «عبد الله المهدي» إلى المغرب . كما شاهد مظالم العباسيين ومطاردتهم وقتلهم ابناء عمومته من العلوين في كل مكان ... فحمل لهم منذ صغره الكراهة والبغض .

شارك «عبد الله المهدي» آلامه وأفراحه ، فكان رفيقه ، وأمين سره ، وابنه المطيع ، وتلميذه الذي يتلقى منه التعاليم والتوجيهات برحابة صدر ، ويدخل في هذا النطاق التمرس على الشؤون السياسية والإدارة ، والقيادة والاضطلاع بشؤون الحكم . واخيراً كان رفيقه في رحلته الشاقة العجيبة من سلمية إلى سجلهاسة في المغرب الأقصى ... تلك الرحلة العجيبة التي تحمل فيها القائم بأمر الله ، وهو الشاب الطري العود المصاعد وألام الغربة ، والحزن على اسرته في سلمية التي ابتدت على ايدي القرامطة ، فضلاً عن عذاب وألام الاعتقال في سجلهاسة .

كان المهدي معجباً بالقائم وبمؤهلاته ، ولهذا اعده للولاية ، فخصه بشقتة ، وأناط به اعظم مسؤولية في الدولة ، وأعني بها قيادة الجيوش ، وفتح الامصار ، وتأديب الخارجين ، وإخراج الفتن والثورات .

لقب بأبي القاسم ، وتسلم شؤون الخلافة سنة ٣٢٢ هـ ، وتوفي في المهدية سنة ٣٣٤ هـ .

عاش في سلمية سبعة عشر عاماً ، وأمضى خمسة وعشرين عاماً في ولاية العهد في المغرب ، وأثنى عشر عاماً في الخلافة ... أما مجموع عمره فخمسة وخمسين عاماً .

قال عنه المستشرق «برنس مامور» :
«كان رجلاً غامضاً عميقاً لا يسر غوره ، ولا يحاط بمداده ، يأخذ

بالقوة والحزم في الحوادث الطارئة واستطلاع الامور... وكان داهية له نظرة فاحصة تصل الى اعماق السرائر، وخفايا النفوس، وشجاعاً لا يلين، وكان عارفاً ذو خبرة باختيار الرجال، واصطفاء الاصدقاء، بالإضافة الى كل ذلك كان صبوراً وطيب القلب، يحب عمل الخير والاحسان، وفيما للشعب، ويحب انصافه واسعاده، وخاصة الطبقة الفقيرة العاملة، وكان محباً للحروب، وللمغامرات يبادرها بنفسه، وينازل الابطال في الميادين، وعرف عنه سعة حيلته في اساليب القتال، واستعمال الخديعة في بعض الاحيان».

دشن الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله عهده بارسال حملة الى برقة لفتح مصر بقيادة القائد الكتامي «ميسور الفتى» فتمرکز في برقة بانتظار الاوامر بالزحف الى مصر، ولكن التحركات المعادية والانتفاضات الداخلية اندلعت في كل مكان، وكان اهمها ثورة «موسى بن ابي العافية» الفاسي الذي ما كاد المهدى يغيب عن هذا العالم حتى خرج من مخبئه، ودعا الى الثورة... وكان الخليفة الاموي في قرطبة عبد الرحمن الناصر، قد فتح له خزائنه، ووضع الامكانيات المغربية تحت تصرفه، فانطلق يحتل المدن والقرى، ويعيث ويقتل ويذمر في كل مكان، مما حل القائم بامر الله على استدعاء ميسور الفتى وجشه في برقة وتوكيله بعمدة القضاء على هذه الثورة مهما كلف الامر. فانطلق ميسور الى جهات فاس، وهناك خاض معارك طاحنة استمرت وقتاً طويلاً وكانت نهايتها انحرار موسى، وذهب به بعد ذلك الى «ناكور»، وبعد سلسلة من المعارك تمكّن من القضاء على جيش موسى قضاء مبرماً.

وتشاء الظروف ان تندلع ثورة ثانية ولكنها اكبر وأهم واشد خطورة، واعني بها ثورة الخوارج بقيادة «ابو يزيد مخلد بن كيداد اليغرني» من قبيلة زناتة، فعاش في مدن وبلدان الفاطميين فсадاً، ثم جاء وتمرکز على مسافة خمسة عشر ميلاً من العاصمة «المهدية». مما حدا بسكنها الى النزوح

باتجاه طرابلس الغرب حتى ان اسرة المهدى نزحت هي ايضاً، ولم يبق في العاصمة الا حامية للدفاع عنها.

وما يجب ان نشير اليه ان جيوش القائم بامر الله كانت وقتنفذ تخوض المعركة الاخيرة مع موسى بن العافية بقرب «تلمسان» وكان جيشه الثاني يقاتل قرب «تاهرت» و «وهران» جيوش زناتة بقيادة «محمد بن خزر» التي حركها الامويون، ودفعوها، وأيدوها للقيام بالثورة.

امام هذه الاحداث الرهيبة لم يجد القائم بامر الله بدأ من الاستنجاد بصديقه «زييري بن مناد» زعيم صنهاجة الذي خف على راس جيش كبير، وأجبر ابو يزيد على الارتداد نحو القبrians.

وهناك امر يجب ان لا يغيب عنا، وهو استمرار الغارات البحرية الفاطمية من صقلية على الموانئ الرومية... تلك الغارات التي لم تنتقطع. هذه جملة الاحداث التي عرضت للقائم بامر الله ابان حكمه، وهي على العموم سلسلة متواصلة من النضال والجهاد.

ومهما يكن من امر فان القائم بامر الله لم يعرف الراحة ابان حكمه، ولا قبل حكمه... فكان في المشرق كما في المغرب في صراع مع الايام لا ينتهي، وفي نضال مع الاعداء لا يتوقف عند حد.

ففي المغرب تعتبر حياته وهو ولی للعهد في خلافة المهدى من اصعب الايام وأقساها، ويکفى ان تكون مهمة القيادة العامة للجيوش الفاطمية قد انيطت به. اما بعد استلامه الخلافة، وكما رأينا فان الاحداث والثورات لم تترك له مجالاً للراحة، وكانت دولته معرضة للسقوط اكثر من مرة.

واخيراً :

مات القائم بامر الله، وثورة مخلد بن كيداد الخارجي قائمة تهب وتنطفيء على مقربة من عاصمة ملکه... اجل... مات الخليفة الفاطمي الثاني تاركاً لولي عهده «المنصور بالله» معالجة الامور...

والمتصور بالله شاب متحمس، طري العود، ولديه الكفاءة ما يكفل بقاء هذه الدولة قوية راسخة البنيان.

«المتصور بالله»
- الخليفة الفاطمي الثالث -

دخل رجل من قبيلة كتمانة على المتصور بالله، وكان في احدى قاعات قصره المنيف في مدينة المهدية يلاعب سلحفاة فقال:

يا مولاي رأيت أبا يزيد الخارجي «صاحب الحمار» يضرب برمجه باب المدينة الغربي ... فاستغرق المتصور من الضحك وقال:

اوَ فعلها؟ انه لن يعود ثانية ... وسوف اعلق جثته على باب المهدية الغربي، وفي نفس المكان الذي دق رمحه ... فاذهب وبشر كل من تراه عينك. ثم عاد لملاءبة السلحفاة وكأن شيئاً لم يحدث.

مسكين المتصور ... مات والده القائم بأمر الله، وهو يرسل نظراته إليه، مات وأثار الحزن تطغى على قسمات وجهه ... ذلك الوجه الذي لم يكن يوماً الا ضاحكاً مستبشرًا ... مات وعيناه المعلقتان به تودان ان لا تتحولا عنه، لكي تعبرا له عنها يختلج في داخله من الاسى لهذا الفراق المبكر... مات وهو يعلم ان دولته الفاطمية التي كرس حياته لها، وسهر على بناء قواعدها وأمنها واستقرارها أصبحت على شفير المهاوية ... فالثورات تهب في ارجائها، والانتفاضات تعصف في بنيانها، والعواصف والانواء تكاد ، او كادت تزعزع اركانها ، وتدرك معالها .

... مناطق عديدة انفصلت عنها واستقلت ، وبلدان ومدن كبرى ، وصغرى انضمت الى الثنرين ، ورفعت اعلامهم ... وقبائل شتى استسلمت للثنرين دونما قتال خوفاً من السيف المسلطة على الرقاب ، وخاصة بعد ان فقدت كل امل بالحماية ، وبوصول الامدادات والمعونات ، وبين هذا وذاك - او بين عشية وضحاها أصبحت خزائن الدولة خالية خاوية ، فلا موارد

تردد ، ولا ضرائب تدفع للدولة ، والجيش المحارب اخذ يشكو وي يتظلم من قلة المواد والمعاش ، وانى له الحصول على شيء من كل هذا وعاصمة الدولة الفاطمية تطوقها خيول المغيرين ، وتدق ابوابها رماح التائرين .

كل هذه المشاهد ، والهواجس عرضت امام القائم بامر الله ، وهو على سريره ، وفي ساعاته الاخيرة ، وما زاد الالمه معرفته بان امور الدولة الفاطمية ستؤول تلقائياً الى ولده « المنصور بالله » الذي كان قد سماه لولية العهد على مشهد من كبار رجال الدولة . والمنصور لا يزال طري العود لم تعركه الايام ، ولم يسبق له ان تمرس على اساليب الحكم ، وادارة شؤون الدولة ، او عرف سياسة الرعية . كما لم يتتسن له خوض غمار الحروب او قيادة الجيوش ، او خبرة اسرار الحرب فهذا يستطيع مثل هذا الشاب ان يفعل امام هذا الخضم الواسع من الاحداث ؟ وانى له الخروج من الأزمات القاسية ، ومجاهدة هذه القوى العنيفة الجبارة التي ظهرت في كل جهة تزجّر ، وتهدد ، وتشن الحروب ، وتعلن العصيان .

وقف المنصور بالله صامتاً امام سرير والده البار ... وقف يتطلع بعطف وحنان الى الوجه الشاحب الذي اذهب المرض المفاجيء نضرته وبهاءه ، ولم يتالك نفسه من ذرف دمعة ، لم يلبث ان مسحها حتى لا يراها والده ، فتضعف ثقته به ، وتزيد من حزنه .

اجل ... شعر المنصور بالله في تلك اللحظات انه خسر اباً رحوماً ، وقلباً حنوناً احبه حباً صادقاً ، وحنا عليه ، ورعاه ، ورباه وقتل له الماضي ، وساعات الانس التي كان يقضيها بقربه بعيداً عن مشاغل الحروب ، ومؤتمرات السياسة ، وأحاديث القبائل ، ومشاكل الدولة ... فذلك الماضي قد تلاشى رويداً ، رويداً ، وتبدد كما تبدد الرياح الغيوم .

صفحة من الحياة طواها الدهر الى الأبد ، وذكريات من العمر ستعود الى ذهنه كلما خلا الى نفسه .

وعاد المنصور بالله الى قلبه يهدىء من اضطرابه ، وابى دموعه يمنع

انسكابها ... وبين هذا وذاك اخذ يردد :

تلك مشيئة الله ، ولا مرد لقضائه ... والحمد لله الذي جعل الموت حكماً من حكمته ، وأمراً جارياً على العباد من مشيئته ، واستأثر بالملائكة ، واذل خلقه بالفناء ... تبارك اسمه .

اسمه المنصور بالله ... لقبه ابو طاهر ، وكان يحب ان ينادي باسماعيل تيمناً باسم جده الاكبر اسماعيل بن جعفر الصادق . ولد في القيروان سنة ٣٠٢ هـ وليس في المهدية كما ذكر... تولى الخلافة بعد وفاة والده القائم بامر الله سنة ٣٣٤ هـ . وكان في الثانية والثلاثين . مات في المنصورية سنة ٣٤١ هـ ، فيكون قد عاش تسعة وثلاثين عاماً ، امضى منها سبعة اعوام في مقعد الخلافة .

ذكر اسمه في التاريخ محاطاً بهالة من المديح والاطراء ... وقد اتفق جميع المؤرخين على القول :

بانه كان شاباً وسيماً ، يمتلك القوة والرجلولة ، والبراعة في القتال ، وعمليات الكسر والفر... طموحاً ، علي الهمة ، عزيز النفس . شعاره في الحياة الصدق ، والصراحة ، والوفاء والثقة بالنفس الى جانب ثقافة واسعة ، وفصاحة ، وامتلاك ناصية اللغة العربية ، بالإضافة الى انه كان شاعراً رقيقاً ، وعالماً بالفلك والنجوم ، وخطيباً مفوهاً يرتجل الكلمات ، وعبارات الحماسة التي تقربه من قلوب الناس وخاصة المحاربين الذين تحت امرته ، فيسيطر على مشاعرهم ، ويملك محبتهم بفصاحته ، وبيانه ، وقوه منطقه .

لم يذكر التاريخ الا القليل جداً عن طفولته وشبابه ، وكل ما عرف عنه : انه عاش في كنف والده القائم بامر الله ، وعاصر الاحداث والثورات التي اندلعت في اجزاء الدولة ، فكان كثيراً ما يلح على والده بالسماح له بالخروج لخوض المعارك ، ولكن الوالد البار كان يخاف عليه من الاندفاع الشديد ، ومن الحماس الذي لا يقف عند حد ، لهذا وقف بوجه رغباته ، وتطلعاته .

كتم خبر وفاة والده القائم بأمر الله عن كل الناس مدة ثلاثة اعوام، خوفاً من ردة فعل ، وحتى لا تؤثر الصدمة على افراد الجيش الذين كانوا يحاربون في الاقاليم الثائرة البعيدة.

ومن المؤكد انه دفن والده في فناء القصر سراً، وظل هو معروف في الدولة باسم ولي العهد مدة الاعوام الثلاث اي حتى تم له القضاء على ثورة الخوارج .

واخيراً :

مات في سنة التاسعة والثلاثين اي سنة ٣٤١ هـ . وسبب موته ورد كما يلي :

خرج الخليفة المنصور بالله للصيد مع بعض رفاقه، فاشتد هطول الامطار، وهبت رياح ثلجية عاتية عليهم بينما كانوا في منطقة جبلية بعيدة عن العمran . فلم يجدوا لهم ملجاً، ومات اكثر من كان معه . اما بالنسبة له فقد قارع الرياح ، وعاد الى المنصورية ، وهو منهوك القوى ، واهن الجسم ، وبدلأ من ان يركن الى الراحة ، وتلقى العلاج ، دخل الحمام وكان طبيبه « اسحاق بن سليمان » قد نهاه عن ذلك ، فلم يأخذ بنصيحته ، واشتد عليه المرض اخيراً ، واصيب بالارق ، فطلب طبيباً آخر اعطاه دواءً منوماً سبب له الوفاة .

وجاء في مصدر آخر :

خرج الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله سنة ٣٤٢ هـ متتنزهاً الى بلدة « حلولاء » وتبعد عن القيروان اربعة وعشرون ميلاً – وهو موضع كثير الشمار ، والفاكه ، والرياحين ، وفيه من الارتفاع ما لا يحمل الجمل منه غير اربع ... وعندما كان في طريق العودة هبَّ ريح شديد ، وبرد ، ومطر ، وكثير الثلج ، فهات جماعة من معه واعتلت المنصور علة شديدة ، وبعد وصوله الى المنصورية اراد عبور الحمام ، فنهاه طبيبه « اسحاق بن سليمان »

عن ذلك ، فلم يقبل ، ودخل الحمام فذهبت الحرارة الغريزية منه ، ولازمه السهر فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر ، فاشتد ذلك على المنصور ، وقال بعض خواصه :

اما في البلاد طبيب غير اسحاق؟ . . . فاحضروا اليه شاباً من الاطباء يقال له : « احمد بن ابراهيم الجزار » فشكوا اليه ما يجده من السهر ، فجمع له اشياء مخدرة جعلت في قنينة على النار ، وكلفه شمّها . . . فنام ، وخرج الطبيب مسروراً بما فعله ، فجاء اسحاق ليدخل على المنصور بالله فقيل له : انه نائم . . . فقال : اذا كان صنع له شيء ينام منه فقد مات ، فدخلوا عليه فإذا هو ميت . دفن في قصره ، وعندما ارادوا قتل ابن الجزار منعهم اسحاق بقوله :

لا ذنب له ، انا داواه بما ذكره الاطباء ، غير انه جهل اصل المرض ، ولم يعرفه . اما انا فكنت في معالجتي له اقصد تقوية الحرارة الغريزية التي بها يكون بعدها النوم . . . فلما عولج بما يطفئها مات .

ان هذا الخليفة المقاتل كما ساه التاريخ ، لم يمهله عمره سوى سبعة اعوام قضى اكثراها خارج عاصمة بلاده . . . قضاهما في الساحات والميادين . . . في السهول والجبال . . . في الصحاري والحزون . . . واخيراً مات فجأة قبل ان يستطيع تنفيذ ما كان يدور في رأسه من مشاريع ، وخاصة بعد ان قضى على الثورة الكبرى . . . ثورة الخوارج التي دامت قرابة عشرة اعوام . . . تلك الثورة التي لم تبق على شيء .

وباعتقادي :

لو ان الاجل منحه فسحة من العمر . . اذن لاستطاع ان يحقق للدولة الفاطمية ما لم يستطع تحقيقه احد من السابقين او اللاحقين ، وعلى الاخص في مجالات العمran ، والازدهار ، والهدوء ، وتنظيم الادارات ، والجيوش . . ولكن لربك في ذلك شأن وهو اعلم .

في الحقيقة :

ان جوانب كثيرة في تاريخ الفاطميين ستظل غير مفهومة عملياً، بل ستظل مغلقة لدينا ما دمنا نهمل دراسة الحقيقة، وأوضاع العصر الذي نشأ فيه الخلفاء الفاطميين، والمبادئ التي ساروا عليها، وارادوا تعميمها على المجتمع.

فهناك، ولا مجال للريب بذلك عقريات، وافكار، ومواهب سبقت عصرها، وتقدمت الزمن ... وان الواجب العلمي يقضي علينا ان نشير اليها . فالابداع في اي مجال لا تكون له اية قيمة او مكان الا اذا بالغ في التعبير عن روح العصر، او اهتدى الى استخلاص الطريق السوي بعيداً عن الببلة ، والاضطراب .

فالقول :

بان انساناً عقرياً موهوباً، وان عقريته وموهبتة شيئاً قائماً بذاته لا ارتباط له بما يحيط به من مشاكل واحداث يكون بمثابة الحكم على الانسان بالجنون . لأن كل عقيرية او موهبة لا تكون ذات قيمة الا اذا عبرت عن روح العصر الذي نمت فيه .

ومن هنا : نجد ان عظماء الانسانية سواء أكانوا أنبياء او رجال فكر، او قادة شعوب ، يظهرون في عصر الاضطراب الفكري عندما تختلط السبل ، وتتضارب المفاهيم ، ويتكاثر دعاة الهدایة الزائفية ، او غربان الضلال . اذن فليست العقيرية متأتية من العدم ، او المصدر المطعم بافكار غريبة شاذة قد لا تختلف في اساسها عن تلك التي تصدر عن الهدیان . ولكن العقيرية الحقة ، او المعجزة الانسانية هي في دراسة واقع العصر، والاهتداء الى روحه ، والتوفيق في التعبير عن حاجاته .

وهذا هو السبب في ان عظماء التاريخ لا يظهرون عادة الا بعد ان تسبقهم التحركات ، والمشاكل ، والتخبط في مجاهل الحياة ، او عندما يأتي

العبري ليمثل الوعي ، والنضج في سير حركة التاريخ .
اذن فمجيئه يكون بناءً على حاجات العصر ومتطلباته . من هنا ... فاننا
عندما نضع الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله امام واجهة التاريخ لا
يسعنا الا القول :

بان عبريته التي بزرت في ذلك العصر ، وابداعه ، وخلقه ، لم تكن لتم
لولا حاجات ذلك الزمن ، ولو لا متطلبات الدولة التي كانت تقف على شفير
الهاوية .

اجل ... لم يترك له والده القائم بامر الله دولة عامرة ، موطدة الاركان ،
ناعمة البال ، بل ترك له دولة واهنة تتقاتدها الانواء والتيارات ، وتهدد
امنها ، وسلامتها الثورات ... ويكتفي ان نعلم ان عاصمتها كانت شبه
مطروقة ، يقع ابوابها التائرون برماحهم ، ويهددونها بالسقوط المرة تلو
المرة ... اضف الى ذلك استنفاذ الموارد ، وفقدان المتطلبات ، وابتعد
الرجال .

فهبَ المنصور من عرينه ، وبمفرده ، واستطاع بقوة ارادته ، وشجاعته ان
يسحق الخصوم في الداخل ، والخارج في سلسلة من المعارك الطاحنة قادها
بنفسه ، وتجلت فيها عبريته وخبرته باساليب القتال ، والكر والفر ، وهكذا
تمكن بعد بضعة اعوام من توطيد دعائمه ، واخضاع التائرين ، وبسط الامن ،
والاستقرار ، والرخاء .

ولم يهد الله بعمره ، بل لم يمنحه الفرصة الكافية لتنفيذ منهاجه ... ولعل
ذلك من سوء حظ اتباع هذه الدولة .

صحيح ... ان ولي عهده « المعز لدين الله » الخليفة الرابع كان طاقة من
الذكاء والعبقريه والرجله ، ولكن المنصور بالله يفوق الخلفاء السابقين
واللاحقين اقداماً ، وشجاعة ، وقيادة .. واذا كان عبيد الله المهدي يعتير
المؤسس الاول للدولة الفاطمية ، فان المنصور يعتبر المنقذ لتلك الدولة حينما

اشرفت على الغرق .

ومهما يكن من امر ... فان ثورة الخوارج العنيفة بقيادة ابو يزيد كانت من اهم ما واجهه المنصور ابان حكمه ... وقد مر معنا ان والده القائم بامر الله مات، وتلك الثورة العاتية على اشدها .

فهذه الثورة لم تكن كباقي الثورات الاخرى التي اندلعت في شمالي افريقيا ... انها الثورة التي كانت تهب مرة في جهة ، ثم تخبو ، لتعود الى الظهور في منطقة اخرى ، وهي اشد عنفاً واندفاعاً .

والحقيقة :

فهذه الثورة لم يألفها اهل المغرب ، لأنها من الغرابة بمكان ... فتارة تنبث في اطراف المغرب الاقصى ، ثم لا تثبت ان تنطفئ ، لتهب من جديد في مناطق كتمة ، وصنهاجة ... في الصحراء ... في القيروان ، او في رقادة ، او في سوسة ، او على ابواب المهدية ، واخيراً في الجبال حيث القلاع والمحصون والمعاقل ... وهكذا دواليك ، وكل هذا اشاع جوا مكهراً مليئاً بالتعقيد بالنسبة للخليفة القائم بامر الله ، ناهيك عن ان الادارسة في المغرب الاقصى كانت احوالهم غير مستقرة او غير مطمئنة فالبلاد الخاضعة لسلطانهم يتقاسمها عدد من الامراء ، منهم من يوالي الفاطميين مرة ثم يعود الى احضان الامويين ... فضلاً عن تحركات الزناتيين ، وثورتهم المعادية التي اندلعت بقيادة « محمد بن خزر » وهي في واقعها ، وابعادها كانت تشكل سندآ ، او رديفاً لثورة الخوارج .

وأهم من كل ما ذكرناه ذلك الوضع الذي كان يحتم على عدد كبير من جنود الكتاميين والصنهاجيين البقاء في المدن الرئيسية للحفاظ عليها من الغارات والهجمات . وكل هذا من الخطط المدببة التي سهر عليها ونفذها بدقة وعناء الامويون في الاندلس .

وجملة القول :

كانت البلاد التي تحكمها الدولة الفاطمية في ذلك العهد - اي عهد المنصور بالله كالاتون تغلي مراجله ، فليس فيها منطقة او جهة تنعم بالهدوء والاستقرار، حتى ان المهدية عاصمة الدولة كانت تحت الحصار، وكان بامكان ابو يزيد الخارجي احتلالها بسهولة... ولكن حتى الان لم يذكر التاريخ سبب تفاسره ، واحجامه عن اقتحامها... وقد اعتبر الخبراء ذلك الموقف المتردد من التأثير الكبير خطأ عسكرياً ، وسوء ادارة وتقدير.

كل هذه اسباب حركت الخليفة المنصور بالله ، ودفعته الى الخروج بنفسه لمباشرة القتال معلناً بان خروجه تنفيذاً لأوامر الخليفة... فعاهد الله والشعب الا يعود الى عاصمة بلاده المهدية الا بعد ان يستأصل الداء العضال .

اجل... واختار المنصور بالله لمعاونته اقوى المحاربين والقواد من كتامة وصنهاجة وصقلية... فنظمهم في الوية ، وكتائب ، وقسمهم الى فرق ، وأقام عليهم القواد الشباب المتحمسين الذين يتحلون بالمعنوية ، والثقة ، والإيمان... وكان اقدامه على تسلم القيادة العامة باعثاً لاذكاء الحماسة في صفوف الجنود الذين اكروا شجاعته ، واقدامه . ومن جهة ثانية فقد ترك «لزيري بن مناد» مهمة التصدي للزناتيين ، واطفاء هيب ثورتهم الكبرى في المغرب الاقصى... وهكذا انقسم الجيش الفاطمي الواحد الى جيشين ، وبدأت العمليات العسكرية على نطاق واسع ، وخاصة لدى المنصور بالله الذي طبق ، وأوجد الاساليب الحديثة في العمليات العسكرية ، وحضر على النظام والطاعة وتنفيذ الخطط الحربية بدقة ، كما منع الفوضى والاستقلال بالرأي لدى القواد ، وحارب الاساليب العشائرية القدية التي كانت سائدة ، والتي كانت سبباً بتراجع الجيوش الفاطمية في بعض المعارك ، فالمتصور بالله المحارب الجريء ادرك منذ اللحظة الاولى ان الجيوش الفاطمية لا يمكن لها ان تتحقق اي انتصار ، او احراز اي تقدم في

الميادين الآء بعد ان تنزع عن الجيش الصفات القبيلية، وأساليب القتال القديمة.

وهكذا انطلق الى تنظيم جيشه، وتقسيمه الى كتائب للهجوم ، واخرى للدفاع ، وبعضاها للاستطلاع واضعاً نصب عينيه نظام الجيوش المتحضرة الحديثة المحاربة ، وكل هذا كان يقابله جيش للعدو تسيطر عليه روح الفوضى ، والعشايرية ، والإقليمية ... فلا خطط عسكرية محكمة ، ولا نظام ، ولا طاعة ، ولا كتائب ، ولا ألوية ، ولا قواد مسؤولين ، بل جيش كثيف مؤلف من عناصر مختلفة يؤلف بينها مبدأ حب الغزو ، والنهب ، والاستيلاء على المغانم والاسلاب ... جيش يأتمر بأمر رجل واحد مهمته السيطرة على البلدان ، وقتل الآمنين ، والسرقة والنهب ، والعبيث فساداً في كل مكان ... وهذا ما سهل اندحاره في المعارك ، وتبديد شمله .

لقد جاء في المصادر التاريخية :

ان ابا يزيد الخارجي اتخذ من مدينة «القيروان» عاصمة لثورته ، فجعلها قاعدة حربية ، او ميداناً للتعبئة ، والتدريب ... يغير منها على المدن ، والقرى الاخرى في المغرب الأوسط ... وهذه المدينة كان قد احتلها في عهد الخليفة الثاني القائم بامر الله ... اما هو فاتخذ من «رقادة» التي تبعد اربعة اميال عن القيروان مكاناً لقيادته .

وكان قد اعد لجيشه الحرارة خياماً ، وسرادق خارج اسوار المدينة ، وذلك لصيانتها من الواقع تحت الحصار ، وكان ابا يزيد وهو في مقره في تلك الآونة يعتبر بان الدولة الفاطمية اصبحت في حكم المنتهية ، وانه سوف لا يقوم لها قائمة بعد الان ... وكان ايضاً استخفافه جلياً عندما علم بان المنصور بالله قد انيطت به قيادة الجيوش الفاطمية ... فشك في نجاحه بال مهمة التي فشل بها والده من قبله ... وهكذا استسلم للراحة وللامان ، واكتفى بارسال الامدادات الى الزناتيين ، واقامة الاتصال بهم ، وتوحيد الاهداف ، ومramي القتال . وقد ذكرنا ان الزناتيين كانوا يقاتلون زيري بن

مناد امير صنهاجة في اطراف المغرب الاقصى... هذا ولم يكن يدور بخلده ان المنصور بالله قد اعد حملة كبرى من فرسان كتامة وصنهاجة للانقضاض عليه، واخذه على حين غرة.

اجل لقد ادخل المنصور بالله في حسابه وجود هذا الجيش الكثيف الجرار المخيم في ضواحي القيروان... فهزيمة هذا الجيش قد لا تتم بسرعة وسهولة، الا اذا فاجأه بعملية خاطفة منظمة تهد كيانه، وتسد عليه منافذ الاهرب.

وأعد المنصور بالله للامر عدته، وظل ثلاثة اشهر وهو يعد هذا الجيش ويرتبه ويرنه على اساليب القتال.... وعندما تم له ذلك: انطلق من المهدية باتجاه القيروان في وقت غروب الشمس، وعند آخر الليل، وصلت طلائع جيشه الى مشارف المدينة، فأعطي اوامره بان ينال الجنود قسطاً من الراحة، وان يتزودوا بكل ما يحتاجونه استعداداً لخوض معركة تدوم طيلة النهار، ثم اعطي اوامره ايضاً بعد فترة من الراحة والاستعداد بالانقضاض على جيش الخوارج وكان يستسلم الى النوم غير حاسب اي حساب لما تخبيه الايام... كان افراده يعلمون بان النصر قد تتحقق او كاد... وبان جيش الفاطميين لم يعد قادراً على التحرك... ولكنهم لم يشعر الا والخيول المغيرة تنقض على المخيمات لتتدوس بجوارها النائمين، واشتعلت النيران بالمخيمات، وبينما كان جنود الخوارج ينفضون عن جفونهم غبار الرقاد، وينهضون لاطفاء النيران، حتى ان بعضهم لم يتمكن من النهوض، او الخروج للوقوف بوجه الجيوش التي راحت تدك معاقلهم.اما ابو يزيد فكان في رقاده يغط في نومه غير حاسب اي حساب لمثل هذه المفاجأة الغريبة. فالاخبار كانت تأتي اليه بان المنصور في المهدية قابع بقرب والده القائم بامر الله «المريض» وانها عاجزان عن القيام بأى عمل عسكري خاصة، وليس لديهما سوى حامية صغيرة اعداها للدفاع عن المدينة.

وهكذا انقضت جيوش المنصور بالله على خيام جيش ابي يزيد المنتشرة في سهول القيروان.... انقضت كالعقبان... كالبرق الخاطف... فداست الخيول المغيرة بجوارها الجثث التي كان اكثراها على فراش النوم، وتلاعبت السيوف في الرؤوس المستسلمة للراحة، ولللامتنان، وبعضها ذهب طعماً للنيران بينما فرق اخرى من جيش الفاطميين رابطت، وسدت منافذ الهرب، وفي ظرف ساعة او ساعتين تحولت تلك السهول الى بركة من دماء الخوارج، فكنت لا تسمع سوى انين الجرحى، ولا ترى الا الجثث والرؤوس ملقاة على الارض، وخرج ابو يزيد من مخبئه مع حامية رقاده، وقصده انقاذ الوقف، والتصدي للمغيرين، ولكن المنصور بالله اعد قوة خصصها لملاقاته على ابواب المدينة الجميلة، ولما رأى ان زمام الامر قد افلت من يده، اسلم ساقيه للريح، وولى هارباً مع بعض رفاقه، وجعل وجهة سيره «سوسة» المدينة الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط... هذه المعركة تحدث عنها المؤرخون، وقد وصفها بعضهم: بانها من المعارك الخالدة في تاريخ المغرب.

اما الحرب بين زناتة المؤيدة من الامويين، وصنهاجة المدعومة من الفاطميين، فكانت حرباً سجالاً بين كر وفر... وبالنسبة لدولة الادارسة في المغرب الاقصى فكان اصحابها منقسمون على انفسهم. يتولى حكمها افراد الاسرة التي يخضع اكثراهم لنفوذ الامويين.

وامتدت ايادي الامويين الى صقلية، ودفعت الاموال لاغراء المواطنين، واعلان الثورة والاستقلال، ولكن المنصور بالله اعد لكل امر عدته، فعين عليها «الحسين بن علي الكلبي» واعطاه صلاحية اマارة البحر والاسطول... والحسين هو احد القواد البحريين الكبار المدربين، وصاحب الخبرة بجموع البحار... فقبض بيديه على ناصية الامور، وأخذ بمهاجمة المدن الرومانية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط وعندما اندلعت نار الحرب الطائفية بين المسلمين والمسحيين تصدى الكلبي للمؤامرة، وخاض معركة بحرية قاسية

مع الاسطول الروماني الذي جاء بحججة حماية المسيحيين، ومنعه من انزال الجيوش على الشاطئ.

لم يتوقف المنصور بالله عند هذا الحد، بل واصل زحفه باتجاه «سوسة» وهناك باشر الحرب الفعلية مع الخوارج الذين تحصنوا داخل الاسوار، ولم يتمكن المنصور بالله من احراز الانتصار الاخير الا بعد عام، وبعد ان استقدم قوات جديدة من المهدية بواسطة الاسطول، فدخل سوسة واستولى عليها واستسلم اكثراً جنود ابا يزيد اليه... اما ابو يزيد نفسه فقد فر الى الصحراء والجبال حيث اتخذ منها قاعدة جديدة للحرب وللتعبئة.

ولكن المنصور بالله اقسم على مواصلة القتال حتى يتسلى له القبض على الثائر، فزحف وراءه واخذ يستولي على القلاع والمحصون الواحدة بعد الاخرى، وفي نهاية المطاف حاصر ابا يزيد في احدى القلاع، وعندما ضيق عليه الحصار، نزل ابا يزيد وطلب مبارزة المنصور بالله، فقبل العرض، ودارت بينهما رحى معركة جرح في نهايتها ابا يزيد في كتفه، فترك الميدان، وأركن الى الفرار، باتجاه الصحراء، فلم يشأ المنصور بالله ان يتبعه جرياً على عادته بان لا يتبع مهزوماً، وفي ثاني يوم ارسل بعض رجاله، فقبضوا عليه مختبئاً في احدى المغاور.

وقد اتفق المؤرخون:

بان المنصور بالله امر باعدامه، والتتمثل به، فسلح، وحشى جلده قطناً، ثم صلب لمدة عام على باب المهدية الجنوبي - اي في المكان الذي دقه برمجه. وكان ذلك سنة ٣٣٩ هـ.

بعد ان تم كل هذا للمنصور بالله عاد الى قاعدة ملكه، واعلن للناس عن وفاة القائم بامر الله واخذ يقبل المبايعة من الناس... ويجب ان لا ننسى انه بعد عام من وفاة ابي يزيد قام ولده الاصغر «فضل» فدعا الى الثورة، راغباً اعادة سيرة والده، ولكن المنصور بالله ارسل ولده وولي

عهده المعز لدين الله وكان له من العمر تسعة عشر عاماً، فتمكن من قتله في المعركة الأولى، والقضاء على ثورته في مهدها.

اجل . . . بعد ان تم للمنصور بالله هذه الانتصارات، وبعد ان عاد المدوع الى ارجاء بلاده انتقل الى المنصورية - وهي العاصمة الجديدة التي امر ببنائها ، للاستعاضة بها عن المهدية التي تقع على شاطئ البحر فجعل لها سوراً وخمسة ابواب ، وبنى فيها قصراً سماه : قصر المداية ، كما جلب لها المياه من مكان بعيد ، وقد ظلت عاصمة الدولة الفاطمية حتى وقت انتقال المعز لدين الله الى القاهرة .

وفي هذه الفترة عمل على ايقاف النشاط الذي كان يقوم به ابناء عبيد الله المهدى بغية استلام الملك ، كما لم يمنعه ذلك من التفكير بما حققه ويتحققه ابناء موسى بن ابي العافية ، و محمد بن خزر من الانتصارات في المغرب الاقصى ، فقرر الانضمام الى جيش الصنهاجيين الموالي له ، وانهاء هذه الحرب الطويلة ولكن العمر لم يمهله .

يدرك التاريخ انه ارسل هذه المقطوعة الى ولده المعز لدين الله من المنطقة التي كان يطارد فيها ابا يزيد . . . وفيها تتجل شاعريته الرقيقة :

كتابي اليك من اقصى الغروب وشوقى شديد عريض طويل
اجوب القفار وأطوي الرمال وأحمل نفسي على كل هول
اريده بذلك رضاء الاله واعتزاز دولة آل الرسول
إلى أن برر الله أجسامنا وكل الركاب وتأه الدليل
فروا غربناه ووا وحشناه وفي الله هذا قليل قليل
وقدمن ذو العرش من فضله بفتح مبين عزيز جليل
وفي كل يوم من الله لي عطاء جديد وصنع جيل
فلله حمد على ما قضى وحسبي ربى ونعم الوكيل
واخيراً :

تسلم المعز لدين الله منصب الخلافة بعد وفاة والده المنصور بالله، وباستر عمله باذاعة هذا المنشور على العامة والخاصة في جميع أنحاء الدولة ... وهذا هو بنصه الحرفى :

« الله اكبر ... الله اكبر ... لا الله الا الله ... الله اكبر ... الله اكبر ... شأنًا واعظم سلطاناً، وأوضح ايات وبرهاناً عن ان تنكر العقول توحيده، او تروم تحديده.

خالق السموات والارض ومالكها ومدبرها ... الفرد الصمد ... الواحد الاحد الذي لا شريك له ولا ند ... الخالق القدير ... الرحمن الغفور ... النافذ قضاوه، الكائن ما يشاءه، المتقن كل شيء صنعاً، الموسع كل شيء رزقاً، المحيط بكل شيء علماً.

احمده واستعينه واستغفره واستهديه وافوض اليه، واتوكل، في كل الامور عليه، وشهاد ان لا الله الا الله وحده لا شريك له، وشهاد ان محمدأ خيرته من عباده ونجيه من بريته وصفوته من المتظاهرين ورسوله الى كافة العالمين، وبعنته بالامامة الى الثقلين ليبلغ حجة الرب، ويوضح محجة الحق، فأدى رسالة الله ورحم ورأف بعباد الله، وصبر على الكبار من مكر الكفار الى ان اداول الله للحق على الباطل، والمهدى على الاضائل.

محمد ... صلى الله عليه وسلم افضل الصلاة وأذكىها واقملها وأنماها وأخلدها وأبقاها وعلى المهديين من عترته الكرام الابرين الذين اختارهم للخلافة وارتضاهم للامامة واكدا بوجهه للرسل حجتهم، وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله ايامهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين وعلى افضل الوصيين، وعلى سيدة النساء فاطمة خامسة اصحاب الكسائ صلوات الله عليهم، وعلى امير المؤمنين المهدي بالله، والقائم بامر الله سيدي الورى، وامامي المهدي اللذين اعلن الله بهما دعوة الحق وانطق بهما الاعيان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين، وأزهق بحقهما باطل المدعين، وأكاذيب المخرفين وقطع بسيوفهما دابر الظالمين صلوات الله ورحمته وبركاته

ورضوانه وتحياته عليهما .

اللهم اخصوص الامام الفاضل والوصي العادل والبر الفاضل والغيث الوابل ذا الآيات المعجزات والعزائم النافذات الباذل نفسه الكريمة في حين الازل والكربات الصابر في البأساء والضراء حتى طهر الارض من جبارة الاعداء ... عدك ووليك ونجيك وصفيك ابا الطاهر المنصور بك والمتوكل عليك والمفوض اليك العامل بما يرضيك ويقرب اليك ويزلف لديك ... الذي فجعتنا بفقدك وأوحدتنا ببعده وافردننا منه وأوحشتنا فقبلت دعاءه وأجبت نداءه وجمعت بينه وبين احبيته في مستقر جنتك وسعة رحملك .

ان القلق وشدة الحرق عليك بالغ يا ابناه ... يا سيداه ... يا اسماعيلاه ... يا ابا الطاهر ... يا بحر علوم الائمة الطاهرين الهداء المهديين ... يابقية ابناء الرسول وابنيه الوصي والطاهر البتوول .. يا امام الائمة ومفتاح باب الرحمة يا سراج المدى وشمس الورى ومحلي الطخاء يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة .

عظم والله علينا المصائب بك ، وحل البلاء وعدم العزاء لفقدك وقصرت الالسن عن ادراك احصاء شمائلك لفقدك وقصرت الالسن ايضاً عن تعداد مناقبك .

فوحق من اختصك بكرامته وحبك بجزيل عطائه وشرفك بابوة رسوله ، لولا ما اوعزت الي به وأكنته علي من القيام بحق الله والذب عن امة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة وبحار الضلاله ومهاوي الفتنة ومعاطب المحن وما تقرر عندي ورسخ في صدرني من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ولائمة المدى لضررت على وجهي سائحاً في البلاد ، قاليآ للمهاد راضياً ببلعة من الزاد ... الى ان يلحقني الموت سريعاً بك فأفوز بقربك ورحمة ربك ... لكنني فكرت ونظرت وتدبرت فلم ار لي وجهاً استوجب به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب ، فتجددت

وصرني ربي فصبرت وغلب علي اليقين فأمسكت وقلت:
انا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم ... والحمد
لله على ما ابلى والشكر على ما ادل .

« المعز لدين الله »

«المعز لدين الله» ـ الخليفة الفاطمي الرابع ـ

اسمه: المعز لدين الله... لقبه: معد... كنيته: ابو تميم... والده: المنصور بالله... امه: ام ولد... ولد سنة ٣١٩ هـ. في مدينة المهدية... تسلم الخلافة سنة ٣٤٢ هـ عندما كان له من العمر «٢٣» عاماً... ادرك ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم: المهدي، والقائم، والمنصور... تربى في قصور المهدية، وnal الثقافة والعلم في جزيرة صقلية... مات ودفن في القاهرة سنة ٣٦٥ هـ. فيكون قد عمر /٤٦/ عاماً قضى منها اربعة وعشرين عاماً في مقعد الخلافة... رحل من المغرب الى مصر سنة ٣٦١ هـ. وذلك بعد مضي اربعة سنوات على احتلالها من قبل قائده المظفر «جوهر الصقلي»... النجب اربعة اولاد هم: تميم الشاعر، وعبد الله، والعزيز، وعقيل، وابنتين هن: رشيدة، وعبدة... زوجته هي: تغريد... وذكر ان زوجته الاولى مغربية وهي ام تميم وقد ماتت في سن مبكرة.

اعتبر التاريخ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من كبار رجال التاريخ، الذين تفوقوا في مضمار العلم وال الحرب والسياسة... فقد بدت عليه امارات النجابة والذكاء منذ نعومة اظفاره، واشتهر بالذكاء وهو بعد في سن الطفولة، كما كان المثل الاعلى للخلفاء المسلمين عامة... قوي العزم يواجه الصعب دونما خوف او وجع ويقضي في عزم وثبات في وجه الثورات التي اذكى نارها الخارجون على الدولة، وتصدى لمناؤة الامراء الذين عملوا في سبيل الاستقلال عن الفاطميين، والانضواء تحت لواء الامويين، فضرب هؤلاء بأولئك، وأخذ كلما على حين غرة.

كان رحب الصدر، طيب القلب، كثير الحلم، يعطف على رعيته...

فكانوا يهرون اليه عندما يروه ليرعون ظلاماتهم... فيسمع الى كل واحد منهم.

واشتهر بالعدل والاحسان الى الناس، ومقاومة الظلم والتمسك باهداب الدين، وكان يحرص على تلبية مطالب الرعية، و حاجات الشعب، وهذا احبه شعبه وأطاعه وسلمه امره وقيادته... واصبح اسمه على كل شفة ولسان.

كان ايضاً يذهب الى الصلاة لوحده دوناً موكب، وينزل الى الاسواق بفرده دونما حراسة فيتفقد المتاجر، ويستمع الى شكاوى الرعية، ومطالبهم فيسجل حاجاتهم وظلاماتهم، كما كان يزور بيوت اصحابه، ورفاق صباحه ، والقراء حيث يقف على احوالهم، وطرق معيشتهم، وكان يضرب به المثل في حلمه مع خدمه وعيده، حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه ، ويقاطع رأيه ، ويحتاج عليه ، ومع كل هذا كان يجادلهم بالحسن ويناقشهم باللين ، ولا يأخذهم بالشدة .

اما ثقافته فكانت مضرب الامثال... ويكتفي ان يذكر اسمه ليتبادر الى الذهن تفوقه في كل علم واخذه من كل فن وبروزه في اي مجال . وما سجله التاريخ عنه :

انه تلقى ثقافته على ايدي علماء من صقلية ومنهم «المظفر الصقلبي» وثبت انه كان يتكلم ويجيد عشرة لغات دارجة في عصره ومنها : الرومية واللاتينية ، والصقلبية ، والسودانية ، حتى لغة البربر ولهجاتها .

اما في ادب اللغة العربية وتاريخها وفلسفتها فقد ضرب بسهم وافر لدرجة انه كان يلي على القاضي النعман بن حيّون اكثر فصول كتبه ومؤلفاته ... ونسب اليه بعض المؤلفات في الفقه والفلسفة ولكن لم يعثر على اي منها حتى الان .

ذكر: انه امر خدمه في احدى الايام بأن يهيئوا له الحمام... وجلس

ينتظر، ثم مشى بعد مضي بعض الوقت الى الحجرة التي فيها الحمام، فرأى الباب مغلقاً، والحمام لم تصلح... فسأل عن المفتاح، ووقف طويلاً ينتظر... ولم يتغير حاله ولا غضب، ولا قال في ذلك شيئاً، ثم دعا بكرسي فجلس عليه حتى جيء بالمفتاح واصلح الحمام.

وذكر:

انه في احد الايام الممطرة استدعي شيخ كتامة وكبار رجال الدولة الى قصره في «المنصورية» فدخلوا عليه، واذا هو جالس في احدى القاعات المفروشة باللبيود على مطراح، وحوله كساء وعليه جبة، وبين يديه مرفع ودواة، وهو يرد بخطه على الكتب الواردة اليه، ويوجه الرسائل الى العمال والولاة في الاقاليم وفيها التوصيات، وال تعاليم، والأوامر... فقال لهم:

يا اخواننا... اصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد... فقلت لأم الامراء... واحتلها الآن تسمع كلامي: اترى اخواننا يظنون انّا في مثل هذا اليوم نأكل، ونشرب، ونتقلب في المثقل والديباج والحرير، والفنك، والسمور، والمسك، والعنب، والغناء كما يقول ارباب الدنيا... فرأيت ان انفذ اليكم لتشاهدوا حالي اذا خلت دونكم، واحتجبت عنكم، واني لأفضلكم في احوالكم الا فيما لا بد منه من دنياكم، وبما خصني الله به من امامتكم، واني مشغول بكتاب ترد علي من المشرق والمغرب اجيب عليها بخطي، واني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الا بما صان اروا حكم، وعمر بلا دكم، وأذل اعداءكم، وقمع اصدادكم... فافعلوا يا شيخ دولتنا في خلوتكم مثلما افعله، ولا تظهروا التكبر والتجبر، فينتزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم، وتحتبنوا على من ورائهم من لا يصل الي، كتحبني عليكم، فيكثر الخير وينتشر العدل، واقبلوا بعدها على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا الى التكثير منهم، والرغبة فيهن، فينتقصن عيشكم، وتتعود المضرة عليكم، وتنهكوا ابدانكم، وتذهب قوتكم، ويضعف تمایزكم، فحسب

الرجل الواحد - واحدة - فنحن محتاجون الى نصرتكم بابدا لكم وعقولكم،
واعلموا انكم اذا لزتم ما امركم به رجوت الله ان يقرب علينا امر
المشرق .

وذكر:

ان المعز لدين الله كان وسيماً وانه قريب الشبه بوالده المنصور بالله،
وكان جيئ القامة، مهيباً لدرجة انه لم يكن باستطاعة احد التحديق في
وجهه وعينيه .

وقد وصفه «بنقولا» سفير امبراطور الدولة البيزنطية عندما قام بزيارته
سنة ٣٥٧ هـ. في مدينة المنصورية، ليبلغه رسالة من الامبراطور فقال:
«اخطا الروم حينما اطلقوا عليه اسم ملك «المتبررين» .. فأنا حينما
بعثني اليه «نقفور فوكاس» رأيت من عظمته في عيني ، وكثرة اصحابه ما
كدت اموت فيه .. وحينما دخلت عليه رأيت فيه نوراً غطى بصري ..
وكان على سريره كأنه ملاك هبط من السماء ..».

وذكر:

ان المعز لدين الله هو اول من فكر - اي منذ الف ومئة عام بصنع
خزان للحبر في القلام وبالفعل تعمم هذا الاختراع في ذلك العصر،
 واستعملت القلams ذات الخزان التي توفر على الكاتب عناء حمل الدواة ..
وهكذا فيكون هو مخترع قلم الحبر «Stylo» .

ومن المشهور عنه انه كان يرسل سفنه من مصر الى شواطئ لبنان في
كل فصل ربيع من العام لحمل الثلوج الطبيعية من جبال لبنان الى مصر
حيث يكون قد اعد لها امكانة خاصة في اقبية تحت الارض، بعد ان
يضيف اليها بعض المواد لحفظها حتى آخر الصيف .. وكانت تستعمل لتبريد
المياه .

سأله مرة احدهم عن حسبه ونسبة؟ فسكت... وفي ثاني يوم ادب

مأدبة كبرى دعا إليها وجوه البلاد، وشيوخ القبائل، وكبار رجال الدولة، وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم:

دعوتكم لأقصى عليكم خبر رجل يحضر بيننا الآن... وقد سألهي أمس بارتباط عن حسي ونبي... وها أنا أجيبه:

هذا هو حسي... وأشار إلى سيفه... ثم هذا هونبي... وأشار إلى كيس كان بقبضته مليء بالنقود.

وما يروى عن المعز لدين الله:

انه قدم لبعض جلسائه طبقاً من التفاح وقال:
هذا تفاح جاءنا من المشرق... من البلد الذي خرج منه المهدى
والقائم، ومن القرى التي كانت لها... وأضاف:

تبركوا به... فانا نرجو ان شاء الله ان تقطفوه غداً بآيديكم من
شجرة مباشرة معنا عندما يتم لنا الوصول اليه... وكان يقصد بذلك بلدة
سلمية - السورية.

ومن القصص التي يتجلّى فيها عدله وحكمته:

ان عامل الفاطميين في مدينة فاس المغربية اعان احد اصدقائه الاغنياء
على اغتصاب قطعة ارض كان يملکها احد الفقراء... فجاء الفقير الى
المنصورية ودخل عليه باكيأ ثم عرض قصته، فأرسل المعز لدين الله بطلب
الوالى وصديقه، وبعد ثبوت الاغتصاب، عزل الوالى، وسجن الرجل الغنى،
واعيدت الأرض الى صاحبها.

وذكر:

انه بعد أن وصل الى مصر، اصدر اوامره بالعفو عن الأخشidiين
والكافوريين الذين كانوا قد دعوا الى الثورة ضد الفاطميين، وعاونوا
القرامطة عندما هاجموا الديار المصرية، كما انه احسن اليهم بعد اعلان
توبتهم وندمهم، فأعاد اليهم اعتبارهم، وولى من يستحق منهم بعض

المناصب في الجيش، وادارة الدولة.

وجاء ايضاً:

ان زوجة الاخشيد كانت قد اودعت عند صائغ يهودي «بغلطاق» اي عقد من الجوهر ثم لما ضاقت بها الدنيا طلبته منه، فأنكره... فقالت له: خذ كم البغلطاق، واعطيني ما فضل، فأبي... فلم تزل به حتى قالت له: هات الكم وخذ كل ما يبقى... فلم يفعل... وكان في البغلطاق بضم عشرة درة. فأتت المرأة الى قصر المعز لدین الله، وأخبرته بامرها... فاحضر اليهودي، وقرره فلم يعترض، فبعث الى داره من ضرب حيطانها، فظهرت فيها جرة البغلطاق. فلما رأه المعز لدین الله تحير من حسه، ووجد ان اليهودي اخذ منه درتين، فاعترض انه باعهما بآلف وستمائة دينار... فأخذ المعاذ لدین الله وسلمه للمرأة وحكم على اليهودي بدفع المبلغ الذي اخذه ثمن الدرتين... وهنا طلبت امرأة الاخشيد من المعاذ لدین الله ان يأخذ العقد هدية وقالت:

يا مولاي: هذا كان يصلح لي وانا صاحبة مصر... اما اليوم فلا يصلح الا لزوجتك... ولكن المعاذ رفض ذلك بإباء.

وذكر:

ان الناس كانوا يهرونون اليه اذا رأوه، ويرفعون اليه ظلاماتهم، فيسمع لكل واحد منهم على انفراد، وينهر من يقف في وجههم، وعلى الرغم من كثرة مشاغله... كان واسع الصدر مع رعيته، وابنائه، وموظفيه... يحلم عليهم ليسمو بأخلاقهم الى اعلى المراتب، ويثير بهم اذا خالفوا الدين وجاءوا عن الطريق المستقيم.

وجاء في مصدر تاريخي:

ان المعاذ لدین الله ركب يوماً من ايام الربيع الى مكان وصف له بان فيه زهراً جيلاً ونبتاً حسناً... وفي الطريق من المنصورية اكتنفه الناس

يسألونه عن حوائجهم، ويرفعون اليه امورهم... فما زال يقبل بوجهه على الواحد والجماعة منهم، ويكلمهم، ويحبسهم حتى انتهى الى المكان المقصود، ولم يضجر من مرافقة الناس له... وكان حوله نصر لذلك... وكان المشاية بين يديه يدفعون الناس، فأيامهم بتخلية من يدفعون، وان كان كثيراً منهم ليطيل مسائرته، ويكرر حاجته، فأيامه من حوله بالانصراف، ويغمزه ارادة التخفيف عليه، وان ينظر الى ما خرج اليه فينهاهم عن ذلك ويأمر ان يدعوا من كلمه الى ان يقضي حاجته، وينصرف عن رأي نفسه، وهذا هو دأبه في اكثر خروجه.

ويقول النعيم بن حيون وكان رفيقه في اكثـر رحلاته:
لا اعلم ولا سمعت احداً وصف بمثل ذلك الصبر والحلم، وسعة الصدر.

وذكر النعيم:

ان المعز لدين الله حضر عيد الفطر، وتقدمه عواصف واضطراب في الاجواء فشكل الكثير من الوحل والطين، فظن الناس انه سيصلي صلاة العيد في المسجد... ولكنـه قال:

لا بد من قضاء فرض الله تعالى في البراح على ما امر به جل ذكره...
وأضاف:

وهذا من اقل ما ينبغي ان يفعل في ذات الله، واكثر منه... والله لو حبـونا في الطين حبـوا على الركب... وكان ذلك ما يرضي الله عنا، ويقبـله منا... لفعلناه... ان رسول الله يقول:

اذا سمعتم داعياً الى اهل بيتي، فسارعوا اليه، ولو حبـوا على الثلوج والنار، فاذا كان الله تعالى قد اوجب لنا هذا على عباده، ونحن خلق من خلقـه، قد ابتدأنا بفضلـه، وأنعم علينا باحسانـه، فكيف بما يجب علينا للخالق جل ذكره ان نرخص فيه، او نتعاظم مشقة تدخل علينا من اجلـه... معاذ الله ان نستكبر عن عبادته، او نتأخر في طاعته.

وخرج ... وخرج الناس يخوضون الماء والطين، فما انصرفوا الا وقد تضيّعوا فيه وامتلأت ثيابهم منه ... وكان مشهداً يرضي الله من وليه، ومن ذهب فيه مذهبة.

اجل ... كانت تبدو على المعز لدين الله امارات الذكاء والنجابة منذ نعومة اظفاره ، حتى ان الخليفة الفاطمي الاول عبيد الله المهدي اختبر ذكاءه واعجب به ، وتنبأ بانه سيكون له شأن كبير ... ويقول المعز ل الدين الله :

اني لأذكر يوماً حلت فيه الى المهدى ، وانا يومئذ فطيم اعقل الكلام ، وأحفظ ما يكون ... فتناولني ، وقبلني وادخلني تحت ثوبه ، وكشف عن بطني ، وألصقها بيطنـه ، ثم اخرجنـي وبـارك عـلي ، وسـألـني عن حـالـي ، وأجلسـني في حـجرـه ، ودـعاـ لي بـأكلـ ... فـأـتـونـي بـطبقـ من فـضـةـ مـذـهـبـ فيـهـ مـوزـ ، وـتفـاحـ ، وـعـنـبـ ... فـوـضـعـهـمـ بـيـنـ يـدـيـ ، فـلـمـ اـتـنـاـلـ مـنـهـ شـيـئـاـ ... فـأـخـذـهـ بـيـدـهـ وـنـاـلـنيـ ، فـأـخـذـتـهـ بـيـدـيـ ... فـقـالـ :

امض به ، فكل منه ما فيه ، واعط الطبق «فلانة» وذكر بعض البنات ، وهي يومئذ في مثل سني ... فقلت له :
لابل آخذ انا الطبق ، واعطيها ما فيه ... فضحك المهدى ، وتعجب من انتباهي لذلك ، ودعا لي بالخير ... وقال :
سيكون له شأن .

ويظهر ان ذكاء المعز لدين الله قد اشتهر لدى الخاص والعام ، وانه عرف في جميع مراحل حياته بحل المعضلات ، والتغلب على كل ما يشكل على المسرح العام . وما يثبت ذلك :

ان الخليفة الثالث المنصور بالله خرج ذات يوم ومعه المعز لدين الله وكتير من حاشيته وخرج النعسان معهم كذلك ، وفي الطريق عرضت على المنصور بالله شكاية من رجلين من اصحاب الضياع ، فأشكل الامر على

ال الخليفة ، وعلى النعماٰن نفسه ، وعلما من كان معهم ... حتى لقد قال النعماٰن لزميل له :

لقد اشتبه على امرها ، وحسبك ما ترى من توقف امير المؤمنين من الفصل بينهما ، ثم جعل يدلي لزميله ، ويبيّن كفاءة المعز لدين الله ... فيقول :

لو ان المتخاصمين وقفوا بين يدي الامير اعني المعز لدين الله لفصل بينهما ... والله ما ضاق علي امر قد رأيته ، ولا اشتبه عندي وجه الحق فيه ، فرفعته اليه ، الا اجابني عنه قبل استيفائه اخره او عندما يستوفيه بجواب ما خطر بيالي بعد الروية له ، والتفكير فيه الايام الكثيرة ، والليالي الطويلة ، بما لا اشك فيه انه الحق الذي لا وجه له غيره .

ولما ادرك الخليفة المنصور بالله عجزه عن الحكم بين المتخاصمين ، احال الامر على الامير المعز لدين الله ففصل بينهما فصلاً سريعاً ، مدللاً على ذكائه ، وسرعة خاطره .

وذكر :

ان جده القائم بامر الله كان يأنس اليه ، ويتخذه واسطة بينه وبين الرعية ، وكان اذا غاب عنه يرسل بطلبه ، ويكلفه بمهامات صعبة ... وكثيراً ما كان يقول :

لولا صغر سنـه ، لجعلت الامر منذ الآن اليه .

انـنا وـنـحـنـ نـهـيـ هـذـاـ الفـصـلـ عنـ الـخـلـيـفـةـ الـقـاطـمـيـ الـرـابـعـ الـمعـزـ لـدـيـنـ اللـهـ نـذـكـرـ :

بانـ هـذـاـ الخـلـيـفـةـ مـيـزـاتـ خـاصـةـ يـجـهـلـهـاـ الـكـثـيـرـونـ بـالـنـسـبـةـ لـقـوـاعـدـ الـإـمـامـةـ المـعـرـفـ بـهـاـ لـدـىـ الـإـسـمـاعـيلـيـةـ .

فيـ حـسـبـ تـسـلـسـلـ هـذـاـ الـإـمـامـةـ يـعـتـبرـ الـمعـزـ لـدـيـنـ اللـهـ الـإـمـامـ الـرـابـعـ عـشـرـ ، وـمـعـنـىـ ذـلـكـ أـنـ «ـسـابـعـ الـاسـبـوعـيـنـ»ـ فـقـوـتـهـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـوـاقـعـ يـجـبـ انـ

تكون معادلة لقوة الأئمة الذين سبقوه مجتمعين .. ولهذا يكون «اساس» الدعوة، ورتبة «الأساسية» بحسب الترتيب الاسماعيلي أعلى درجة من الامامة، لأن الأساس عادة يكون مرافقاً للنبي الناطق بالشريعة وبالتنزيل ، وهذه الرتبة خص بها «علي بن ابي طالب» ومن هنا نظر اليه بأنه أعلى درجة من الأئمة الذين جاءوا بعده، والمعز لدين الله حاز على نفس المرتبة على اعتبار انه «سابع الاسبوعين» .

الامبراطورية الفاطمية:

امتدت رقعة الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله فأصبحت من شاطئي المحيط الاطلسي حتى البحر الأحمر، ويدخل في ذلك البحر الأبيض المتوسط ، وبلغة اصح كانت اعلام تلك الدولة ترفرف على مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، ومصر ، وبلاد النوبة ، وفلسطين ، وبلاد الشام ، والمحجaz ، واليمن ، فضلاً عن صقلية وكريت ... وبهذا تكون قد فاقت باتساع رقعتها الدولة العباسية ، وسبقتها في مضمار القوة ، وانتزعت منها زمام السيادة والزعامة في العالمين العربي والاسلامي .

وقد يكون من الانصاف ... القول :

بان الفضل في هذا التوسع والامتداد يعود الى جهود وعبرية قائد هذه الدولة وعقلها المفكر، المعز لدين الله، والى تدابيره، وحسن إدارته، وقاداته، وسياساته، وثقافته الواسعة ودرايته باختيار الاعوان، والقواعد والولاة الذين ضموا جهودهم الى جهوده، ووضعوا امكانياتهم المشتركة، وخبراتهم تحت تصرفه للنهوض باعباء الحكم، وتحطيم العقبات، والسير في طريق النجاح .

اجل ... كان المعز لدين الله طاقة كبرى من العبرية ، وشعلة حية من التوقد والذكاء ، وجموعة كبيرة من الشجاعة والاقدام ، قبض بيده حديد على زمام الامور في دولته الفتية ، وهو في ريعان الشباب ، فلم يترك شاردة

او واردة من امور الدولة، الا وأشبعها درساً وبحثاً، ولا داء مستعصٍ الا وأوجد له العلاج الناجع .. وكان قاسياً مع الاعداء والمتآمرين، وطيباً مع الانصار والمؤيدين ... يلبس لكل حالة لبوسها ويعرف من اين تؤكل الكتف .

اما عصره فكان حافلاً بظواهر العظمة والقوة، فقد استطاع بما اوتيه من ذكاء حاد فذ، ومهارة حربية ممتازة ان يوحد بلاد المغرب بجميع اجزائها تحت رايته ، وينتصر على التائرين ، وعلى الامويين ، والروم في اكثر من موقعة ، حتى ان الامويين في الاندلس اصبحوا يخسرون على بلادهم من ان تقع في قبضته ، كما ان الروم سارعوا الى محالفته خوفاً من قوته ونفوذه ، وقد حاول ان يتخد من صقلية وكريت جسراً للعبور الى ايطاليا شمالاً ، والى مصر والشام شرقاً ، ومنها الى بغداد للقضاء على الدولة العباسية ، وبعدها الى القسطنطينية حيث اعداء العرب والمسلمين .

وقد كان لنظم الحكم الدقيقة التي سار عليها الاثر البعيد في ازدهار بلاده ورفع مستواها ولاغر فان حكمه ظلّ يمثل الحكم المستنير الذي يقوم على الفكر ، والدرس .

وما يجب ان نشير اليه ان وصول المعز لدين الله الى سدة الخلافة والامامة الفاطمية كان بحسب تسلسل هذه الامامة التي تخضع الى نظام خاص ، وهكذا بالنسبة لولاية العهد ، وكل هذا يشكل فصلاً رائعاً جديراً بالامان ، فانتقال الامامة من عبيد الله المهدي «الامام المستودع» الى القائم بامر الله «الامام المستقر» معناه رد الوديعة الى صاحبها الشرعي - وقد وقع كل هذا بالفعل - فان المهدي ادى الامانة الى القائم بامر الله وسلمه الرتبة التي كان قيماً عليها ، ولم يجعل لسائر اولاده نصباً فيها .

اذن ... فامامة الاستقرار في المغرب تبدأ بالامام القائم بامر الله ، والقائم بامر الله سار على نهج ابائه الاولين ، فقد كان عليه ان ينص على ولده الاصغر المنصور بالله قبل وفاته ، وهكذا فعل المنصور بالله بالنسبة للمعز

لدين الله ، والمعنى ان النص امر مسلم به عند الفاطميين ، ويتجلى كل هذا بما قاله المنصور بالله لولي عهده المعز لدين الله ، حين عهد اليه بالامامة : « والله ما انا آثرتك بما اثرتك ، بل الله اثرك واختصك ، واعطاك ، واجتباك ، ... والله لو ملكت من الدنيا درهماً فما فوقه من غير هذا الوجه لما استجزرت ان اخض به احداً من ولدي دون الآخر فاما ما خولني الله من الكراهة ، واصطفاني به من الامامة ، فانما هو متاع عندي ، وعارية في يدي الى انقضاء المدة ، وتمام العدة ... ثم هو لك بحكم الله وامرها واعطائه ، لا عن امري ، وحكمي ، واختباري ، - واختصاصي اياك به » .

وقال له ايضاً :

« انظر ما كنت رأيتني افعله فافعل مثله ، وما كنت رأيتني تركته فاتركه ، واصنع بعد وفاتي ما كنت رأيتني اصنع في حياتي ... فنعم السلف انا لك » .

اجل ... اعتلى المعز لدين الله عرش الخلافة الفاطمية في المغرب في شهر شوال سنة ٣٤١ هـ . فأخفى خبر موت أبيه مدة تقارب الشهر ، وذلك كي لا تتعرض الحالة الطبيعية الى انتكاسات ، وقد مر معنا ان القائم بامر الله اخفى موت عبد الله المهدي سنة كاملة وان المنصور بالله اخفى موت القائم بامر الله ثلاث سنوات ، اما المعز لدين الله فمدته كانت اقرب ، لأن امور الدولة كانت اكثر استقراراً وأمناً ، وأدعي الى الطمأنينة .

ومهما يكن من امر... فان ادارة الملك ، وسياسة الرعية ، وتسخير شؤون الدولة لم يكن بالأمر الجديد على المعز لدين الله ، فهو قد مارسها ، وتدرّب على تصريف شؤونها ، وخبر كل ما يحيط بجوانبها ... فرجال الدولة ، والقواد ، والشيوخ ، والقضاة ، والولاة لم يشعروا بان المعز لدين الله - الخليفة الجديد شخص غريب عليهم ... فقد سبق لهم ان عرفوه ولیاً للعهد بعهدي القائم بامر الله ، والمنصور بالله يتصدى لشؤونهم ، ويحل معضلاتهم ،

ويدرس معهم الامور العائدة للدولة . . . اما الرعية فقد قابلوا الحدث بكل اطمئنان وترحاب لانهم عرفوه وجربوه، ولم ينسوا اخلاصه، وسهره الدائم على مصالحهم وراحتهم . . . وهكذا الجند فقد أنسوا اليه واستعنوا به، ووثقوا بجدهم عليهم، ويقابل كل هذا القبائل وخاصة «كتامة وصنهاجة» فقد اعتبروا انهم أصبحوا في كنف خليفة يقدر مواقفهم، وجهادهم، وخلاصهم لدولته .

وليس هناك ابلغ من قوله لجماعة منهم عندما جاءوا لمبايعته:

«اني انزلت كباركم مني منازل الاخوة، وصغاركم منازل الأولاد، وانتم في خير زمان . . . فاعرفوا قدر النعم عليكم . . . وقيسوا انفسكم اليوم من مضى منكم بالامس، وقيسوا انفسكم اليوم من مضى منكم بالامس . . . من قوم انت بعض حسناهم، وانتم اليوم معنا في خير زمان مع خير امام بوي بكم، عطوف، محسن اليكم، يقليلكم العترة، ويغفر لكم الذلة، ويحسن الى محسنكم، ويغنم عن مسيئكم . . . وقال لوفد آخر من كبار المقربين:

«اريد منكم ثلاثة، واكره لكم ثلاثة . . . اريد منكم الصدق وأكره لكم الكذب، واريد منكم العفاف، وأكره لكم الخيانة، واريد منكم التواضع، واكره لكم الكبر . . . وهذا اخواف ما اتحوفه عليكم» .

امام الأحداث

افتتح المعز لدين الله عهده بساند مهمته القيادة العامة للجيوش الفاطمية الى «جوهر الصقلي» وكان يضطلع بمهام رئاسة الكتابة والانشاء، وقد ذكرت عنه بعض المصادر بان المعز لدين الله اشتراه من سوق المزاد، وأدخله في خدمته.

ونحن في كتابنا «جوهر الصقلي» ذكرنا:

بان الذي اشتري جوهر هو القائم بامر الله . . . واعطينا الدليل على ذلك بان ولادة جوهر وقعت ما بين سنة ٢٩٨ الى سنة ٣٠٠ هـ، بينما المعز

لدين الله ولد سنة ٣١٩ هـ . وهكذا يكون جوهر اكبر من المعز لدين الله بعشرين عاماً ، وهذا يعزز اليقين بان القصة مختلفة من اساسها ، ولا تتفق مع الواقع ... لان المعز لدين الله عندما يكون في سن العشرين ، فيكون جوهر قد تجاوز الأربعين ، ورجل الأربعين لا يعرض عادة في اسواق المزاد .

اجل ... اختار المعز لدين الله جوهراً لقيادة جيشه ، وقد اقترن اسمه كما سيظهر باسم مصر ، فقد عرف بأنه فاتحها ، وموطد اركانها ، ومقيم عالم وافكار الفاطميين في ربوعها ، ومن الجدير بالذكر ان كل هذا قد تم له بعد ان اخضع مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، وصقلية لدولة المعز لدين الله الفاطمية ، وبعد مصر فلسطين ، وببلاد الشام والنوبة والحجاز . واذا كان اسم المعز لدين الله قد اقترن باسم القاهرة فمن حق جوهر ان يقترن اسمه بجامعة الازهر ... فهو الذي وضع حجر اساسها ، وأقام دعائهما .

نظر اليه كقائد من القواد العباقة امثال: خالد بن الوليد ، وطارق بن زياد ، وصلاح الدين وغيرهم من مشاهير القواد المسلمين ... وجاء من يقول :

بانه كان اوسع فهماً بادارة ، وسياسة الجنود ، وفنون القتال ولد بجزيرة صقلية واتفقت كافة المصادر على القول:

بانه رومي الاصل ، ولكنه مسلم بدليل ان والده كان يسمى « عبد الله » ومما يثبت صحة اسلامه تمسكه باهداب الدين الاسلامي ، وحرصه على اعلاء كلامته ، واحياء امجاده .

اخذ بنصيب وافر من الثقافة العربية واللاتينية ، وعرف اللغات السائدة في عصره ودرس العربية ، والرومانية ، وتاريخ الحروب ، واساليب القيادة السياسية والخربية ... وكل هذا اكسبه مهارة في الحروب التي خاضها ،

وخبرة في ادارة البلدان التي افتحتها ، وفي سياسة الشعوب التي اخضعتها لحكمه .

ليس هناك اية مصادر تاريخية تشير بالضبط الى السنة التي ولد فيها ، ولكن هناك ما يؤكد بأنه عاش اكثر من ثمانين عاماً ، ولهذا رجح بعض المؤرخين ان تكون ولادته وقعت ما بين سنة ٢٩٨ الى سنة ٣٠٠ هـ كما ذكرنا افأ ، أمّا وفاته ففي سنة ٣٨١ هـ .

كان جوهر مولى من المولى ... وقلما اهتدى المؤرخون الى الوقوف على نسب هؤلاء المولى ، ويبدو انهم اغفلوا تدوين انسابهم ، وانتسابهم قصداً ، بالنظر لعدم اهميتهم ، و شأنهم .

شبّ وترعرع في حجر الدولة الفاطمية في المغرب - اي بين شباب وامراء الاسرة الحاكمة ، وقد ذكرنا ان الخليفة الثاني الفاطمي القائم بامر الله اشتراه من سوق المزاد ، بعد ان توسم فيه الذكاء والنجابة ، فجعله بين ابنائه ، واحاطه برعايته وعطفه ، كما انه وفر له اسباب الدرس ، والتعليم ، ولما كبر سلمه المنصور بالله بعض المسؤوليات في القصر ، وظلّ يتدرّب على شؤون الادارة ، وأساليب الحكم والقيادة حتى مجيء المعز لدين الله الى سدة الخلافة ، فعيّنه وزيراً ، ثم رقاه سنة ٣٤٧ هـ الى منصب القيادة العامة للجيش ، وأمر ان يضمّ اليه القائد « جعفر بن فلاح » امير كتامة ، و« زيري بن مناد » امير صنهاجة ، و « جعفر بن علي » امير المسيلة ، وذلك في حملته الاولى التي قادها لاخضاع المغاربة الاقصى ، والاوسيط .

اننا عندما نتحدث هنا عن ذلك العصر ... نرى لزاماً علينا اعطاء صورة موجزة واضحة عن الأوضاع العامة التي كانت سائدة على مسرح المغرب قبل مجيء المعز لدين الله . فنقول :

بان تلك الثورة الكبرى التي اذكى نارها ابو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي في عهد الخليفتين - القائم بأمر الله ، والمنصور بالله ... كادت

تعصف بالدولة الفاطمية، وتترك المغرب بكافة اجزائه في حالة يرثى لها من الفوضى. أمّا بالنسبة للدولة الفاطمية، فقد استنفذت الثورة المذكورة كافة الأموال والموارد، وجعلتها في حالة من الانهيار الاقتصادي حتى ان المنصور بالله عجز مره عن دفع بعض المرتبات لعمال الدولة وللجنديين... كما ان تلك الثورة وقفت بوجه الخليفين الثاني، والثالث، وأوقفت لديها كل نشاط، او تفكير بارسال اية حملة للمشرق، فظلّ همها محصوراً ضمن نطاق تأديب العصابة، والتأثيرين الذين شقوا عصا الطاعة، وقاموا بداعف من الامويين يعملون للاجهاز على الدولة الفاطمية.

ومن المفيد ان نشير:

ان عبيد الله المهدي استطاع ان ي Mizq دولة الادارسة في فاس بواسطة حليفة «موسى بن أبي العافية» وقادته المشهور «مصالحة بن حبوس» ... ولكن ازالة هذه الدولة من فاس جعل الدولة الفاطمية امام اخطار عديدة اهمها :

تكتل الادارسة، وانصارهم في بلاد الريف، ووقوفهم موقفاً معادياً للفاطميين، ثم ارتقاءهم اخيراً باحضان الامويين في الاندلس. فأبو موسى ابي العافية وابناءه انحازوا الى الامويين فيما بعد، وأعلنوا قيام دولتهم المستقلة عن الفاطميين في المغرب الاقصى... وبالفعل استقام موسى الامر فيما بعد في المغربين الاقصى والأوسط بعد زوال الادارسة... وقد جرى كل هذا بعدما اخذت مطامع الامويين تتوجه الى بسط النفوذ... يتجلی ذلك باستيلائهم على مدينة سبتة سنة ٣١٩ هـ. واعلان الخطبة لهم في كافة البلدان المغربية التي استولى عليها ابن العافية، وقد ساعدتهم على ذلك وفاة القائد الفاطمي الكبير «مصالحة بن حبوس»، والانتصار الذي حققه على الحسن بن محمد الادريسي الملقب «بالحجّام» وهو آخر امراء الادارسة في فاس سنة ٣١٣ هـ. وبعد هذا صفا له الجبو في اكثر اجزاء المغرب الاقصى.

اما الفاطميون فكانت غايتهم الاحتفاظ بهبتهم ولو شكلياً في تلك البلاد النائية على الاقل ، لذلك ارسل عبيد الله المهدي جيشاً بقيادة « حميد ابن يصال » قائد منطقة تاهرت ، وابن اخي القائد المشهور « مصالة بن حبوس » فاستطاع بعد سلسلة من المعارك ان يوقع المهزعة بابن العافية ، ويضطره الى الفرار من فاس ، وقد ساعد الادارسة الفاطميين في هذه المعارك ، واشترکوا في القتال الى جانبهم ، لا حباً بالفاطميين ، ولكن تشفيأً وانتقاماً من ابن العافية الذي عاث فساداً في ديارهم ، وكان العامل الأكبر في تهدم دولتهم .

بعد هذه الاحداث ، عين حيد بن يصال « حامد بن حدان » والياً على فاس ، وعاد بعد ذلك الى قاعده تاهرت ، ولما لم تمض سوى فترة قصيرة حتى قام احد اعداء الفاطميين الطامعين المسماً « احمد بن ابي الجزامي » فاستولى على فاس ، وقتل حامد ، وارسل الى ابن العافية الذي ارسله بدوره الى قرطبة ، وهكذا عاد نفوذ الامويين الى المنطقة من جديد .

وعندما تسلم شوؤن الخلافة الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله ، ارسل قائده « ميسور الفتى » سنة ٣٢٢ هـ . فاستولى على فاس وقبض على الجزامي ، وساقه اسيراً الى المهدية ، وقد تم هذا بعد حصار لفاس دام سبعة اشهر ، اشترك فيه الادارسة الى جانب الفاطميين أيضاً ، وقبل ان يغادر ميسور فاس عين عليها « الحسن بن ابن القاسم اللواتي » الذي اعاد الخطبة للقائم بامر الله ، وضرب السكة باسمه ، وقد استمر ذلك مدة سبعة اعوام ، واخيراً عاد الجزامي سنة ٣٣٥ هـ . بعد ان اطلق سراحه من المهدية ، فتمكن من خلع اللواتي واعادة النفوذ الاموي .

ومهما يكن من امر... فان خطر بيت ابي العافية ظلّ جائماً على صدور الفاطميين مدة طويلة ، ولم يزل هذا الخطر قائماً حتى عهد المعز لدين الله ... ومن الجدير بالذكر انه لم يتمكن من القضاء على دولتهم حتى سنة ٣٦٣

هـ . وان جوهر برغم من انتصاراته العظيمة في حملته الكبرى سنة ٣٤٧ هـ ، فان بيت ابي العافية ظلّ يتحرك .

ونعود الى الادارسة لنقول :

بان موسى بن ابي العافية ساهم في باديء الامر بالاتفاق مع الفاطميين على القضاء على دولتهم في فاس، وقد كان اتحاد موسى مع مصالة بن حبوس سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٩ هـ . آخر سهم وجه الى صدر اميرهم يحيى الرابع بن ادريس الذي فرّ الى المهدية ، ومات فيها سنة ٣٣٢ هـ .

وبعد يحيى ظلّ الادارسة يتطلعون الى ملكهم ، ويحاولون استعادة بعض اجزائها على الأقل ، فثار الحسن بن محمد الحجام كما ذكرنا على الوالي الفاطمي سنة ٣١٠ الى سنة ٣١٢ هـ . وطرده ، ثم استبد بامور فاس ، وهزم جيش ابن العافية في بادي الامر ، ولكن في النهاية تغلب عليه وطرده من فاس بعد ان استنجد بالفاطميين ... وبعد هذه الاحداث اضطرّ الادارسة الى الاعتصام في اقليم الريف . اما موسى بن العافية فبعد ان حقق كل ما اراده ، تنكر للفاطميين ، وحارب نفوذهم ، ووجودهم في المغرب الاقصى بواسطة الامويين في الاندلس .

امام هذه الاحداث ، والمناورات ادرك الفاطميون والادارسة معاً ان ابن العافية هو سبب المأساة التي تعرض ويتعرض لها المغرب الاقصى .

اجل ... وضعوا امامهم استبداده بالغرب الاقصى دونهم ، وتحالفه مع اعدائهم الامويين ووضع الادارسة امام اعينهم انتزاعه منهم اقليم فاس بشتى وسائل الدسائس ، وهذا فاتهم انضموا الى القائد الفاطمي ميسور الفتى ، واستردوا كل ما كانوا قد فقدوا .

وفي خاتمة المطاف انتقلت السلطة في بلاد المغرب الاقصى ، بعد فرار ابن العافية الى الصحراء الى القاسم الادريسي واخيه ، وهما من امراء الادارسة ، فعملا على تعزيز نفوذ الفاطميين في المناطق التي استولوا عليها ،

وظلَّ ذلك حتى سنة ٣٣٧ هـ.

وبعد القاسم تولى ابنه احمد المعروف «بأبي العيش» فانحرف عن مبدأ الفاطميين، وانحاز الى الامويين، وفي عهده استولى الامويون على طنجه، دون اذن منه، فحاول التصدي لهم، ولكنه لم يتمكن، واخيراً اذعن، وأطاع، وظل حتى مات سنة ٣٤٨ هـ. وممّا هو جدير بالذكر ان هذا الادرسي اشترك مع الناصر الاموي في حربه مع الفرنجة.

واخيراً :

جاء المعز لدين الله، فدرس امور المغرب الاقصى دراسة وافية، على ضوء الاحداث، فرأى بثاقب بصره بان الامويين استطاعوا ان يخضعوا العديد من امراء المغرب الى نفوذهم بالقوة تارة، وبالخداعة اخرى، متهزين فرصة انشغال الخليفة الفاطمي بأمور جانبية، حتى انهم ملكوا اكثر بلدان المغرب، وبابيعتهم اكبر القبائل كزناتة، والبربر، وخطب لهم على المنابر من تاهرت حتى طنجة.

وهنا وضع المعز لدين الله خطته الحكيمة، وعهد الى جوهر الصقلي قيادة الحملة العسكرية الكبرى، وألحق بقيادته عدداً من القواد والامراء القوية ومنهم: جعفر بن فلاح، وزييري بن مناد، وجعفر بن علي الاندلسي ... وكانت اوامر الخليفة تقضي باخضاع الثائرين، والمنشقين، والفتک في كل من حاول او يحاول الانضمام الى الدولة الاموية .

رأيات جوهر:

انطلق جوهر من القيروان على راس جيشه الكثيف .. وكانت وجهته تاهرت، وغايتها القبض على حاكمها «يعلى بن محمد» الذي انضمَّ الى الامويين، وبالرغم من ان تعينه قد ثُمِّ من قبل الفاطميين، وعند وصول جوهر تظاهر يعلى بأخلاصه، وخضع له دونما قتال ... ولكن جوهر لم يثق به، بل قبض عليه وعلى ابنائه وأرسلهم الى سجون المنصورية . وهناك

مصادر تقول:

بانه قاوم بشدة، ولكن جوهر تمكّن من اسره، ثم حاكمه، واعدمه ...
وقد اعتبر هذا فاتحة الانتصارات الكبرى.

ومن تاهرت سار جوهر الى فاس فحاصرها، وكان حاكماها «احمد بن ابي بكر بن سهل الجذامي» فاستطاع صد جيوش جوهر، وايقافها على ابواب المدينة، مما جعله يتركها، ويعود الى سجلماسة، وهناك واجه «محمد ابن الفتح» المعروف «بابن واسول» والملقب «بالشاكر لله». وفي المعركة الاولى تمكّن جوهر من احراز الانتصار، والقبض على ابن واسول، وهو يحاول التسلل الى المدينة لأخذ بعض امواله، فساقه الى المنصورية مع بعض امراء فاس والعصابة الآخرين.

بعد هذا عاد جوهر الى فاس ففتحها، ثم قصد ادارسة الريف، وكانت رئاستهم في يد «الحسن بن قاسم» «قانون»، وهذا عندما رأى جيوش جوهر قادمة، وجد السلامة بالهرب صوب قربة ... وهكذا تم لجوهر احراز الانتصارات بسرعة، ولم يعد الى المنصورية الا بعد ان ركّز اعلام الدولة الفاطمية على مدن المغرب الاقصى حتى سواحل المحيط الاطلسي، وعند وصوله الى المنصورية كانت الاف الناس باستقباله، وكان معه في اقفال من خشب امير فاس وخمسة عشر من اشياخها، وبعض امراء الادارسة، وغيرهم من العصابة، وكانوا على رؤوس الجمال، وعلى رؤوسهم قلنس من ليبد مستطيلة، وفي وسطها قرون ... فطيف بهم في بلاد المغرب، واسواق المهدية، والقيروان، ثم اودعوا السجن.

اجل ... عاد جوهر بعد عام الى المنصورية، وهو يجر اذيال النصر ...
ولكن لا بد من التساؤل ونحن في صدر التحدث عن تلك الانتصارات الرايعة ... هل استطاع اطفاء اللهيب المتتصاعد في المغرب؟ وهل انتهى امر الادارسة؟ وهل امتنع الامويون عن القيام بالمؤامرات واشعال الثورات ضد الدولة الفاطمية؟

الجواب : يتجلّى عند ذكر الثورة الجديدة التي قام بها الحسن بن القاسم «الادريسي» الذي فر الى قرطبة ثم عاد منها ليعلن دولته ، فأرسل اليه المعز لدين الله قائده « بلکین بن زيري بن مناد الصنهاجي » فهزمه ، واعاد الخطبة الى الفاطميين .

من الجدير بالذكر ان الادارسة بعد هذه المعركة لم يعد لهم اية مكانة سياسية في المغرب وقد حلّ محلهم بنو حمود من سنة ٤٠٧ الى سنة ٤٤٩ هـ . امّا الزناتيون فقد انتهزوا فرصة ذهاب جوهر الى مصر ، فشاروا على الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩ هـ . بقيادة ابو خزر ، فخرج المعز لدين الله بنفسه ، وعندما وصل الى باغایة فرّ ابو الخزر من وجهه ، فأرسل اليه قائده زيري بن مناد ، فاستسلم اليه ، وجاء الى المعز لدين الله الذي اكرمه ، واجرى عليه الارزاق .

بعد هذا الحدث ، اتحد الزناتيون مع صاحب المسيلة ، واعمال الزاب ، وحاربوا زيري بن مناد ثم قتلوه وايدهم في ذلك اهالي باغایة وتأهرت وتلمسان ، وكل هذا جعل المعز لدين الله يسرع باعداد حملة كبيرة جعل على راسها « بلکین » بن زيري ، فجاء اليهم ، وانتقم منهم شر انتقام . ان هذه الاحداث والتحركات حدثت في المغرب ، والمعز لدين الله لا يزال فيها ... ولكن على العموم كانت كفة الفاطميين هي الراجحة ، ودولتهم هي المسيطرة .

بين الفاطميين والأمويين :

العداء بين الفاطميين والأمويين قديم ، وقد تم جداً ، لهذا ليس غريباً ان يعود الى الساحة المغربية ، ويأخذ ابعاده بين المنصورية وقرطبة .

ومن الجلي الواضح ان خوف الامويين تضاعف على ملوكهم ، ودولتهم من الفاطميين وخاصة بعد الخليفة الرابع المعز لدين الله ، وخاصة بعد الانتصارات التي حققها ، وعندما احبطت جيوشه المؤامرات ، وقضت على

رؤس المعارضة، وعندما أصبحت رقعة دولته تشمل كافة أجزاء المغرب .

بعض المصادر ذكرت :

ان الامويين ارسلوا في فترة من الفترات جيوشهم الى عمق اراضي المغرب الاقصى وانهم تغلبوا على الجيوش الفاطمية في معارك عديدة . ولا ادري من اين جاءوا بهذه المعلومات ؟ فالامويون لم يستخدموها في عدائهم للفاطميين الا سلاح الدين ، وبذل الاموال ، والاغراء ، والرغيب ، حتى وصل لهم الأمر الى استخدام الادارسة في سبيل غاياتهم ، وماربهم بالرغم من أن الادارسة شيعة ، ومن اقرباء الفاطميين .

وحتى الآن لم تعرف الاسباب التي منعت المعز لدين الله من غزو الاندلس ، في حين كان بامكانه احتلالها ، وربما كانت تطلعاته ترمي الى ابعد من الاندلس ... الى مصر ... الى المشرق ... وهذا ما خطط له الفاطميون وعملوا به منذ اول يوم حطوا رحالهم في اراضي المغرب .

ومهما يكن من امر ... فان عداء الامويين للفاطميين لم ينقطع منذ قيام دولة هؤلاء ... ففي عهد عبيد الله المهدي ثاروا ، وشجعوا الحركات في كل مكان من المغرب ضد عبيد الله ، كما شجعوا ثورة الخوارج التي قادها ابو يزيد وأمدوها بالمال والسلاح بعهد القائم باامر الله ، والمنصور بالله ... حتى اننا نرى ابا يزيد يرسل سنة ٣٣٣ هـ . كتاباً الى الناصر الاموي مع وفدي حل اليه بشائر تغلبه على القبروان ورقاته وماجاورها ، وفي الوقت ذاته يظهر له خصوصه ، واعترافه بولايته .

وشجع الناصر الاموي موسى بن ابي العافية على انتزاع ارجاء المغرب الاقصى من الادارسة لأنهم شيعة ، ثم اثارهم على عبيد الله المهدي ، وعلى خلفائه من بعده ، باذلاً لهم الوعود والمغربات . واستمال بالاموال والعطايا حميد بن يصال صاحب تاهرت ، وابن اخي مصالحة بن حبس القائد الفاطمي المشهور ، وكان قواد الثورات المعادية للفاطميين عندما يتضايقون ، لا يجدون ملجاً لهم سوى قرطبة حيث يلاقون كل رعاية وترحيب .

ومن الجدير بالذكر انهم اعادوا لعن الفاطميين على منابر الاندلس ، كما فعل اباؤهم في دمشق من قبل ، وفي هذا ضربوا الرقم القياسي بالخطاط الاخلاق ، والقيم ، والشرف .

ان مصادر التاريخ الموثوقة لم تذكر اية محاباة بين الفاطميين والامويين الاّ مرة واحدة ، ويبدو ان العنف الذي قابل به الفاطميون تعديات الامويين جعل هؤلاء يحسبون للامر حسابه ، ويتجنبون اية مصادمة قد تعرضهم لهزائم اشد ، وأدهى .

فقد ذكر :

ان احدى السفن الاموية هاجمت سفينة فاطمية في البحر على مقربة من صقلية واستولت على رسالة كان قد بعث بها حاكم صقلية الفاطمي الى المعز لدين الله ، فاعتبر المعز لدين الله هذا التحدي مقدمة لاعمال اخرى قد يقومون بها ... لهذا قرر الرد عليها بسرعة وبقوة ، بحيث يضع حدّاً لاعمال القرصنة الاموية في مناطق نفوذ الفاطميين البرية والبحرية . فأصدر امره لعامله في صقلية الحسن بن علي الكليبي بان يرد على الاعتداء باعتداء مضاعف . فأرسل الاسطول الفاطمي الى «المريّة» وهي قاعدة اسطول الامويين ... وهناك انزلت الجنود الفاطمية في المرفأ ، ومنه زحفوا الى المدينة ، حيث احرقوا كل ما تقع عليه اعينهم ، ثم عادوا الى المرفأ واحرقوا المراكب ، والخزائن ، والمستودعات ، والذخائر ، حتى اضطر اهل المدينة الى الهرب .

وذكر التاريخ :

ان الامويين لم يقاوموا ، وعجزوا عن التصدي لرجال الاسطول الفاطمي ، وكان لعنصر المفاجأة النصيب الاكبر ... وكل هذا جعل الامويين بعد هذه المعركة يبادرون الى عقد معاهدة مع الروم كان من بنودها اشتراك الاسطولين الرومي والاموي في دوريات مشتركة للوقوف

بوجه التحركات البحريّة الفاطمية.

وقد صوَّر القاضي النعْمَان بن حُيُون في كتابه المجالس والمسائرات هذا التحالف بقوله:

« وأقبل اسطول الروم، فلقي اسطول امير المؤمنين دون صقلية، ففتح الله لوليه على الروم فهزهم في البحر، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وولوا هاربين بين يدي اسطوله، ولكنه تبعهم، فلقوه في البحر فهزهم ايضاً، فنزل عسكر البر بأرضهم، فأنكمى بالقتل فيهم، وأحرق مداشرهم، وخرب كنائسهم... وهذا ارسل ملك الروم الى امير المؤمنين المعز لدين الله يطلب الصلح، وأرسل اموالاً عظيمة، وهدايا جليلة، ورحب في التوقف عنم بقي من الروم بارض « قلوريا » على ما قطعه على نفسه، يؤديه عنهم، مع طلبه المدنة».

وقد اوضح النعْمَان:

ان الناصر الاموي حينا رأى هزيمة الروم، وما حلّ بهم من نكبات... دسَّ رسولاً من قبله، وكتب على لسان بعض رجاله الى بعض رجال امير المؤمنين المعز لدين الله في المواجهة والصلح، وكف الحرب. فكان رد المعز لدين الله غاية في الروعة، والثقة بالنفس.. فقد قال للرسول:

ان الناصر استعان علينا بالروم المسيحيين. وأضاف:

ان اتخاذ الناصر لقب امير المؤمنين هو تعدٍ على حقنا، فنحن اهل ذلك دونه، ودون من سواه نرى ان الله فرض علينا محاربة من انتحل ذلك وادعاه.

ما انا بالمداهن في دين الله، والا بالراكن بالمؤدة الى اعداء الله، ولا بالخادع في امر من امور الله عز وجل... ارجع بجوابي هذا اليه، فما له عندي سواه.

ويظهر ان الناصر الاموي استمر بارسال الرسائل، والوسائل، وكان

يرمي من وراء ذلك تخدير الاعصاب حتى يعد العدة للقتال، ولكن المعز لدين الله ادرك ذلك . وقال :
« إنما اراد هذا الفاسق ان يقطع الزمان بهذه المراسلة » .

ومهما يكن من امر... فان الفاطميين لم يدخلوا في حسابهم محاربة الامويين في الاندلس كما قلنا ، لأن خطتهم كانت ترمي الى الاحتلال مصر والنفاذ الى الشرق حيث بغداد... ولهذا ظلّ الامويون بمنجاة منهم ، وأكملوا مسيرتهم في الاندلس .

المعز لدين الله وجزيرة كريت :

جزيرة كريت او « اقريطش » تشكل مركزاً استراتيجياً حساساً في البحر الابيض المتوسط ، وفي عهد الدولة العباسية الاولى كانت تابعة لبغداد ، ومتصلة ادارياً بمصر .

وغير خافٍ ان اكثريه سكانها كانوا من الربضيين الاندلسيين الذين ثاروا على « الحكيم بن هشام الاموي » سنة ٢٠٤ هـ ، وحاصروه في قصره بقرطبة ، ولكنه انتصر عليهم فيما بعد في واقعة « الربض » المشهورة ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، كما اجلى البقية الباقيه منهم عن الاندلس ، فقصدوا مدينة فاس بالغرب الاقصى ، ثم قصد الآخرون مدينة الاسكندرية .

ويظهر انهم كانوا يميلون بطبيعتهم الى الشغب ، واحاداث الفتنة ، في كل مكان تطأه اقدامهم ، فأخذوا يقومون في الاسكندرية باعمال تسيء الى الاهلين ، وفي عهد ولاية عبد الله بن طاهر سنة ٢١١ - ٢١٣ هـ . قاموا بشورتهم ، واعتصموا بالمدينة ، وطردوا سكانها الاصليين منها ، ثم ولوا عليهم احد زعائهم المسماً « حفص بن عمر بن شعيب البلوطى » ، ولكن والي مصر استطاع اخيراً ان يلحق بهم المزيمة ويجليهم عن الاسكندرية ، فذهبوا الى جزيرة كريت وأقاموا فيها ، وقد ظلوا فيها زهاء قرن ونصف في امن وسلام اي حتى منتصف القرن الرابع هجري .

وفي هذه الفترة تعرضوا لغزوات الروم الطامعين بالجزيرة، فطلبوا النجدة من العباسين ثم من الاخشidiين في مصر، وبعد ذلك من سيف الدولة الحمداني، فلم يجدهم احد من هؤلاء. وآخرأ:

ولوا وجوههم شطر المنصورية يطلبون من المعز لدين الله مساعدتهم... فاستمع اليهم، وعطف على مطالبهم... وبالفعل اتصل بالاخشidiين في مصر، وطلب اليهم التعاون في سبيل نصرتهم، وانقاذهم، كما اتصل بالروم وحذرهم من معنة هذه الاعمال المنكرة.

ومن الامور البارزة في تلك الفترة، ان المعز لدين الله كان في موقف القوة، فقد تمكن من الحق المزائم المتلاحم بالروم، كما قضى على كل آمال الامويين، واحبط مساعيهم، ومحططاتهم... ولكن مهاجمة الروم باساطيلهم لجزيرة كريت اقضت مضاجعه، فبادر الى نقض المدنة معهم، ووقف في وجه مطامعهم، موقفاً املأه عليه غيرته على المسلمين.

ومهما يكن من امر... فان المعز لدين الله ارسل في تلك الفترة رسالتين: الاولى الى الاخشidiين في مصر، والثانية الى الروم... وكل ذلك في سبيل كريت. والحقيقة:

فان المعز لدين الله كان يطمع بضمها الى دولته، لانها برأيه تعتبر مفتاح مصر، والقسطنطينية، وان يجعلها قاعدة بحرية لاساطيله، مضافاً الى ذلك ما كان يعلمه عن المعادن الموجودة فيها، وكل هذا جعله يوجه اللوم للوفد الكريتي الذي زاره على اعتبار انهم لم يتصلوا به قبل الان.

اجل... لقد كان المعز لدين الله يجد في الاستيلاء على كريت ما يحقق له النفاذ الى الشرق، والى البلاد الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط. وكل هذا يعرفه الالمان والايطالين حينما حاولوا احتلال جزيرة كريت في الحرب العالمية الثانية.

لقد كان في ذلك العهد على رأس الاخشidiين الحاكمين في مصر

«كافور» ففي ايامه كانت كريت مستودعاً لتمويل مصر، حتى ان سفن هذه الجزيرة، ومراتكها كانت تذهب الى مصر محملة بخوات هذه الجزيرة وغيرها من البلدان الاخرى. ومع ذلك فان كافور لم يحرك ساكناً، سوى انه ارسل بعض مراكبها الى عرض البحر لعرض العضلات فقط.

ويقول المعز لدين الله لابي الحسن علي الاخشيدى:

«لا تخشى على مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وموثاقه ،انا لا نكون معهم الا لسبيل الخير ، وانا نخلهم محل رجالنا ، ونجعل ايديهم مع ايدينا ، ونشركمهم فيها افاء الله علينا ، ونقيمهم في ذلك ، وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا ، حتى يفتح لنا ان شاء الله ، ثم ينصرفوا اليك ». .

وكان المعز لدين الله قد وضع خطة العمل المشتركة مع الاخشيديين ، وهي تقضي بان يرسلوا بعض قطع اسطوتهم الى برقة للانضمام الى الاسطول الفاطمي المقرر لحماية كريت.

اما بالنسبة للروم فقد كان انذار المعز لدين الله بالغ الشدة كقوله : فأقربيطش (اي كريت) وغيرها من جميع الارض لنا ، بما خولنا الله منها ، وأقامنا له فيها ، اطاعنا من اطاعنا ، وعصانا من عصانا ، وليس بطاعتهم يجب ان نترك ، ولا بعصيائهم يجب ان نترك .

وهكذا تظهر عبرية المعز لدين الله السياسية ، وتطلعاته ، ومظاهر قوته في العالم الاسلامي ... وهنا يجب ان لا يسهى عن باننا بان الاخشيديين في مصر ، كانوا يميلون الى الفاطميين ، ويفضلونهم على العباسيين .

واخيراً :

فان المراجع التاريخية لم تمنا بآية معلومات عن تحركات فاطمية ، او اخشيدية في مياه جزيرة كريت وكل ما عرفناه هو:

ان الربضيين استقروا في كريت مائة واربعين عاماً ، ثم غزاهم الروم في عهد اوريانوس بن قسطنطين الثامن وذلك سنة ٣٥١ هـ . حدث هذا

في وقت كان المعز لدين الله لا يزال في المغرب يكافح في سبيل تثبيت دعائم ملكه في المغرب، وفي الواجهة الثانية كان في صدد تهيئة الحملة الكبرى لفتح مصر وببلاد الشام. ولعل كل هذا حال دون احتلال كريت، وطرد الروم منها.

ومهما يكن من أمر، فنرى من المفيد جداً نشر الكتابين المسلمين من المعز ل الدين الله الى اي الحسن علي الاخشidi والى امبراطور الروم ، ففيهما حقائق تاريخية ، وقد اعتبرهما اكثر من باحث بانها من الوثائق المهمة.

قال المعز ل الدين الله :

ان الله سبحانه قد خولنا من فضله، وأمدنا من معونته وتأييده بما نرى ، بجوله وقوته ، ونصره لنا ، واظهارنا على عدونا ... آنا نكف ايدي الكفرة عمّا تطاولت اليه من حرب هذا الصفع والايقاع - باهله . وقد انتهى اليك انك اظهرت الحركة الى الجهد ، وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك .

وانت لعمري بذلك اجدر لقرفهم منك ، واتصالهم بك ، وميرتهم بذلك ، وكونهم واياك في دعوة واحدة . ولو اسلمناهم اليك ، وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك ولكننا اثروا نصرة امة جدنا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ولم نر التخلف عن ذلك . وقد رجونا له ، والقوا بانفسهم علينا فيه ، ونحن لا نحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ما املت منه . فلا يكن ما يتصل بك من انفاذ اساطيلنا يثنى عن الذي همم به من ذلك ، وان تخشى على من تبعث به ، وعلى مراكبك منا . فلك علينا عهد الله ومويثقه ، انا لا نكون معهم الا بسبيل الخير ، وانا نخلهم محل رجالنا ، ونجعل ايديهم مع ايدينا ، ونشركمهم فيها افاء الله علينا ، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا حتى يفتح لنا ان شاء الله ، ثم ينصرفوا اليك على ذلك ، او يكون من امر الله وقضائه ما هو فاعله ، فاعلم ذلك ، وثق به منا ، ففي ذلك تظافر المسلمين على عدوهم ، واجتمع كلمتهم

واعزار لدين الله ، وكتب لاعدائه ، فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل .

فإن ثقت بذلك ، ورأيت اىشار الجهاد ، فأعمل على ان تنفذ مراكبك الى مرسى « طبنه » في ارض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة اقريطش ، ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى في مستهل ربيع الآخر سنة ٣٥٠ هـ . بتوفيق الله ، وقوته ، وتأييده ونصره ، وعونه ، والآت تر ذلك ، فقد ابلغنا في المعدنة اليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا اليك .

ونحن بحول الله ، وقوته ، وتأييده ، ونصره ، وعونه مستغلون عنك ، وعن غيرك ، وعلى عزم وبصيرة في انجاذ اساطيلنا ، ورجالنا ، وعدتنا ، وما خولنا الله اياه ، وأقدرنا عليه ، مما نرى اننا بحوله ، وقوته نبلغ به ما نؤم اليه بذلك ، ونعمد نحوه .

فبالله نستعين وعليه نتوكل ، وعلى تأييده نعدل ، وهو حسنا ونعم الوكيل »

وقال القاضي النعيم بن حمّون :

امر الامام المعز لدين الله ، بكتابه هذا الى امبراطورية الدولة الرومانية الشرقية ، وقد املأه على الكاتب بحضورتي بين يديه ، بكلام ما سمعت اجمل ولا ابلغ منه فقال بعد ان خيره بين ان يقلع عن حرب اهل اقريطش ، وبين ان ينبذ اليه عهده ، كما نبذ رسول الله (صلوات الله عليه) الى مشركي العرب عهدهم ، وارسل عليا ببراءة ، فقرأها في الموسم عليهم ، ولقول الله اصدق القائلين :

﴿ واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم ﴾

ثم قال له في كتابه :

ولا يرى ان دعوة اهل اقريطش قبل اليوم الى غيرنا ، وقد انابوا اليوملينا ، واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام المودعة ، بتركهم اليك ،

وترک اعترافك فيهم . ان امتناع اهل الباطل من اهل الحق ليس بعزيز
حدهم ، وان تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتبصر الله تعالى اياديه .
فأقر يطش وغيرها من جميع الارض لنا ، بما خولنا الله منها ، واقامنا له
فيها ، اطاعنا فيها من اطاعنا ، وعصانا من عصي ، وليس بطاعتكم يجب لنا
ان نملك ، ولا بعصيانكم يحق علينا ان نترك ولو كان ذلك ، لكان الامر
الىهم ، لا لله تعالى الذي خولنا ، ولا لنا ، ان شاءوا اعطونا ، وان احبوا
منعونا . كلا ... ان ذلك لله تعالى الذي له ما في السموات ، وما في
الارض . هو الذي اصطفانا وملكتنا واعطانا ولو كان ذلك للحق ، لما
وسعنا قتال من امتنع منهم علينا ، ولا رد ما انتزعوه بالغضب من ايدينا اذ
قدرنا الله على ذلك ، وبه قوانا .

فإن قلت أنت غير ذلك ، وانت ترى ما في يديك لك ، فقد كان
رومأنس قد تغلب عليك ، وعلى ابيك من قبلك ، ثم دارت لکما عليه
الدائرة . فان رأيت ان من احتجز شيئاً وتغلب عليه فهو له دون صاحب
الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ، ولا لأبيك القيام على رومأنس ، ولا انتزاع
ما صار اليه من بين يديه .

فهذه سبيل اهل الحق عندنا ، فان اعترفت لها فقد انصفت ، وان
جهلتها ، لم يكن جهلك ايادها حجة على من عرفها .

وعهدك ان تماذيت على حرب من انا بالينا منبود اليك . فانظر
لنفسك ، ولا هل ملكك ، فأنا مناجزوك واياهم لحرب بعون الله لنا
وتائيدك ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

«المعز لدين الله»

الفاطميون وصقلية:

عندما ارسى الفاطميون قواടعه ملکهم في شمالي افريقيا ، وجهوا اهتمامهم الى جزيرة « صقلية » وكان هدفهم نزع يد الروم عنها ، وجعلها قاعدة لاسطولهم الكبير ، ومنطلقاً للهجمات على الروم ، وايقافهم عند حدودهم ، ولكن طبيعة هذه الجزيرة ، وتعدد الجنسيات التي تعيش على ارضها ، واختلاف المناهج الحياتية كانت في اغلب الاحيان تهدد الامن ، والاستقرار فيها .

وقد كنا ذكرنا ان هذه الجزيرة الكبرى ، ذات الاهمية الحربية القصوى استأثرت باهتمام عبيد الله المهدي ، منذ ان خطَّ الرحال في بلاد المغرب . وبعد ان ضمَّها لدولته الفاطمية سنَّ قانوناً خاصاً لها يقضي بان تبقى فيها حامية قوية تكون مهمتها منع اي اعتداء خارجي عليها ، من جهة ، والوقوف في وجه التحرَّكات الداخلية والانتفاضات العنصرية ، والدينية التي كانت تنبئ فيها من حين آخر .

وفي عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله ظلت على ارتباطها بالدولة الفاطمية ، وتقعَّن القائم بامر الله من ان يطلق منها اسطوله اكثر من مرة الى الشواطئ الرومية لشن الهجمات ، وتعكير صفو الدولة المعادية . وعندما جاء المنصور بالله الى سدة الخلافة سنة ٣٣٦ هـ . عين عليها امير البحر « الحسن بن علي الكلبي » ومنحه صلاحيات كبيرة ، فاستطاع الكلبي ان يوقف التحرَّكات الاموية ، كما استطاع ان يهدد الروم ، وان يلقي الرعب في قلوب اهالي الجزء الغربي من البحر الابيض المتوسط .

و قبل ان يتسلّم المزعز الدين الله شؤون الخلافة - اي في اواخر عهد المنصور - حدثت في صقلية منازعات داخلية بين المسيحيين، وال المسلمين، مما حدا بال المسيحيين الى اللجوء الى اباطرة الدولة البيزنطية ، والطلب اليهم انقاذهما من حكم المسلمين ، فاستجابوا لندائهم ، وارسل الامبراطور قسطنطين الثامن جيشه الى هذه الجزيرة ، فاشتبك مع الحسن الكلبي بمعارك عديدة كان النصر في نهايتها حليف الكلبي الذي استولى على امهات مدن قلوريا ، وجراجة ، وصقلية ، ومن الجدير بالذكر ان قائد الروم قد قتل في هذه المعارك ، مما ارغم الامبراطور على طلب الصلح ، مع تعهده بدفع جزية كبيرة عن قلوريا للفاطميين ، وقد تمكن الكلبي وقتيلاً من اقامة المساجد في المدن الرومية ، والوقوف بوجه التحركات البيزنطية الشرقية .

وعندما تسلّم المزعز الدين الله شؤون الخلافة ، نقض امبراطور الروم الهدنة ومعاهدة الصلح ، وقد شجعه على ذلك الانتصارات التي حققها على العباسيين ، والحمدانيين في المشرق ، ولهذا ارسل سنة ٣٤٥ هـ . حملة بحرية كبرى الى صقلية ، وركز هجومه للاستيلاء على بالرمسي التي كانت موالية للمسلمين - ففتحها بعد حصار طويل شاق ، ثم اخذت انتصارات الروم تتواتي حتى وصل بهم الامر الى حد ارسال جيشهما الى صقلية حيث استولوا على «ترميي» غير ان هذا الانتصار لم يدم طويلاً ، لأن الحسن الكلبي كان على رأس جيش كامل العدة والاستعداد ، واخوه عمّار على رأس جيش آخر في قلوريا الا ان الحسن كان اكثر انطلاقاً وجرأة وتوفيقاً فقد تمكن من ازاحة الخطر عن ترميي بسرعة بينما اخوه عمّار كان عرضة الى المطاردة من مكان الى آخر من قبل الروم ولم ينقذه من هذا الوضع الا انضمّا اخيه الحسن اليه سنة ٣٤٧ هـ . فقد استطاع عبور خليج مسيني بين صقلية ، وقلوريا والانضمام الى جيش اخيه عمّار ، ثم انطلقوا معاً يغزوan مدن قلوريا الواحدة بعد الاخرى ، وامدادات المزعز الدين الله تتواتي عليهما ، حتى اضطرّ الامبراطور البيزنطي الى ارسال موافداً

عنه يطلب هدنة جديدة، ويدخل في بنودها دفع الجزية الى الفاطميين من قبل اهالي قلوريا .

الى هنا ... وتنتهي المرحلة الاولى من حروب المعز لدين الله مع الروم في صقلية ... على ان الامبراطور قسطنطين لم يتم على الثأر، فاتفق مع عبد الرحمن الناصري الاموي على محاربة الفاطميين في صقلية، ومهاجمة افريقيا من الشرق، بينما يهاجمها الناصر الاموي من الغرب ... ولكن المعز لدين الله استطاع احباط هذه الخطة، وتمكن من احراز الانتصارات الساحقة على الروم في البحر الابيض المتوسط، وهكذا بالنسبة للامويين، مما اضطر الامبراطور اخيراً الى طلب الصلح لمدة خمسة اعوام .

لقد اشاد التاريخ العربي والاسلامي بالانتصارات التي حققها الحسن الكلبي على الروم، تلك الانتصارات التي تحققت باستيلائه سنة ٣٥١ هـ على قلعة « طبرمين » وتعتبر من امنع قلاع صقلية. ويدرك التاريخ ان الكلبي طرد اهلها منها، وأسكن فيها المسلمين وسمّاها « المعزّية »، وبعد هذا اخذت المدن الاخرى تفتح ابوابها له الاً مدينة « روطة » التي وقفت بعناد، ثم طلبت اخيراً من الامبراطور « نيقفور فوكاس » ان ينجدها من خطر الفاطميين. فأعادَ جيشاً ضخماً قدر بخمسين الفاً، وزوّده بالمؤن والذخيرة، وعقد عليه للقائد « مانويل » وهو من اقربائه. ويدرك التاريخ: انه لم يسبق لصقلية ان دخلها جيش بهذه القوة .

اما احمد بن الحسن الكلبي ، فأعادَ اسطوله اعداداً كاملاً ، وزرع جيوشه البرية على موانئ صقلية الشمالية والشرقية بعد وصول الامدادات من المعز لدين الله ... وقسم الحسن وابنه احمد الجيوش الى فرقتين: فرقة جعل عليها « الحسن بن عمار الكلبي » وفرقة وهي الاكثر عدداً جعل عليها « احمد ابن الحسن الكلبي » وقد رابطت في بالرموم .

وذكر التاريخ:

ان الامدادات الفاطمية وصلت من المهدية الى صقلية قبل وصول

الروم . . . ولكن الروم بالرغم من كل هذه الاستعدادات ، والتنظيمات فانهم تمكنوا من الاستيلاء على مسينا التي تبعد تسعة اميال عن رمطة ، كما استولوا بعد ذلك على ترميسي وغیرها ، وقطعوا بين الامدادات الفاطمية ، وبين الحسن بن عمّار الذي كان يحاصر رمطة ، ثم انهم اندفعوا الى فك الحصار عن هذه المدينة ، ولما علم احمد بن الحسن بهذا الخطر اتجه من بالرمو الى رمطة لانقاذ ابن عمه الحسن بن عمّار ، ولكنه لم يستطع ان يسبق الروم اليها ، واشتغل باسترداد ترميسي .

لم يعبأ الحسن بن عمّار بكثرة عدد جيوش الروم ، ولم ترهبه قوتهم ، بل ظلّ صامداً ، فقسم جيشه الصغير الى اربعة فرق : جعل فرقة منها على حصار رمطة ، ليحول بينهم وبين الاتصال بالجيش البيزنطي المهاجم ، ووضع فرقتين على رأس الواديين اللذين يوصلان الى المدينة ، وكان العدو يستطيع التسلل منها اليها ، واتجه هو على رأس البقية الباقيه من جنده لمقابلة جيوش مانوييل الرئيسية ، وعندما ادرك ابن عمّار انه وجيشه دون العدو عدداً استهاتوا في القتال ، وتعاقدوا فيما بينهم على ان يموتو كراماً . . . والتحم القتال ، وعظم الامر على المسلمين ، والحقهم العدو بخيالهم ، وأيقن الروم بالظفر . . . فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت ، ورأوا انه اسلم لهم من حياة الذل ، فثبتوا من جديد ، واندفعوا نحوهم على الرغم من قلة عددهم . . . وكانت مفاجأة للروم ، واخذ الهلع يدب الى نفوسهم ، بعدما رأوا صفوفهم تتمزق ، ورؤوس قوادهم تتدحرج .
واخيراً :

ادرك مانوييل حرج مرکزه فتقدم الصفوف ، وجعل يشير الحماسة ، ويحذر جيشه من الهزيمة . . . ولكن الحسن بن عمّار قابل ذلك باندفاع جديد محكمّاً سيفه بالرقب ، ثم احاط بمانوييل ، وتتمكن من عقر فرسه ثم قتله . . . وكانت هذه بداية الظفر ، فقد عزّ عليهم وقوع قائدتهم مجندلاً بالساحة . ممّا جعلهم يولون الادبار ، وتشاء الاقدار ان تعيقهم العواصف ، والامطار عن

الهرب ، فوقع سوادهم في الاسر ، وقتل جماعة من البطارقة ، وامتلأت ايدي المسلمين من الغنائم والاسرى .

ويقول ابن الاثير عن هذه المعركة :

« انهزم الروم اقبح هزيمة ، واكثر المسلمين فيهم القتل ، ووصل المنهزمون الى جرف خندق عظيم كالحفرة ، فسقطوا فيه من خوف السيف ، فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت ، وكانت الحرب من بكرة الصباح حتى العصر ، وقد غنم المسلمين السلاح ، والخيل ، والأموال ، وكان في جملة الغنائم « سيف هندي » مكتوب عليه :

« هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً » طالما ضرب به بين يدي رسول (صل الله علیه وسلم) فأرسل الى المعز لدین الله مع الاسرى ورؤوس القواد » .

بعد هذه الانتصارات التاريخية الرائعة .. اخذت المدن الثائرة تستسلم الواحدة اثر الاخرى اما اهل رمطة فلم يلقوا سلاحهم ، واستمروا بالمقاومة ، الى ان تسلق المسلمين الاسوار ، واقتحموا المدينة واستولوا عليها عنوة .

ونعود الى احمد بن الحسن بن عمار ، فانه ما كاد يعلم بهزيمة الروم حتى اندفع نحو مسيينا ليقطع على فلوهم خط الرجعة ، ولكنه علم انهم هربوا الى جزيرة ريجيو ، وكان هدفهم التسليطية ، فلحق بهم ، وانتصر عليهم في موقعه عرفت بموقعة « المجاز » وهي لا تقل خطراً عن موقعة رمطة ، فقد زحف اليهم احمد بن الحسن في الماء ، وقاتلهم ، واشتد القتال حتى القى جماعة من المسلمين بانفسهم في المياه ، وخرقوا العديد من مراكب الروم ، واغرقوها ، وقتل الكثير منهم ، وانهزم من بقي لا يلوى على شيء ، واخيراً اسر قائهم ، وهو ثانى اثنين من قواد هذه الحملة ، وارسل الى المنصورية .

على اثر هذه المعارك الكبيرة ، ساد الخوف اهالي قلوريا ، فبادروا الى عقد المدنية مع احمد بن الحسن الكلبي ، وقد كان لهذه الانتصارات المتتالية

الخامسة وقعتها في نفوس المسلمين في جميع اقطارهم، لذلك اقيمت الافراح، والمهرجانات في كل مكان من ارجاء الدولة الفاطمية، وذكر أن نشوة الفرح اثرت بالحسن بن الكلبي الأب فخرّ صريعاً وذلك سنة ٣٥٤ هـ.

عند هذا الحد توقف الروم عن اطلاعهم، وادركتوا بان الفاطميين غير العباسين، والحمدانيين، وان لا سبيل الى دحرهم في ميدان الحروب، فأخذوا يتقربون منهم، ويعلنون خصوبتهم لهم، وهذا ما ساعد المعز لدين الله على تعبئة جميع قواته البرية والبحرية، واعدادها لغزو المشرق.

ومهما يكن من امر... فقد تقلّد شؤون صقلية في عهد المعز لدين الله اربعة من الولاية او لهم: الحسن بن احمد الكلبي الذي عينه المنصور بالله، ومن المعلوم ان المعز لدين الله اقره في منصبه، وبعد فترة استدعاه الى المنصورية، وولاه منصبًا كبيراً، وأناب عنه ولده احمد، كما اشرك مع هذا الاخير ابن عميه الحسن بن عمار «بطل معركة رمطة»

ويظهر ان المخاوف ساوت المعز لدين الله من ان تستبد الاسرة الكلبية بالجزيرة، وتعلن استقلالها وانفصalam... وقد برز هذا جلياً عندما ولّى المعز لدين الله «يعيش» سنة ٣٥٨ هـ. مكان احمد بن الحسن الكلبي بعد ان استدعاه، وسائل افراد اسرته الى المنصورية، وقد برر المعز لدين الله هذا التدبير بقوله: انه بحاجة الى هؤلاء الابطال للمشاركة بفتح الديار المصرية، ولكن يعيش هذا لم يستطع الاستمرار بحكم صقلية وخاصة بعد ان انفجر القتال بين كتامة، والقبائل الاخرى، وبعد ان عمّت الاضطرابات، وتفاقمت الحروب الاهلية... وهنا ادرك المعز لدين الله بأنه لا بد من اعادة احمد بن الحسن الى الجزيرة. فعاد مزوداً بالصلاحيات الكافية وبالاضافة الى الولاية على صقلية منح رتبة امارة الاسطول، كما اناب عنه اخاه ابا القاسم بن الحسن، وأبقى محمد بن الحسن في المنصورية حيث عهد اليه بمنصب رفيع.

وممّا تجدر الاشارة اليه أن أبا القاسم ظلَّ في صقلية حتى سنة ٣٧٢ هـ . اي حتى خلافة العزيز بالله الفاطمي .

و قبل ان نختم الحديث عن هذه الاسرة نقول :

بانها ظلت على ولائها للدولة الفاطمية ، فلم يسمع ، او يذكر ان احداً منها خرج على طاعة الفاطميين ، او فكر بثورة ، او انتفاضة ، بالرغم من ان نفوذها ، وقوتها ، وعصبيتها وصلت في صقلية الى درجة ان اكثر المؤرخين اطلقوا عليهم اسم « ملوك صقلية » .

من جهة اخرى فاننا نرى الفاطميين يقدرون لهم خدماتهم ، ويولون العديد منهم المناصب الرفيعة في مصر ، وفي المغرب .

بين المشرق والمغرب :

بعد الانتصارات الرائعة التي حققتها قوات الفاطميين في صقلية ، وعلى شواطئ ، ومرافئ بلاد الروم ... وبعد رضوخ المغرب الأوسط ، والادنى ، والأقصى بكافة اجزائهم ، واستقرار الامور في تلك الربع ، اخذ المعز لدين الله يفكر بالشرق بمصر ، ببلاد الشام . وكانت الاخبار تأتي اليه مصدقة عن تردي الوضاع في الدولة العباسية وعن حالة من الفوضى تسود البلاد العباسية عامة ، مما يجعلها عاجزة عن صد اي تحرّكات عسكرية ، او هجمات تشن من قبل المتربيين والمغيّرين . فالدولة العباسية كانت في تلك الآونة تعاني من الوهن ، والشيخوخة ، ومن تدخل العناصر الغربية في شؤونها ، وخاصة الاتراك الذين أصبحوا هم الحكام الاصليين . اما الخلفاء العباسيون فكان حا لهم كما قال الشاعر :

خليفة في قفصٍ بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا له كما تقول البيغا

ففي تلك الفترة قام صاحب الزنج في اقليم البصرة، وجنوبي فارس الغربي معلنًا ثورته المشهورة، كما قام القرامطة بثورتهم الدموية، فألحقوا الذعر في بلاد الشام، وباديتها، وحدود العراق، ثم هاجموا بغداد في نهاية المطاف، وكادت العاصمة الكبرى تسقط في ايدي ابي الطاهر الجنابي القرمطي سنة ٣١٥ هـ، كما استطاع علي بن الفضل وابن حوشب داعيا الفاطميين ان يخرجوا اليمن عن طاعة العباسيين.

كل هذا ويجب ان لا ننسى قيام دويلات مستقلة في ارجاء الدولة العباسية.... كالدولة الصفارية، والسامانية اللتان استطاعتاه انتزاع جزء كبير من اراضي الدولة في اقصى المشرق. كما يجب ان لا ننسى الطولونية، والاخشيدية، وانتزاعهما مصر والشام... وتأتي الدولة الفاطمية في نهاية المطاف لتنزع المغرب او كافة شهالي افريقيا. اما الحمدانيين فقد شاركوا العباسيين حكمهم، وخاصة في الموصل، وحلب، وأهم من كل ما ذكرناه استبداد بنو بويه بالسلطة، لدرجة ان امور الدولة صارت خاضعة لهم، حتى ان تنصيب الخليفة، وعزله كان في ايديهم. وقد وصف احد المؤرخين اوضاع العباسيين بقوله:

لم تكن حالة الضعف التي وصلت اليها الخلافة العباسية راجعة الى السياسة فحسب بل تعدتها الى الدين ايضاً، فقد ظهرت في بغداد مذاهب دينية كان اهمها: انصار ابن حنبل وغيرهم... وكل هؤلاء روجوا، وأساءوا بالعباسيين الظنون، وعابوا عليهم استسلامهم بالملذات، وشرب الخمر، والاستهانة بالدين، وقواعده.

وفي الواقع:

فإن هناك خطراً كان أكثر، وأشد خطورة من كل ما ذكرناه، واعني به خطير البيزنطيين الذين توغلوا في قلب البلاد العباسية، وتمكنوا من الاستيلاء على حلب سنة ٣٥١ هـ، وعلى المصيصة، وطرسوس، وانطاكيه، ثم البرها، وديار - بكر، وميافارقين، ونصبيين.

فهذه الوضاع وضعها المعز لدين الله امام عينيه، وكان دعاته المنتشرين في كل مكان يوافونه بصورة منتظمة بتقاريرهم الشاملة.

اما مصر فكان الضعف، وسوء الاحوال العامة، قد اخذا يحلان في ارجائها وذلك منذ وفاة الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ، وخاصة حينما قام كافور واستبد بالحكم، وبالرغم من انه قضى على الانتفاضات الداخلية وانتصر على الحمدانيين في الشام، فان كل هذا لم يوطد الامن في بلاده، ولم يؤمن المدود والاستقرار.

اجل... استقل كافور بحكم مصر سنة ٣٥٥ هـ. وفي اواخر عهده انقسمت جيشه الى فريقين، فريق الاخشيدية الذي يناصر بيت الاخشيد الاصيل، والفريق الكافوري الذي انحاز اليه. ويدرك التاريخ:

ان المعز لدين الله ارسل من المغرب في تلك الفترة جيشاً قيل انه جيش طليعة، فوصل الى الواحات ولكن كافور اخرجهم، وردهم على اعقابهم. وطمع القرامطة في بلاد الشام، فهاجموها مرتين اي سنة ٣٥٣ وسنة ٣٥٧ هـ، وقد ادرك كافور قبل موته ما اصاب بلاده من نكبات، ولم يستطع مكافحة الغلاء، وايقاف الامراض، والأوبئة التي كانت تحدّد الناس وترمي بهم في الازقة دون ان يستطيع احد تكفينهم ومواراهم، وذكر ان الجنود تنكرروا للحكم القائم بعد ان اعلن عن عجزه عن دفع مرتباتهم... وتزداد الامور سوءاً عندما غزا امراء النوبة مصر الجنوبية، واسرّفوا على اخْيَم.

وبعد وفاة كافور اضطربت الاحوال السياسية، فلم يستطع الخليفة العباسي ان يولي على مصر من يشاء لذلك اجتمع رجال البلاط الاخشيديين واختاروا احمد بن علي الاخشidi «ابو الفوارس» وكان له من العمر احد عشر عاماً، وجعلوا ولاية العهد وقفاً على الحسن بن عبيد الله بن طفيح، غير ان هذا الاخير لم يبق في مصر طويلاً فعاد الى الشام، وقبض على

الوزير جعفر بن الفرات ، وترك مصر تتعي اهلها ، وترزح تحت المصائب والاهوال ، وعندما عاد ابن الفرات ، وتسلم ادارة البلاد لم يستطع ضبط الامور ، وطلت الفوضى ضاربة اطنابها في كل مكان .

هذه الصورة ، وهذا الواقع عرفه المعز لدين الله ، وله في ذلك قول مشهور :

« والله لو خرج جوهر الصقلي هذا وحده لفتح مصر ، وليدخلن مصر بالاردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طولون ، ويبني مدينة تسمى القاهرة - تقهير بني العباس .

وقد اورد المؤرخ المقرizi هذه القصة التي تعطي الدلائل على تردي الأوضاع والفساد الاجتماعي ، والأخلاقي في مصر ... قال :

وجهت ام الامراء « زوجة المعز لدين الله » من المغرب صبية ربتها ، لتباع في مصر ، فطلب الوكيل فيها الف دينار ، فجاءت امرأة شابة على حمار ، فلم تزل بها حتى اشتراها بستمائة دينار وقيل للوكيل : يا مغربي ... هذه بنت الاخشيد اشتراطت الجارية لكي تتمتع بها ... فلما عاد الوكيل الى المغرب اخبر المعز لدين الله بالقصة ... فأمر باحضار كبار رجال الدولة ، وحدثهم بخبر الجارية وقال :

يا اخواننا ... انضموا اليهم ، فلن يحول بينكم ، وبينهم شيء ، وإذا كان القوم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج ، وتشتري الجواري لتنعم بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة والرجولة منهم ... فانضموا اليهم ... فقالوا :
السمع ، والطاعة

وعلى العموم ... فان اهل مصر منذ فجر الاسلام لم يكونوا يبغضون المذاهب الشيعية ، بل كانوا في سرهم يؤيدونها ، ورغبوا بعد ذلك في ان

يحكمهم الفاطميين ابناء علي وفاطمة . . . فهم بنظرهم اصلاح واكرم من العباسين .

الدعاة والفتواه :

اعتمد الفاطميين في فتوحاتهم للبلدان ، وحررورهم على الدعاية المنظمة . . . ففي اليمن ، والعراق ، والبحرين ، وفارس ، وخراسان . . . كان دعاتهم يقدمون الخدمات ، ويحققون الانتصارات ، ويتغلبون في مناقشاتهم على العلماء الآخرين ، ويزرون في مجال العلم كأساطين للفكر لا يشق لهم غبار .

والحقيقة

فهو لاء الدعاة كان لهم مواقف في مجال الدعاية ، تفوق مواقف القواد في ساحات الحرب . وقد ذكر :

انه في عهود عبيد الله المهدي ، والقائم بامر الله ، والمنصور بالله كان الدعاة يرتدون تياب الجنود ، ويندمجون في الصفوف ، ثم يتقدمون الجيوش المحاربة ، للاختلاط باعدائهم ، وافساد خططهم الحربية .

وكانت مصر قبل الفتح الفاطمي تعج بهؤلاء الدعاة ، الذين لجأوا إليها لبث الدعاية ، وتأليف جماعات تؤيدتهم ، وتدين بمذهبهم ، حتى توصلوا إلى حد الدخول في حرم الاخشidiين ، واستقطاب جماعات كبيرة منهم . فقد علم ان القائم بامر الله اتصل بمحمد بن طغج الاخشيد غير مرة عن طريق الدعاة وحاول جذبه إليه ، ودفعه إلى الانتفاض على العباسين ، وقد تحلى كل ذلك عندما ارسل الخليفة العباسي الراضي قائده ابن رائق ليستولي على مصر وينزع ايدي الاخشidiين منها بعدما علم بميله للفاطميين ، وهذا ما جعل محمد بن طغج يبطل خطبة العباسين ، ويستعيض عنهم بالفاطميين . . . ولكن هذا لم يستمر طويلاً ، لأن اعوانه نصحوه بالاقلاع عن هذه السياسة الوخيمة العاقب .

وذكر:

ان الاخشد عرض على القائم باامر الله تزويع ابنته من ابنه المنصور بالله ... وكل هذا يدل على ان مصر كانت تتوجه تلقائياً للدخول تحت المظلة الفاطمية، وهذه الرغبة كانت تتزايد يوماً بعد يوم ... وذكر ايضاً بان المعز لدين الله قال لرسول الامبراطور البيزنطي في مصر:
اذكر اذ اتيتني رسولـاً وانا بالمهدية ... فقلت لك لتدخلنـ ، عليـ وانا بصر مالكاـ لها ، وانا اقول لك الانـ :
«لتدخلنـ عليـ بغدادـ وأنا خليفةـ فيها»

اجل ... كان المعز لدين الله يختار للبلاد الاسلامية دعاة من العلاء الاذكياء، وكان اذا وجد داعياً متخلفاً عزله، وولي غيره، وقد رسم لهؤلاء الدعاة خطة كانوا يسيرون عليها في تلقين مبادئهم، فيسير معهم في خطى متئدة حتى لا تضيع البذور في ارض سبخة فلا ينحرف عن السبيل، او ينعكس عن القصد، فتصاب الدعوة بالخيبة والخذلان ... وكانت تلك التعاليم زاخرة بالنصائح التي توجب على هؤلاء السير على هديها في تلقين المذهب، ولكي يكونوا من الفراسة بحيث يستطيعون ان يميزوا بين المستجيبين، ويلقنو كل واحد منهم بمقدار استعداده، وكان لهم في البلاد التي يذهبون اليها دعاة قبلهم، قد استفادوا من التجارب والظروف السائدة وعرفوا كل شيء ... وكل هذا كان من العوامل التي سهلت فتح مصر والشام، ومهدت السبيل للانتصارات الخامسة.

القائد المظفر:

ذكر التاريخ:

ان القائد جوهر الصقلي، مرض مرضاً شديداً بعد عودته من المغرب الاقصى، فحزن المعز لدين الله عليه حزناً بالغاً، وعاده بنفسه ... وهذا شرف لا يناله الاَّ المقربون فلماً عاد من زيارته قال:

جوهر لا يموت ، وستفتح مصر على يديه . . . وقد تحققت نبوءة المعز لدين الله فشفى جوهر ، وتم فتح مصر على يديه . . . وخففت راياته في سمائها .

لقد خرج المعز لدين الله ، وكبار رجال الدولة الى وداع قائد جوهر قبل ان ينطلق باتجاه المشرق ، وأضفى عليه هالة من التقدير والاحترام حينما امر اخوته ، وابناء عمه ، وأولاده وولي عهده بالترجل بين يديه ، والسير في خدمته وهو راكب . . . كما كتب الى سائر عماله يأمرهم ان يتزلعوا مشاة في خدمته ، فلما وصل الى برقة افتدى عاملها عن ترجله ، ومشية في ركابه بخمسين الف دينار ذهب ، فأبى جوهر الا ان ينفذ وصية امير المؤمنين .

وسارت الحملة من بلاد المغرب في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ . . . كما سارت قبلها جيوش نابليون سنة ١٧٩٨ م ، وجيش فريزر البريطاني سنة ١٨٠٧ م ، وجيش ولسيي سنة ١٨٨٢ م ، وجيش رومل الالماني في الحرب العالمية الثانية .

وكانت الجيوش الفاطمية منظمة تنظيماً دقيقاً ، ومزودة بالاموال ، والرجال ، والعتاد ، والمؤن وذكر ان المعز لدين الله انفق على اعداد هذا الجيش اربعة وعشرين مليون دينار عدا حولة الف جمل من الذهب خصصت للاتفاق على الحملة . . . وذكر ايضاً ان عدد الجيش الفاطمي الذي توجه الى مصر كان مئة وخمسين الفاً ، ومن الخيول ما يزيد على ذلك ، فضلاً عن الجيش البحري الذي اتجه من المهدية ، ووصلية على ظهر سفن الاسطول باتجاه الاسكندرية ، وقد وصف هذا الجيش احد المصريين بقوله : انه جمع مثل عرفات كثرة وعدة ، ومن الجدير بالذكر ان جوهر كان قبل عام قد فتح في الصحاري والواحات ابار ، وانتظر عليها حتى امتلاء بعيادة الامطار ، كما انه اقام الاستراحات والخيام وزودها في كل ما يمكن ان يوفر للجيش الزاحف المؤن والمياه .

ويجب ان نذكر : ان احدى الصحف الالمانية كتبت فضلاً عن القائد

رومل ابان الحرب العالمية الثانية فقالت:

انه في زحفة الى ليبية، والاسكندرية يتبع خط القائد الفاطمي جوهر الصقلي ... ومهمها يكن من امر فقد اورد النعماان بأن المعز لدين الله حينها ودع جوهر منحه كل ما كان عليه من الثياب الا خاتمه، وقد حضر حفلة الوداع تلك الشاعر ابن هانئ الاندلسي فقال:

رأيتُ بعيني فوق ما كنت اسمعُ وقد راعني يوم من الخشر اروع
غداة كأنَّ الأفق سُدًّا بهشله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم ادر اذ ودعت كيف اودع ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر تخبُّ المطايَا فيه عشرأً وتتخضع
اذا حلَّ في ارضِ بناتها مدائناً وان غاب عن ارضِ ثوت وهي بلقع

وصل جوهر الى الاسكندرية، فلم يجد فيها مقاومة تذكر، وادرك ان
اهاليها اصحاب نيات طيبة، وانهم ليسوا بقصد المقاومة او المعارضة...
وطذا اذاع امراً يومياً على الجيش:

بعدم التعرض للاهلين، وتحريم دخول المنازل دون اذن، او السرقة، او
النهب، او الاعتداء على اي كان.... وفي هذا تتجلّى عظمة جوهر،
وبعد نظره، وسياساته الحكيمية... كما اعطى البرهان على انه القائد الذي
يعرف كيف يسوس جنوده، ويمنع تصراطهم... من جهة اخرى فكان من
خططه اغداد الاموال على جنوده وذلك ليحول دون تطلعهم الى اموال
احد، ول يجعلهم في غنى عن اقتراح اية مخالفة.

وعندما سمع المسؤولون في مصر، وعلى رأسهم الوزير جعفر بن
الفرات، اجتمعوا وقرروا المفاوضة والاذعان للامر الواقع، لأن لا قبل لهم
على التصدي لهذا الجيش الكبير، وكان ان اختاروا جعفر بن الفرات
وبعض الاشراف العلوين، وآخرين من ذوي المكانة، للذهاب والمفاوضة

مع جوهر بشأن الصلح . فخرج الوفد من الفسطاط في ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ والتقوا مع القائد جوهر في « تروجة » القرية من الاسكندرية فخرج جوهر للقاءهم مرحباً ، وتداول معهم في شؤون مصر .. وتلقى التماسمم القاضي : بالتأمين على انفسهم وأموالهم ، وببلادهم ، ثم تقدموا من جوهر بالمطالب التالية :

اولاً - اعتراف من القائد العام ، وعهد يقطعه على نفسه بان يؤمن جميع المصريين جنوداً ومدنيين - مسلمين ، ومسحيين على انفسهم وأموالهم وببلادهم .

فأجابهم بالموافقة ، وانه ما جاء الا لينشر السلام والطمأنينة بين الناس كافة ، ويطبق العدل والحرية وعلى الاثر اذاع هذا البيان على المصريين :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من جوهر الكاتب عند امير المؤمنين - المعز لدين الله -
صلوات الله عليه

الى

اهل مصر الساكدين بها من اهلها ، ومن غيرهم

انه ورد من سألتموه الترسل ، والاجتماع معي ... ومعهم: ابو جعفر مسلم الشريف اطال بقاءه وأبو اسماعيل الرسي ايده الله ، وأبو الطيب الهاشمي ايده الله ، وأبو جعفر احمد بن نصر اعزه الله ، والقاضي اعزه الله فذكروا عنكم ، انكم التمستم كتاباً يشتمل على امانكم في انفسكم ، واموالكم وببلادكم ، وجميع اموالكم ... فعرفتهم ما تقدم به امر مولانا ، وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدو الله على ما اولكم ، وتشكروه على ما حاكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو :

انه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش

المظفرة الا ما فيه اعزازكم، وحمایتكم، والجهاد عنكم اذ قد تخطفتم الایدي، واستطال عليكم المستدل، والممتعة نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم، وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من اهل بلدان المشرق، وتأكد عزمه - واشتد لركبه . فعاجله مولانا ، وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم، ومجahدته عنكم ، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمّهم الخزي ، وشملتهم المذلة ، واكتشفتهم المصائب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ، فلم يفthem الآ من ارمضه امرهم ، وامضه حاهم ، وأبكي عينه ما ناهم ، وأسهرها ما حلّ بهم ، وهو مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه .

فربما بفضل الله عليه ، واحسانه لديه ، وما عوّده ، وأرجاه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل عقيم ، وعداب اليم ، وان يؤمن من استولى عليه المهل ، ويفرخ روع من لم يزن في خوف ووجل ، واشر اقامة الحج الذي تعطل واهمل العباد ، فرد منه حقوقه لخوف المستوى عليهم ، واذ لا يأمنون على انفسهم ، ولا على اموالهم ، واذ قد اوقع بهم مرة بعد اخرى ، فسفكت دمائهم ، وابتزت اموالهم ، مع اعتقاد ما جرت به عادته من اصلاح الطرقات ، وقطع عبئ العابثين فيها ليطرق الناس آمنين ، ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالاطعمة ، والاقوات اذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، اذ لا زاجر للمعتدين ، ولا دافع للظالمين ، ثم تجديد السكة وصرفها الى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، اذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في امور المسلمين الا اصلاحها ، واستفراغ الوضع فيها يلزمها منها ، وما اعزّ به مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وجسم الظلم ، وقطع العداوان ، ونفي الاذى ، ورفع

الحزن، والقيام في الحق، واعانة المظلوم مع الشفقة، والاحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة، وافتقاد الاحوال، وحياة اهل البلد في ليتهم، ونهارهم، وحين تصرفهم في ابتعاد معاشهم حتى لا تجري امورهم الاَ على ما لَمْ شعثهم، وأقام أودهم، وأصلاح بالهم، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة ولية مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه .

وما امره به مولاه من استقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه باثباتها عليكم وان اجريكم في المواريث على كتاب الله، وسنة نبيه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامُ وَسَلَّمَ) ، وأضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها ، فلا استحقاق لصيرها لبيت المال ، وان اتقدم في رم مساجدكم فتزينها بالغرض والايقاد ، وان اعطي مؤذنيها ، وقومتها ، ومن يوم الناس فيها ارزاقهم ، وأدرها عليهم ، ولا اقطعها عنهم ولا ادفعها الاَ من بيت المال ، لا باحالة على من يقبض عنهم ، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم ايدهم الله ، وأصحابكم اجمعين ، من انكم ذكرتم وجوهَا التمستم ذكرها في كتاب امانك ، فذكرتها اجاية لكم ، وتطميناً لأنفسكم ، فلن يكن لذكرها معنى ، ولا في نشرها فائدة اذ كان الاسلام سنة واحدة ، وشريعة متيبة ، وهي اقامتك على مذهبكم ، وان تركوا على ما كنتم عليه من اداء المفروض في العلم ، والمجتمع عليه في جوامعكم ، ومساجدكم ، وثبتاتكم على ما كان عليه سلف الائمة من الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين بعدهم ، وفقهاء الامصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وان يجري الاذان ، والصلوة ، وصوم شهر رمضان ، وفطرة قيام لياليه ، والزكاة ، والحج ، والجهاد على ما امر الله في كتابه ونصته نبيه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامُ وَسَلَّمَ) في سنته ، وأجرى اهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم عليَّ امان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الايام ، وكرور الاعوام في انفسكم ، وأموالكم ، وأهليكم ، ونعمكم ،

وضياعكم ، ورباعكم ، وقليلكم ، وكثيركم ، وعلى ان لا يعترض عليكم معارض ، ولا يتتجّى عليكم متجمي ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى انكم تصانون ، وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلا يتعرض الى اذاك ، ولا يسارع احد في الاعتداء عليكم ، ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم ، وعلى ان لا ازال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ويصل اليكم خبره ، وتتعرفون ببركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه .

ولكم عليَ الوفاء بما التزمته ، واعطيتكم اياه ، عهد الله ، وغليظ ميثاقه ، وذمة انبائه ورسله ، وذمة الامة موالينا امراء المؤمنين قدس الله ارواحهم ، وذمة مولانا امير المؤمنين - المعز لدين اليه - صلوات الله عليه فتصرخون بها ، وتعلنون بالاصراف اليها ، وتخرجون اليَ ، وتسلمون عليَ ، وتكونون بين يدي الى ان اعبر الجسر وانزل في المناخ المبارك ، وتحفظون ، وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتشابرون عليها ، وتسارعون الى فروضها ، ولا تخذلون ولیاً مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما امرتم به ... وفقكم الله وأرشدمكم اجمعين .

«جوهر الصقلي»

بعد اذاعة البيان ، وقراءته على اعضاء الوفد ... ادب القائد جوهر لاعضاء الوفد مأدبة غداء تحييناً لأواصر الصداقة ، والودة ، وتأليفاً لقلوب المصريين عامة .

اجل ... لقد ضمن البيان للمصريين تأمين حقوقهم كاملة ، دون تفريق بين جندي ، ومدني ، او مسلم او مسيحي ، وانهى اليهم ان الوفد الذي انتدب للمفاوضة قد قدم شروطاً معقولة ، وانه اي جوهر قد استجاب للمطاليب التي يدخل في نطاقها نشر العدالة والامن ، والسلام ، والطمأنينة . وجاء في البيان بان المعز لدين الله هو صاحب الفكرة بإيفاد جوهر الى

مصر لانقادها من براثن العباسين ، والاخشidiين ، والقرامطة ، الذين غزوا بلاد الشام ما بين سنة ٣٥٣ و سنة ٣٥٧ هـ . وعاثوا فساداً في ارجائها ومنعوا الحجاج من تأدية فروضهم ، ومن الروم ايضاً الذين استولوا على بعض مدن الشام ، وعلى اجزاء من شمالي العراق .

وفي البيان : التزام جوهر بالعهد الذي قطعه على نفسه بتحقيق السياسة الحكيمية ، وترك الحرية الدينية لكافة المصريين بان يمارسوا الطقوس التي يريدونها ، كما تعهد باصلاح ديني شامل ، يقوم على اساس تعمير المساجد واصلاحها ، وترميمها ، وفرشها ... وبذلك اثبت للمصريين بان الفاطميين من صميم الاسلام ، وانهم حريصون على تأدية الشرائع ، واقامة السنن ، من اذان ، وصلوات خمس ، وحج ، وزكاة ، وجهاد .

وفي البيان ايضاً : تعهد باصلاح الشؤون الادارية ، وتأمين الامن ، وقطع ايدي العابثين وال مجرمين ، وقطع الطرق ، والمغامرين ... كما تعهد بضبط العملة ، ونشر العدالة ، واغاثة المظلوم ، وقطع دابر الظالم ، واسعاة الشفقة والرحمة من قبل الدولة .

ولم يصف البيان الوفد من الالتزام ببعض القيود ، كاذاعة البيان على الخاص والعام في مصر ، ومن ثم ضمان عبور الجيش الفاطمي من الجبيرة الى الفسطاط دون ان يتعرض اليه احد ، كما الزمهم بالطاعة والثابرة على الخضوع للانظمة ، وللقوانين .

ومهما يكن من امر... فان البيان كان على قدر كبير من الاعتدال ، وبعد النظر ، ولقد اثبت فيه القائد جوهر بانه من اكابر القواد ، والساسة ، والحكماء .

وعلى الرغم من كل هذا ، فان بعض الجنود من الاخشidiة ، والكافورية اجتمعوا وقرروا المقاومة ، ووضع العراقيل بوجه جوهر ، حتى لا يستولي على مصر بهذه السهولة ، واعتبروا ان دخوله معناه ازالة كل ما بقي لهم من

نفوذ، وذهب مصدر رزقهم، وحياتهم... لهذا عدلوا على الحرب، ورفضوا تنفيذ ما جاء ببيان القائد جوهر.

وعندما ادرك جوهر خطورة الاوضاع والتحركات... اخبر الوفد باسترداد عهده... وبانه اصبح حراً بالعمل وفق ما تقتضيه الظروف... الا ان اعضاء الوفد التمسوا منه العدول عن هذا الرأي.... فاستجاب لطلبهم، وفي الوقت نفسه قرر الوقوف بوجه العصاة، والقضاء عليهم.

وذكر ان اعضاء الوفد، وكان على رأسهم الوزير ابن الفرات، خرجوا من عند جوهر، وهم في حالة مضطربة، فقاموا بظاهرة حماسية اشترك فيها الآلاف من المصريين ضد الاخشidiين والغرباء الذين ساروا في ركبهم.

وتبع جوهر تقدمه، حيث وصل الى الجيزة في الحادي عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ... وكان الاخشidiون يعسكرون في جزيرة الروضة، وعلى شاطئ النيل الشرقي من ناحية الفسطاط.

فقسم جوهر جيشه الى فريقين: وتابع طريقين: وكان همه الاستيلاء على المخاضة الواقعة في منية شلفان شمالي الجيزة.. اذ منها قرر العبور الى الفسطاط... ثم استعان بالسفن المصرية المتواجدة في النيل للعبور... وهذا صادرها وكانت في طريقها من تنيس، ودمياط، واسفل الارض.
وعندما تم له ذلك نادى جعفر بن فلاح فقال له:

لهاذا اليوم ارادك المعز لدين الله يا جعفر... فعبر النهر بعد ان خلع ثيابه، وتبعه المغاربة... وهكذا اوقع العصاة بين فكي كماشة.

وذكر التاريخ:

ان جعفر بن فلاح اوقع بهم، وأجبرهم على التقهر نحو الفسطاط، ولكن جوهر عبر النهر هو ورجاله والتقي بهم، وكانوا قد جاءوا للمرابطة على المخاضة لحراستها... وبعد جولة او جولتين ركعوا الى الفرار،

والخروج الى بلاد الشام ، بعد ان فقد من قوادهم ورؤسائهم عدداً لا يمكن تحديده .

اجل ... لم تدم المعركة سوى ساعة او ساعتين ... وبعدها ارسل جوهر الاعلام الفاطمية مع شرطة المدينة وكان عليها اسم المعز لدين الله ... لtower على الابنية ، والامكنة الرسمية ، كما امر بقمع الاجراس ، علامة استتابب الامن .

وبعد ان تم له كل هذا ارسل الى الشريف ابي جعفر مسلم بن محمد عهداً ثانياً جاء فيه :

«وصل كتاب الشريف الجليل اطال الله بقائه ، وادام عزه وتأييده وعلاه ، وهو المهنأ بما هنأ من الفتح الميمون ... فووقة على ما سأله من اعادة الامان الاول ... وقد اعدته على حاله ، وجعلت الى الشريف ايده الله ان يؤمن كيف رأى ، وكيف احب ، ويزيد على ما كتبته كيف يشاء .. فهو اماني ، وعن اذني ، واذن مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه ... وقد كتبت للوزير ايده الله بالاحتياط على دور الهاريين الى ان يرجعوا الى الطاعة ، ويدخلوا فيها دخلت فيه الجماعة ، ويعمل الشريف ايده الله على لقائي ، يوم الثلاثاء لسبعين عشر تخلو من شعبان .

بعد هذا الانتصار السريع على فلول الاشییدین ... عبر جوهر الجسر المقام على نهر النيل بين الجيزة والفسطاط ، وكان في استقباله على الضفة الثانية الوزير ابن الفرات ، والشريف العلوی ، وسائر الاشراف ، والقضاة ، والعلماء ، وكان جوهر يرتدي حلقة مذهبة ، وهكذا معاونيه من القواد ، والفرسان ... ثم عبرت الجبال المحملة باكياس الذهب ، وظل بسيره حتى وصل الى شمالي مدينة القطائع التي اسسها احمد بن طولون ... وهناك امر باقامة الخيام للجيش ، ثم وضع فيها بعد اساس مدينة القاهرة ، واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الاطلسي غرباً حتى البحر الاحمر شرقاً ، ونافست القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة ، بغداد العباسية ، وقد كان

لتلك المنافسة اثره البعيد في بعث الحضارة الإسلامية .

اجل... ان اخبار الانتصارات وصلت الى المغرب، فعم الفرح جميع البلدان، وكان الناس يرددون قول ابن هانئ الاندلسي :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر وقد جاوز الاسكندرية جوهرٌ تطالعه البشري ويقدمه النصرُ

ومهما يكن من امر فقد توقع المصريون بعد المعركة الاخيرة ان يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة... ولكن جوهر عاد وأعطى عهداً ثانياً كما ذكرنا لأبي جعفر العلوى بان معاملته للمصريين ستكون كما انها معاملة من فتحت بلادهم صلحًا... وهكذا بلياقة، وحسن تصرف تألفت قلوبهم، وظهرت محبتهم، ودانوا له بالطاعة، ورضوا بحكمه، كما انه دلل على حسن نياته باصداره عفواً عن بعض المصريين الذين غرر بهم الاخشidiون . وعاد للمرة الثانية ليؤكد على الجندي عدم اقتراف، اية جريمة مع المواطنين او استعمال العنف مع الشعب الآمن.

ولنترك جوهر الآن في مصر يبني ويعمّر، ويقيم سنن العدالة، ولننتقل الى فلسطين والشام حيث ان اوامر المعز لدين الله تقضي باحتلال هذه الاجزاء المهمة... على ان نعود الى مصر فيما بعد لندرس كل ما يتعلق باعمال جوهر.

في ربوع فلسطين والشام :

ترك جوهر لجعفر بن فلاح امر قيادة الحملة الى فلسطين ، والشام، كما ترك له حرية اختيار المعاونين، وتجهيز جيشه بما يحتاج اليه .

وجعفر بن فلاح ينحدر من اسرة مغربية عريقة ، ومن قبيلة كتمة... رافق جوهر في حربه المغربية، واظهر عن رجولة وعقربية جعلته في نظر

الناس القائد الثاني بعد جوهر وكانت فرقة كتامة في الجيش الفاطمي المغربي تحارب تحت قيادته، وتطيع اوامره، وهذا ما جعل الخليفة المعز لدين الله يشركه بالفتح ويترك اليه امر فتح فلسطين، وبلاد الشام، لأن كتامة هذه القبيلة التي انضمت تحت امرة الفاطميين منذ عهد عبد الله المهدي لم يكن من الوفاء ابعادها عن الفتح منها بدر من افرادها من تصرفات غير انسانية، وكان المعز لدين الله يعتقد بان جعفر بن فلاح هو الوحيد الذي يستطيع قيادتها وضبط امورها، مضافاً الى ذلك ان جوهر الصقلي لم يعهد اليه مهمه فتح فلسطين، وبلاد الشام الا بعد ان خبر شجاعته، وحسن قيادته، ومرؤونه باساليب القتال، وببعد نظره بافتتاح البلدان، وسياسة الشعوب، ولكن مصادر تاريخية عديدة ذكرت : بان جوهر عندما اختاره لقيادة تلك الحملة كان يتوكى ابعاد القائد المنافس من امامه، وتوريطه في بلاد عسيرة المسالك ، معقدة الاحوال، عرفت بتعصبيها وكرهها للفاطميين، مضافاً الى كل ذلك خوفه من منافسته على القيادة العليا في مصر... لأن جعفر كان يقول: للمقاربين اليه بأنه افضل من جوهر واحق منه لقيادة العامة، والنيابة على مصر ... وكان يرى نفسه انه امير وابن امير ... بينما يقول عن جوهر: بأنه عبد وابن عبد .

ومهما يكن من امر... فان فلسطين، وبلاد الشام كانت ائذٍ خاضعة لحكم الاسرة الاخشيدية .. وعندما علم الحسن بن عبد الله بن طxygen الاخشیدی والی الرملة، ودمشق بخبر الحملة العسكرية الفاطمية المولجة بفتح فلسطين والشام استخلف «شمول الاخشیدی» على دمشق، وسار بنفسه الى الرملة على رأس جيش كبير للاقاءة جعفر بن فلاح، ولكن شمول لم يكن مخلصاً للحسن، فكاتب جعفر سراً ودعاه الى الالسراع بالقدوم الى دمشق مع الوعد بأنه سيفتح له ابوابها... وقد صدق بوعده عندما تقاус عن امداد الحسن بالمعونات عندما اشتربكت جيوشه بالقتال مع الجيش الفاطمي .

واخيراً :

وصل جعفر الى بلاد فلسطين، وانخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار، ويتقدم من نقطة الى نقطة... وفي كل مرة يتقدم فيها يكتب الى حكام المدن، ورؤساء القبائل يدعوهם الى طاعة المعز لدين الله ويعدهم بحسن المكافأة... ولكن الحسن الاخشيدى قاوم هذه الدعوات، ورفض الا التصدى لجعفر، وجيشه فدارت الدائرة عليه بعد عدة معارك في الرملة، وفي خاتمة المطاف وقع في الاسر مع العديد من قواه، وجنوده.... فأرسل الى الفسطاط بمصر، وسجن فيها، ثم ارسل اخيراً الى المغرب حيث ظل هناك حتى وفاته سنة ٣٧١ هـ.

وبعد ان تم لجعفر تصفية الأمر مع الحسن بن طهج تابع زحفه، فوصل الى طبرية، وكان عليها فاتك غلام كافور... فحاول المقاومة، ولما عجز لجأ الى الاعتصام... ولكن جعفر بنى برجاً وتمكن من خلاله من دخول المدينة، والقبض على فاتك، ومحاكمته، ثم قتله اخيراً.

ومن الجدير بالذكر: انه بعد هذه المعركة استسلمت كافة القوى المحاربة في بلاد فلسطين واعتبرت هذه المنطقة الواسعة من ممتلكات الدولة الفاطمية... الا ان القبائل العربية كبني عقيل وبني فراة، وبني مرة وسواهم عادوا من جديد الى الانتفاض، فهبوا لمقاومة الزحف ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود طويلاً، لأن جعفر تمكن من تفريقهم، ومنع اجتماعهم، وضررهم ببعضهم البعض، حينما تقرب الى الفزاريين، وبني مرة، واتخذهم الى جانبه ضد العقيليين... وكل هذا احبط مساعيهم وسهل على جعفر التقدم نحو دمشق ولكن العقيليين لم يتوقفوا بل استطاعوا الوصول الى دمشق، واغراء اهلها، والبقية الباقية من جنود الاخشيديين، فتجمعوا وتصدوا لجعفر بن فلاح. وهنا وقعت معارك طاحنة قتل فيها الكثير من الفريقين... واخيراً انتهت بانتصار جعفر وبمواصلة الزحف حتى ضواحي دمشق.

... لم يكن القائد جعفر بن فلاح صارماً مع جنده مثل جوهر...

والسبب لأن هؤلاء الجنود كانوا من قبيلة كتامة، ولهذا نراه يترك لهم الحرية بالتصرف، والتعدي على كرام الناس، والعبث بالأمن، والمعاملة السيئة، واعطاء فكرة عاطلة عن الجيش الفاطمي، وقد تجلى كل هذا عندما أرسل أهل دمشق وفداً عنهم إلى طبرية لفاوضة القائد جعفر، والاتفاق معه على شروط الصلح، والاستسلام... فهذا الوفد تعرض بعد خروجه إلى أسوأ معاملة من الجندي الذين سلبوهم كل ما يحملون من أموال، وثياب... وعندما عاد الوفد إلى دمشق عمّ الخبر أنحاء المدينة، مما أثار النفوس وولد الغضب، والحدق، والنقمـة... وتكررت التعديات، والتتجاوزات في ضواحي دمشق حينما كان الجنود المغاربة يدخلون على البيوت الآمنة، لعيثوا فيها فساداً، وينهبو الناس، وكل هذا جعل خطباء المساجد في دمشق يعلنون من على المنابر للناس هذه الواقع، مع التصميم على الدفاع عن أنفسهم، ومقاومة الغزو حتى النفس الأخير.

ولم تعرف الأسباب التي منعت جعفر - وهو القائد المحنك - من السكوت على هذه الفضائح، والاختفاء في حين أنه رافق جوهر الصقلي، ورأى كيف كان موقفه من أهالي مصر، والمغربثناء فتوحاته، وكيف كان يغمر الأهلين باحسانه، وعطافه، وينبع جنده من الائمة لهم، وعدم تعرضهم لأي أذى.

كل هذه أسباب جعلت جعفر بن فلاح في موقف حرج لا يدرى ماذا عليه أن يفعل؟ فأهالي دمشق جاءوا إليه أكثر من مرة مرحبيـن، يريدون الدخول في طاعته، فلم يأبه لهم، وحينما يخرجون كان جنده يلحقون بهم ويسئون معاملتهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد... فهذه الاحوال ادت في النهاية إلى فرار عدد من زعماء البلاد، وأهل الخل والربط فيها، كظالم بن موهوب العقيلي، وغيره من زعماء الاخشيديين، والكافوريين، وإلى اعتقال الكثير منهم، حتى ان بعضهم علق جثته على ابواب المدينة، وقد عزا بعض

المؤرخين هذه التصرفات من قبل جعفر، الى فقدان التوازن وسوء الادارة والسياسة، او ربما كانت نشوة الظفر قد اعمت بصره، وحجبت الحقائق عنه.

اجل... لقد تمكّن سنة ٣٥٩ هـ. من اعلان الخطبة على منابر دمشق باسم المعز لدين الله، بدلاً من المطیع العباسی، فكان هذا ایذاً بزوال نفوذ العباسین عن ديار الشام، وتجلى كل ذلك حينما اتخذ جعفر من دمشق قاعدة لقيادته يوجه منها ضرباته للروم، ولفلول العباسین، والمعاطفين معهم. ويبدو ان جعفر بعد ان تم له كل ذلك اراد ان يبرز اسمه كما يرز اسم جوهر الصقلي، بل اراد ان يحقق انتصارات يكون لها صدى واسع في اوساط المعز لدين الله، تفوق انتصارات جوهر.. ففتح بلاد الشام، وفلسطين لم يكن يروي غليله، او يوقف طموحه، بل تاقت نفسه الى التصدي للروم، واستخلاص انتهاکة وما يجاورها منهم، وبالفعل ارسل جيشه وترك دمشق وما يجاورها في قبضة ايدي قلة من الجند، وكأنه لم يكن يدرى ما تخبئه له القدر... اجل... لقد فاته اختيار الوقت المناسب، ولعب الغرور، والغطرسة، والانانية برأسه حتى افقده الصواب... لقد نسي الثورات، والانتفاضات التي كانت تنبئ من حين لآخر في وجه الجيوش الفاطمية في ديار الشام، ونسي ما اعده القرامطة بقيادة الحسن الاعصم له، بعد ان قطع عنهم الديمة المقررة على اهالي دمشق وقدرها ثلاثة الاف دينار، ونسي المكائد العباسية، والاموال التي كانوا يبذلونها للقوى المعارضة للقيام بالثورات، والانتفاضات، وهكذا بالنسبة للحمدانيين، وللبويهيين، كما انه نسي ان جيوشهم اضرموا النار مرة في اسوق دمشق ومنازلها، وتحولوا العديد من احيائها الى رماد، وعلى اثر ذلك فرَّ الكثير من رجالاتها، وقتل، وسجن بعضهم... وكيف ينسى اهل دمشق قوله لهم مرة:

بانه لا يقبل رجاءهم الا بعد ان يخرجوا اليه، ومعهم نسائهم

مكشوفات الشعور، فيتمرغن في التراب بين يديه، وذلك تكفيراً لهم عن قتل العديد من جنود المغاربة.

وكيف ينسى اهل دمشق القبض على رؤسائهم امثال: اسحاق بن عصودا، وغيره... ومن ثم فرار محمد بن عصودا، وابو القاسم بن ابي يعلى العباسى الذي قبض عليه جعفر قرب بلدة تدمر بينما كان في طريقه الى بغداد... وهذا الاخير ارسله جعفر الى مصر، بعد ان وعده بالافراج.

وذكر التاريخ:

انه سأله: ما الذي حملك على ما صنعت، ومن ندبك الى ذلك؟ فقال:
ما حدثني به احد، وانا هو امر مقدر... فرق له جعفر. ووعده
بالسعى للافراج عنه لانه من الهاشميين.

وأخيراً:

تم لجعفر السيطرة على بلاد الشام وفلسطين، بالقوة، والاكراه، ولكن هذه السيطرة لم يكن مقدراً لها الاستمرار طويلاً، لأن الاخطاء العسكرية، والسياسية التي ارتكبت اكثراً من ان تمحى، وأوضاع بلاد الشام تختلف جداً عن اوضاع مصر.

ان جعفر بن فلاخ لم يكن يملك القدرة التامة للتصرف كقائد ميدان يأمر وينهي، فجيشه الذي كان اكثراً من الكتاميين كان يعتبره اميرًا وسيداً وليس قائداً لهذا فان الفوضى سادت صفوفه، واصبح الصغير لا يطيع الكبير كما ان الكبير لم يكن يملك القدرات لردع الصغير عن ارتكاب الجرائم.

ان اول خطيئة ارتكبها في بلاد الشام هي:
اساحة المجال لأفراد جيشه بالاسعة الى الناس، وامتهان حقوقهم،
والتعدي على الآمنين، مما جعل الناس يفقدون كل امل، وينظرون للجيش الفاطمي نظرة تقوم على العداوة، والخذل، كقولهم: انه ما جاء الا لينتقم

من اهل دمشق ، ويسمونهم ضروب الاذى والاذلال .

والخطيئة الثانية هي : قطعه المعونة التي كان يدفعها اهل دمشق للقراطمة ، ومقدارها ثلاثة الاف دينار ، فلو انه لم يتعرض لهذه المعونة لظل القراطمة بعيدين عنه ، ولما فكر الحسن الاعصم بالزحف على الشام ، ثم على القاهرة فيما بعد .

والخطيئة الثالثة : ارسال الجيش الفاطمي الى انطاكيه للوقوف بوجه الروم ، في وقت لم يكن هذا من برنامجه ، ولا مطلوباً منه فالروم كانوا في حرب مع العباسيين ، ومع الحمدانيين ، وكان على هؤلاء ان يتصدوا وحدهم لهم ، بينما كان على ابن فلاح ان يرجيء كل صدام معهم الى وقت اخر ، والى حين تصفوله الايام .

ومهما يكن من امر ... فهذا القائد السيء الحظ ، والمطيب القلب ، قدر له ان يقتل في دمشق بعد ان خاض سلسلة من المعارك ، خاصتها ببسالة ورجولة ادهشت الكثيرين حتى قيل انه من اقدر القواد وابرعهم في الساحات والميادين .

وأخيراً :

دام حكم جعفر بن فلاح للبلاد الشامية عامين تقريباً اي من سنة ٣٥٨ الى سنة ٣٦٠ هـ . ففي عام ٣٦٠ هـ ذهب الحسن الاعصم زعيم القراطمة الى بغداد بعد وصول الانباء اليه عن الانتصارات التي حققها جعفر ، وعن تعمده قطع المعونة السنوية التي كان يدفعها اليه الدمشقيون ، فعرض على المطيب العباسي فكرة الهجوم على بلاد الشام ، وفلسطين ، واستخلاصهما من الفاطميين ، ثم الزحف بعد ذلك الى مصر ، على شروط اهمها : ان تبقى هذه البلدان تحت سيطرته وحكمه باسم العباسيين .

والحقيقة :

فإن العباسيين قبلوا الفكرة ، وأمدوا الاعصم بالاموال ، والسلاح ،

والعتاد، حتى ان عز الدولة بختار وضع تحت سيطرة الاعصم الف الف درهم والالف جوشن، والالف سيف، والالف رمح، والالف قوس، والالف جubaة. كما ان الحمدانيين تعاونوا مع القرامطة وايدوهم، وجندوا لهم الاخشidiين، والكافوريين، وكانوا قد لجأوا الى ديارهم. مضافاً الى ذلك ان القبائل انضوت ايضاً تحت لواء الاعصم، وحملت شعار الحرب ضد الفاطميين.

وهكذا تأليب السنّيون، والشيعة لبيهبون، والحمدانيون، وجندوا انفسهم، ووضعوا امكانياتهم تحت تصرف الاعصم... فالعباسيون كانوا يخشون على ملكهم، وقد اقضى مضاجعهم الاحتلال مصر والشام وفلسطين بحيث اصبحت جيوش الفاطميين على مقربة من حدودهم، والبوهبيون خافوا على نفوذهم من الضياع اذا ما حل الفاطميون محل العباسيين في بغداد، كما خشي الحمدانيون على امارتهم من السقوط في ايدي الفاطميين.

لم يتوقف الحسن الاعصم لحظة واحدة بعد ان تم له تجهيز جيشه، فزحف بسرعة باتجاه دمشق، ووصوله الى مقربة منها كان مفاجأة لجعفر بن فلاح الذي لم يكن يملك اية معلومات عنها يدبر لها بالخفاء، والا لما كان ارسل خيرة جيشه، وقاده الى انطاكيّة... ومن الجدير بالذكر انه بالرغم من كل هذا استهان بقوة القرامطة، واعتقد بان هذه القوة الصغيرة كافية للتصدي لهم، وايقاف زحفهم.. وعلى نهر يزيد، وفي موقع «الدكة» تواجه الجيشان، ولم تلبث ان حلت المعركة بجعفر وجيشه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ. فالقرامطة كانوا في حربهم يعتمدون على عنصر المفاجأة او ما يسمى بالحرب الانتحارية. ولكن هناك مصادر ذكرت:

بان جعفر بن فلاح كان مريضاً عندما خاض المعركة مع القرامطة، وهذا ما جعله يخطيء التقدير والحساب فسقط ضحية سوء التقدير، ولم ينفعه استدعاء جيشه من انطاكيّة بعد فوات الأوان، فهذا الجيش لم يتمكن من انقاذ قائد من المصير المحتوم في الوقت المناسب.

وذكرت بعض المصادر:

ان العلاقات كانت سيئة، وربما مقطوعة بين جعفر بن فلاح، وجوهر الصقلي، فجوهر كما ذكر تقاوم عن ارسال الامدادات لجيش الفاطميين في الشام في الوقت المناسب، والاسباب ان جعفر لم يأخذ برأي جوهر، ولم يستشره عندما ارسل الجيش الفاطمي الى انتاكية، وقد تجل كل هذا عندما ارسل جعفر كتابه المشهور الى المعز لدين الله للمغرب يخبره فيه بما تم على يديه من فتوحات وانتصارات في فلسطين، وببلاد الشام، ولكن المعز لدين الله غضب، وأرجع الكتاب دون ان يقرأه وكتب اليه:

«قد اخطأك الرأي لنفسك، ونحن انفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب اليه، فما وصل منك على يده قرأناه، ولا تتتجاوزه بعد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذي اردته، وان كنت اهله عندنا، ولكننا لا نستفسد جوهرًا مع طاعته لنا».

وما يجب ان يذكر ان محمد بن عصودا عثر على جثة جعفر بن فلاح ملقاة في ضواحي دمشق، فقطع رأسه، وصلبه على حائط داره انتقاماً لأخيه اسحق، الذي قتل وصلب بأمر من جعفر.

وهكذا انتهت حياة هذا القائد الكبير الذي نشر سلطان الفاطميين في فلسطين وديار الشام، بعد ان انتزعها من الاخشidiين، وأذل زعماء الثورات التي قامت بوجهه، وذهب به الطموح الى حد التصدي لقوى الامبراطورية البيزنطية الكبرى .

اجل .. انتهت حياة القائد الذي لم تستطع الجيوش الجباره هزيمته في المغرب، ومصر، وفلسطين، والشام، وذهب ضحية سوء التدبير ، والاستهانة بالأمور، والتباكي بالنفس .

اما القرامطة فلم يتوقفوا عند هذا الحد، بل استولوا على دمشق ، وشمال الشام، ثم جنوبها ومنها تابعوا الزحف في قلب فلسطين دونما مقاومة حتى

وصلوا الى الرملة، وكان عليها «سعادة بن حيـان» فلما ادرك ان لا قدرة له على الصمود، فرّ الى يافا ، واعتصم فيها فلحقه الاعصم ، وطوقه ، وترك على رأس الجيش قائده ابا المنجا ، وظالم بن موهوب العقيلي . ولم يكتف الاعصم بكل هذا بل جعل الخطبة على المنابر باسم الخليفة العباسـي المطيع ، ورفع الاعلام السود شعار العـباسـيين ، كما نقش اسم المطيع على اعلام الجيش .

والآن:

لنترك الاعصم يتأنـب لغزو مصر ، ولننـرج على القرامطة ، حيث نتحدث في هذا الفصل بايجاز عن الصراع بينـهم ، وبينـالفاطـمـيين ، وأسبابـه .

بينـالفاطـمـيين والقرامـطة:

بعد ان قضى العـباسـيون على ثورة القرامـطة الاولـى التي كانت تتألف من قرامـطة السـوـاد والـعـراـق ، والـشـام بـقيـادـة «آل زـكـروـية» ... تلكـالثـورـةـ المـجـنـونـةـ التي خـرـجـتـ عـلـىـ القـوـاعـدـ ، وـالـاعـرـافـ ، وـالـسـنـ ، وـالـقـوـانـينـ ، وـأـجـرـتـ الدـمـاءـ وـخـرـبـتـ المـدـنـ ، وـأـشـاعـتـ الـقـلـقـ ، وـقـتـلـتـ الـأـبـرـيـاءـ . وـكـنـاـ ذـكـرـنـاـ انـهـ قـامـتـ بـادـىـءـ ذـيـ بدـءـ ضدـ عـيـدـ اللهـ المـهـدـيـ ، وـاضـطـرـتـهـ إـلـىـ مـغـادـرـةـ وـطـنـهـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ ، ثـمـ جاءـتـ إـلـىـ «ـسـلـمـيـةـ - سـوـرـيـةـ»ـ فأـطـاحـاتـ باـسـرـتـهـ الـفـاطـمـيـةـ ، وـلـمـ تـرـكـ شـيـئـاـ إـلـاـ وـهـدـمـتـهـ .

انـهـذـهـ الثـورـةـ لمـ يـقـدـرـ لهاـ الـاسـتـمـارـ طـوـيـلاـ لـانـهاـ قـامـتـ عـلـىـ العنـفـ ، وـارـتكـابـ الـاعـمـالـ الـوـحـشـيـةـ ، وـالـدـمـاءـ وـدـوـنـ ايـ تـخـطـيـطـ ، اوـ منـهـاجـ مـدـرـوسـ . وـبـعـدـ انـ كـادـ الزـمـنـ يـعـيـيـ منـ الـاـذـهـانـ ذـكـرـيـ تلكـ الثـورـةـ الـعـنـيفـةـ قـامـتـ ثـورـةـ قـرمـطـيـةـ اـخـرىـ فيـ بـلـادـ الـبـحـرـيـنـ ، فـلـعـبـتـ دـوـرـاـ بـارـزاـ عـلـىـ مـسـرـحـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ ، وـفـيـ الـبـلـادـ اـلـاسـلـامـيـةـ ، وـلـكـنـ اـعـمـالـهاـ كـانـتـ اـكـثـرـ تـنـظـيـمـاـ وـتـرـكـيـزاـ مـنـ الثـورـةـ الـاـولـىـ .

لقد كان يتزعم هذه الثورة اسرة «آل الجنابي» البحرينية، وهذه الاسرة لم تلبث ان انقسمت على نفسها... فكان فريق منها يؤيد الفاطميين، ويأتمر بأوامرهم، وفريق آخر يطمع بالزعامة، ولكنه يتبع الاستقلالية بالعمل، وعدم التقيد بأوامر احد، وهذا الفريق تسلم القيادة العامة للقراطمة، وامام التدخل الفاطمي في شؤونه وتأليب الفريق المعارض، كان لا بد له من اللجوء الى العباسين متخدلاً منهم اداة لنصرته... وهكذا استمرت المنازعات بين الاسرة الواحدة على الرعامة وقتاً طويلاً.

اجل... لقد كان ابا سعيد الجنابي سنة ٣٠١ هـ. هو رأس الاسرة، وذلك في عهد الخليفتين الفاطميين الاول والثاني عبيد الله المهدي، والقائم بأمر الله، ولكنه لم يكن موالياً لعبيد الله، وذكر انه قتل في ظروف غامضة، كها حيل بين ابنه سعيد، والقيادة العامة، فعيّن عبيد الله ابا طاهر الجنابي وذلك سنة ٣٠٥ هـ. فكان له اطوع من بنائه وقد ظل على اخلاصه للمهدي ومن ثم للقائم حتى وفاته سنة ٣٣٢ هـ.

وبعد موته قام الفريق المعارض وطالب بالحكم على اعتبار ان ابا طاهر لم يترك من الارادات من يصلح للقيادة فابنه سابور كان طفلاً، وهذا تدخل القائم بأمر الله بالأمر وتمكن من اصلاح ذات البين بأن عين احمد بن ابي سعيد، وهو شقيق سعيد الذي كان قد نحي عن الحكم. ثم جعل سابور بن ابي طاهر ولیاً للعهد.

وهكذا انقسم القراءة الى فريقين: فريق ابناء ابي طاهر، ومعهم عدد كبير من وجوهه، وأعيان القراءة وفريق ابناء ابي سعيد ومن انضم اليهم من الاتباع، وسارت الامور فترة طويلة على هذا الوضع.
وأخيراً:

شعر ولی العهد سابور بان عمه احمد بن سعيد قد استأثر بالحكم دونه، وانه اخذ يتصرف بالأمور دون ان يأخذ رأي ابناء ابي طاهر، وقد تجلى

كل هذا باستاده قيادة الجيوش القرمطية الى ولده الحسن بن احمد الملقب «الاعصم» وهو الذي حقق انتصارات مبدئية في عمان وطبرية وغيرها. ولكن كل هذا لم يمنع قيام جماعة سابور بالمطالبة بحقهم من الحكم. ووصل بهم الامر الى حد عزل احمد بن سعيد سنة ٣٥٨ هـ. ولكن سابور لم يلبث ان اغتيل ... وعاد احمد بن ابي سعيد الى الحكم من جديد، وتمكن بعد مقتل سابور من نفي اخوته وأشياعه الى جزيرة «وال» بالخليج الفارسي.

وهكذا خسر الفاطميون اتباعهم، واصبحت القرامطة تدين بالطاعة للفريق المستقل الذي اظهر ميلاً للعباسيين انتقاماً من مواقف الفاطميين المعادية.

وفي سنة ٣٥٩ هـ. مات احمد بن سعيد، فتولى القيادة بعده، ولده الحسن «الاعصم» فحكم من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٦٧ هـ. وكثرت وقائعه وحروبه، ومن المعروف انه عمل على استئصال شافة ابناء ابي طاهر، واستقل بالأمر، واصبح القرامطة في عهده سادة على البلاد الممتدة على شاطئ الخليج الفارسي الغربي من عمان حتى مصب نهر دجلة والفرات، بالإضافة الى الصحراء، كما اصبحوا سادة على بلاد الشام، وفلسطين، واصبح حكام الاخشidiين في الشام يدفعون لهم الجزية.

الأعصم يدق ابواب القاهرة:

ركز الحسن الاعصم القرمطي هجومه على مصر من الناحية الشرقية، بعد ان دانت له اكثر مدن الشام وفلسطين ... فاستولى على «الفرما» وهي مفتاح الديار المصرية، ثم هاجم «القلزم» وهي «السويس» واستولى عليها، وأسر عاملها عبد العزيز بن يوسف، كما نهب كل ما كان فيها من خيل وابل وأموال، وأرザق. وقد كان من اثر هذا الهجوم ان اعترفت بعض المدن المصرية والقرى بسلطان القرامطة كما ثارت «تنيس» على

واليها الفاطمي ، واعترفت بالسلطة القرمطية ... وهكذا اخذ الاعصم يتقدم دون مقاومة تذكر، حتى حطَّ اخيراً الرحال امام عين شمس « هليوبوليس » ومن هذه النقطة اخذ يطبق خططه ، فأرسل جواسيسه يحملون المناشير ، ويوزعونها في المساجد ، وفيها الحض على الثورة . والعصيان ضد الفاطميين ، مع الانذار باحتلال القاهرة .

وازاء هذه الاحوال ، تحرك جوهر الصقلي للعمل ، واحباط هذا المجمع الكثيف ، فأرسل عيونه لاستقصاء الاخبار ، ولما علم بعدد جيش القرامطة ، حفر خندقاً حول مدينة القاهرة ، واعتصم مع جيشه وراءه وكانت هذه خطة استدراج ، وانهك للجيوش المهاجمة ، ثم خرج بعد ذلك الى خارج الخندق وبدأ القتال ... وقد ظلت الحرب سجالاً بين الفريقين منذ اواخر شهر صفر حتى شهر ربيع الأول من سنة ٣٦١ هـ .

وفي مستهل ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ . التحم القتال بشكل عنيف على باب مدينة القاهرة ، وكان يوم الجمعة فقتل جماعة ، واسر جماعة ، من الفريقين ، وفي يوم السبت استئنف ، القتال ، وكانت متكافئين . وفي نهار الاحد دفع الاعصم بجميع عساكره للميدان ، واراد اقتحام الخندق ، وكان الباب مغلقاً ... ولما زالت الشمس فتح جوهر الباب ، فاندفع فريق كبير من جيش القرامطة الى داخل المدينة حيث كان جوهر ، قد اعد لهم الكهائن ... فقتل منهم خلق كثير ، وشعر الاعصم بالخسارة الجسيمة اخيراً مما دفعه الى الهرب ، ولم يتبعه جوهر بل استولى على خيمته ولوازمه وصناديقه وكتبه ... اما الطريق الذي سلكه مع شراذم جيشه الهاربة فكان عن طريق القلزم ومنها الى فلسطين ، ثم الى الشام .

في هذه المعركة الكبيرة استخدم جوهر سلاح الدعاية ... فأرسل فريق الدعاة الى قلب صفوف القرامطة ، فاستطاعوا ايقاظ الفتنة ، والنسمة على الاعصم لخالفته الفاطميين ، واتباعه العباسين ، كما انهم تمكنا من اللعب بافكار القبائل العربية بعد ان دفعوا لبعضهم الاموال ... ومن جهة اخرى

تمكن القائد جوهر من احباط تدابير الجاسوسية القرمطية، فجعلها في موقف الرعب، والارتباك خاصة عندما القى القبض على اربعة من الجنود المصريين كانوا يعملون لمصلحة القرامطة، فأعدمهم، وصلبهم على مرأى من جيش القرامطة، كما انه لاحتياطات كان لابد من سجن الوزير جعفر بن فرات في منزله، وسوق الزعماء والقضاة الى المعسكر وجعلهم تحت نظره حتى نهاية المعركة.

وذكر:

ان المعز لدين الله ارسل في ذلك الوقت الى مصر امدادات بريه، وبحرية لا تخصى، وجعلها بقيادة الحسن بن عمار، كما ان جوهر قبض على كافة الاخشidiين الذين تآمروا مع القرامطة وأعدمهم وكان قد دعاهم الى تناول الطعام على مائته، وحين تم اجتماعهم قبض عليهم وقيدهم، وكانوا الف وثلاثمائة رجل... بعد هذا: ارسل من استرد مدينة الفرما، وقبض على واليها القرمطي «الغمر»، وهكذا فعل بالنسبة لمدينة تنيس وغيرها من المدن التي استسلمت للاعصم.

ولم تقف جهود جوهر عند هذا الحد، بل ارسل اسطوله، وعليه الجند... فتمكن من فك الحصار عن يافا وارغم الجيش القرمطي على الفرار نحو دمشق... كما انه اعاد معظم بلاد فلسطين، ولم يبق للقرامطة، وانصارهم سوى مدينة دمشق، وبعض القرى القريبة منها.

اما الاعصم، فلم تطل اقامته في دمشق، بل ذهب الى البحرين ليطفيء هبوب ثورة جديدة آثارها عليه ابناء عممه، وقبل ذهابه استد ولاية دمشق الى ابي المنجا القرمطي، والى ظالم بن موهوب العقيلي الذي ساعدته في هجومه على مصر، ولكن سرعان ما دب التنافس بينهما، وذكر:

انه عند عودة الاعصم من البحرين سنة ٣٦٢ هـ. قبض على ظالم العقيلي، وأهانه... وكان هذا الاجراء بداية تقليل نفوذ القرامطة لدى

القبائل ، والمواطنين في ديار الشام .

اجل ... رجع الاعصم ، ومعه جيش كثيف ، اعده من جديد بالاتفاق مع القوى التي ساعدته بالامس ، وكان غرضه الهجوم على مصر ثانية ، والانتقام من القائد جوهر ... فتقدم في بلاد الشام ، واسترد اكثراً المدن التي فقدها وهكذا بالنسبة لفلسطين ، وعندما بدأ يلوح بالزحف الى مصر ، تقدم بعد ذلك باتخاه الوجه البحري متخدلاً منه مركزاً حربياً ، وما يجب ان يذكر ان الاعصم اعتمد في هذه الحملة على القبائل العربية التي اغراها بالمال ، والوعود العباسية ، والحمدانية .

اما القائد جوهر الصقلي ، ومنذ اليوم الاول لوصول طلائع القرامطة الى بلاد الشام الشمالية ، ارسل الى المعز لدين الله كتاباً يدعوه فيه بالحضور الى مصر ، والمشاركة بحمل المسؤوليات والاعباء ... فجاء المعز على عجل ... وكان اول عمل قام به اقالة جوهر ، وتجريدته من كافة الصلاحيات ، ثم ارسل الى الاعصم هذا الكتاب ، وكان لا يزال في الوجه البحري .. وهذه صورته كما ورد في كتب التاريخ :

من عبد الله ، ووليه ، وخيرته ، وصفيه ... معد ابي تميم ... المعز لدين الله امير المؤمنين وسلامة خير البنين ، ونجيل علي افضل الوصيين .

الى

الحسن بن احمد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأنبياء ، ومسالك الرسل ، والوصياء ، السالف ، والأنف منار صلوات الله علينا ، وعلى آبائنا أولى الأيدي ، والابصار ، في متقدم الدهور ، والأنوار ، وسالف الأزمان ، والاعصار عند قيامهم باحكام الله ، وانتصاراتهم لامر الله .. الابتداء بالاعذار ، والانتهاء بالانذار ، قبل انفاذ القدر في اهل الشقاقي ، والآثار . لتكون الحجة على

من خالف وعصى، والعقوبة على من بين وغوى، حسبما قال جلّ، وعزّ:
«وما كنا معدبين حتى نبعث رسولًا» « وإنْ من امة الاَّ خلا فيها نذير»
وقوله سبحانه: « قل هذه سبلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ،
وسبحان الله ، وما انا من المشركين » وقال: ﴿فَإِنْ آتَيْنَا بَشِّرَاتٍ مِّمَّا
فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تُولُوا فَأَنَا هُمْ فِي شَقَاقٍ﴾ .

اما بعد... ايها الناس... فانا نحمد الله بجميع ماحمد، ونمجده باحسن
ماجده حمداً دائماً، ومجداً عالياً سرمداً، على سبوع نعائمه، وحسن
بلاده، ونبتغي اليه الوسيلة بالتوفيق، والمعونة على طاعته، والتسلية في
نصرته، ونستكفيه ممايله الهوى، والزيغ عن قصد الهدى ونستزيد من اتقام
الصلوات، وافاضة البركات، وطيب التحيات، على اولياته الماضين،
وخلفائه التاليين منا ومن ابائنا الراشدين، المهدىين، المنتخبين، الذين قضوا
بالحق وكانوا به يعدلون.

ايها الناس...!! قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن ابصر فلنفسه، ومن
عمي فعليها، ليذكر من يذكر، وينذر من ابصر واعتبر.

كتابنا هذا من فسطاط مصر، وقد جئناها على قدر مقدور، ووقت
مذكور، فلا نرفع قدماً، ولا نضع قدماً، الا بعلم موضوع، وحكم مجموع،
وأجل معلوم وامر قد سبق، وقضاء قد تحقق.

فلما دخلنا، وقد قدر المرجفون من اهلها ان الرجفة تناهم، والصعقة
تحل بهم، تبادروا، وتعادوا شاردين، وجلووا عن الاهل، والحرم، والأولاد،
والرسوم... وانا لنار الله الموقدة، التي تتطلع على الافتدة، فلم اكشف لهم
خبراً، ولا قصصت لهم اثراً... ولكنني امرت بالنداء، واذنت بالامان،
لكل باد وحاضر، ومنافق، ومشافق، وعاصر ومارق ومعاند، ومسابق،
ومن اظهر صفتته، وابدى سوأته، فاجتمع الموافق، والمخالف، والبائن
والمنافق... فقابلت الولي بالاحسان، والمسيء بالغفران، حتى رجع النائي
والشارد، وتساوى الفريقان واتفق الجمعان، وانبسط القطوب، وزال

الشحوب، جرياً على العادة بالاحسان، والصفح، والامتنان، والرأفة والغفران، فتكاثرت الخيرات، وانتشرت البركات كل ذلك بقدرة ربانية، وأمرة برهانية. فأقمت الحدود بالبنية، والشهود في العرب والعبيد، والخاص والعام والبادي والحاضر، باحكام الله عز وجل... وأدابه، وحقه، وصوابه.. فالولي آمن جذل، والعدو خائف وجمل.

فاما انت ايها الغادر الخائن، الناكث، البائس عن هدى ابائه واجداده، المنسليخ عن دين اسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنّة، فلم اغفل امرك، ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني اثرك، وانك مني لمنظر ومسمع.. كما قال الله جل وعز: ﴿أَنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرِي﴾ .. ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سُوءٌ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيَّا﴾.

فعرفنا على اي رأي أصلت، وأي طريق سلكت اما كان لك بجدك اي سعيد اسوة، وبعمل اي ظاهر قدوة؟ اما نظرت في كتابهم، وأخبارهم؟ وقرأت وصاياهم، وأشعارهم؟ اكنت غائباً عن ديارهم، وما كان من اثارهم؟ الم تعلم انهم كانوا عبادا لنا اولى بأس شديد، وعزم اكيد وامر رشيد، و فعل حيد؟ يفيض اليهم موادنا، وينشر عليهم بركتاتنا، حتى ظهروا على الاعمال، ودان لهم كل امير ووال، ولقبوا بالسادة، فسادوا منحة منا واسماً من اسمائنا، فعلت اسهامهم، واستعملت هممهم، واشتدد عزمهم، فساروا عليهم وفود الآفاق، وامتدت نجومهم الاحداق وخضعت لهيبتهم الاعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وان يكونوا لبني العباس اصدادا، فعيت الجيوش، وسار اليهم كل خيس، بالرجال المنتخبة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلتقهم جيش الا كروه، ولا رئيس الا اسروه ولا عسكر الا كسروه والماضينا ترميهم، ونصرنا يلحقهم كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَصَرْنَا رَسُولَنَا (وَالَّذِينَ آمَنُوا) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... وَانْ جَنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾... وان حزبنا لهم المنصوروون...).

فلم ينزل ذلك دأبهم، وعين الله ترميهم، الى ان اختار لهم ما اختاروه

من نقلهم من دار الفناء الى دار البقاء، ومن نعيم يزول الى نعيم لا يزول فعاشا محمودين، وانتقلوا مفقودين، الى روح وريحان، وجنت النعم، فطوبى لهم وحسن مآب.

ومع هذا، فما من جزيرة في الارض، ولا اقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون علينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويدذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا. بتصاريف اللغات، واختلاف الألسن وفي كل جزيرة، واقليم رجال منهم يفهون. وعنهم يأخذون. وهو قول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيَبْيَنَ لَهُمْ﴾ وانت عارف بذلك.

فيما اياها الناكث الحاث... ما الذي ارداك، وصدق؟ اشيء شكت فيه، ام امر استربت به؟ ام كنت خلياً من الحكمة، وخارجًا عن الكلمة، فأزالك، وصدقك، وعن السبيل ردك؟ ان هي الا فتنة لكم ومتاع الى حين وام الله لقد كان الأعلى جدك، والارفع لقدرك، والافضل لجذبك، والأوسع لرفدك، والانضر لعودك، والاحسن لعدرك، الكشف عن احوال سلفك، وان خفيت عليك، والقفوا لآثارهم، وان عميت لدريك، لتجري على سنتهم، وتدخل في زمرهم، وتسلك في مذهبهم. اخذاً بامرهم في وقتهم، وزمرهم في عصرهم، فتكون خلف قفا سلفا بجدهم وعزم مؤتلف، وامر غير مختلف. لكن غلب الران على قلبك والصداً على لبك، فأزالك عن الهدى، وأزاغك عن البصيرة، والضياء، وأمالك عن مناهج الأولياء، وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ، وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَابًا﴾.

ثم لم تقنع في انتكاسك، وترديك في ارتكاسك، وارتباك، وانعكاسك،

من خلافك الآباء ومشيك القهقري ، والنكوص على الاعقاب ، والتسمي بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، وعصيائك مولاك ، وجحدوك ولاءك حتى انقلبت على الادباء ، وتحممت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ، ودولة قد طمسـت .. انك لمن الغاوين ، وانك لفـي ضلال مبين . ام ت يريد ان ترد القرون السالفة ، والاشخاص الغابرة ؟ اما قرأت كتاب السفر ، وما فيه من نص ، وخبر ؟ فأين تذهبون ؟ ان هي الا حياتكم الدنيا ، تموتون ، وتظنـون انكم لستم بمعبوثين ؟ قل : بلى وربـي لتبـعـنـ ثم لتبـئـنـ بما عملـتـ ، وذلك على الله يـسـيرـ .

اما علمـتـ ان المطـيعـ آخرـ ولـدـ العـبـاسـ ، وآخرـ المـرـئـسـ فيـ النـاسـ ؟ اما تراهمـ كـأـنـهـ اـعـجـازـ خـلـ خـاوـيـةـ ، فـهـلـ تـرـىـ لـهـ مـنـ باـقـيـةـ ؟ خـتـ وـالـهـ الحـسـابـ ، وـطـوـيـ الـكـتـابـ ، وـعـادـ الـاـمـرـ الـىـ اـهـلـهـ ، وـالـزـمـانـ الـىـ اوـلـهـ ، وـأـزـفـتـ الـآـزـفـةـ وـوـقـعـتـ الـوـاقـعـةـ ، وـقـرـعـتـ الـقـارـعـةـ ، وـطـلـعـتـ الشـمـسـ مـنـ مـغـرـهاـ ، وـالـآـيـةـ مـنـ وـطـنـهاـ ، وـجـيـءـ بـالـمـلـائـكـةـ ، وـالـنـبـيـنـ ، وـخـسـرـ هـنـالـكـ الـمـبـطـلـوـنـ ، هـنـالـكـ الـوـلـاـيـةـ لـلـهـ الـحـقـ وـالـمـلـكـ لـلـهـ الـواـحـدـ الـقـهـارـ ، فـلـهـ الـاـمـرـ مـنـ قـبـلـ ، وـمـنـ بـعـدـ . وـيـوـمـئـذـ يـفـرـحـ الـمـؤـمـنـوـنـ ، بـنـصـرـ اللـهـ يـنـصـرـ مـنـ يـشـاءـ « يومـ تـرـوـنـهـاـ تـذـهـلـ كـلـ مـرـضـعـةـ عـهـاـ اـرـضـعـتـ ، وـتـضـعـ كـلـ ذـاتـ حـمـلـهـاـ : وـتـرـىـ النـاسـ سـكـارـىـ ، وـمـاـ هـمـ بـسـكـارـىـ ، وـلـكـنـ عـذـابـ اللـهـ شـدـيدـ » ... فـقـدـ ضـلـ عـمـلـكـ ، وـخـابـ سـعـيـكـ ، وـطـلـعـ نـحـسـكـ ، وـغـابـ سـعـيـكـ ، حـيـنـ آـثـرـتـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ عـلـيـ الـآـخـرـةـ ، وـمـاـلـ بـكـ الـهـوـيـ ، فـأـزـالـكـ عـنـ الـهـدـىـ ، فـاـنـ تـكـفـرـ اـنـتـ ، وـمـنـ فيـ الـأـرـضـ جـيـعـاًـ فـاـنـ اللـهـ هـوـ الـغـنـيـ الـحـمـيدـ ثـمـ لـمـ يـكـفـكـ ذـلـكـ مـنـ بـلـائـكـ ، وـطـولـ شـقـائـكـ ، حـتـىـ جـعـتـ اـرـجـاسـكـ ، وـانـجـاسـكـ ، وـحـشـدـتـ اوـبـاشـكـ وـاقـلاـسـكـ وـسـرـتـ قـاصـداًـ الـىـ دـمـشـقـ ، وـبـهـ جـعـفـرـ بـنـ فـلـاحـ فـيـ فـتـةـ قـلـيلـةـ مـنـ كـتـامـةـ وـزوـيـلةـ ، فـقـتـلـتـهـ ، وـقـتـلـتـهـمـ جـرـأـةـ عـلـىـ اللـهـ ، وـرـدـاـ لـاـمـرـهـ وـاستـبـحـتـ اـمـواـهـمـ ، وـسـبـتـ نـسـاءـهـمـ ، وـلـيـسـ بـيـنـكـ وـبـيـنـهـمـ ثـرـةـ ، وـلـاـ ثـأـرـ ، وـلـاـ حـقـدـ ، وـلـاـ ضـرـارـ ، فـعـلـ بـنـيـ الـاـصـفـرـ ، وـالـتـرـكـ ، وـالـخـزـرـ ، ثـمـ سـرـتـ اـمـامـكـ ، وـلـمـ تـرـجـعـ ، وـأـقـمـتـ

على كفرك ولم نقلع، حتى اتيت الرملة وفيها سعادة بن حيأن في زمرة قلبية، وفرقة يسيرة، فاعتزل عنك الى يافا، فلم تزل ماكتاً على نكتك، باكراً، وصاجأً وغادياً، ورائحاً، تبعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم كل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد، كانهم ترك، وروم، وخزر، لا ينهاك عن سفك الدماء دين، ولا يردعك عهد ولا يقين. قد استوعب من الردى حيزوك، وانقسم على الشقاء خبطوك. اما كان لك مذكر، وفي بعض افعالك مزدجر؟ او ما كان لك في كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول:
﴿وَمَنْ يُقْتَلُ مَؤْمِنًا مَتَعْمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَعْنُهُ، وَأَعْدَدْ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ...

فحسبك فعلة ها يلقاك يوم ورودك، وحشرك، حين لا مناص، ولا لك من الله خلاص، ولم تستقلها وكيف تستقبلها؟ واني لك مقبلها؟ هيئات... هيئات.. هلك الضالون، وخسر هنالك المبطلون، وقتل الصير، وزال العشير.. ومن بعد ذلك تماديتك في غيك، ومقامتك في بغيك، عداوة لله ولأوليائه، وكفراً لهم، وطغياناً وعمى، وبهتانا. اترال تخسب انك مخلد، ام لأمر الله راد؟ ام يريدون ان يلغوا نور الله بأفواهم، والله مت نوره، ولو كره الكافرون؟ هيئات لا خلود لمذكر، ولا مرد لمقدر، ولا طاف لنور، ولا مفر لمولود، ولا قرار لموعود.

لقد خاب منك الأمل، وحان لك الأجل، فان شئت، فاستعر للتوبة ببابا، وللنقطة جلباباً، فقد بلغ الكتاب اجله، والوالى امله، وقد رفع الله قبضته عن افواه حكمته، ونطق من كان بالامس صامتا، ونهض من كان هناك خائفا. ونحن اشباح فوق الامر، والنفس دون العقل، وأرواح في القدس، نسبة ذاتية، وآيات لدنية، نسمع ونرى، ما كنت تدرى ما الكتاب، ولا الایمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون.

ونحن عارضون ثلاثة خصال، والرابعة اردى لك، واشقى لبالك، وما

احسبي تحصل الا علىها .. فاختر :

اماً قدت نفسك بجعفر بن فلاح، واتباعك بانفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ، ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال ، وكراع ، ومتاع الى آخر حبة ، من عقال ناقة ، وخطام بعير ، وهي اسهل ما يرد عليك . واماً ان تردهم احياء في صورهم ، وأعيانهم ، وأموالهم ، واحوالهم ، ولا سبيل ذلك الى ذلك ولا اقتدار . واماً سرت ومن معك بغير ذمام ، ولا امان ، فاحكم فيك وفيهم بما حكمت ، واجريتم على احدى ثلاث :

اماً قصاص ، واماً من بعد ، واماً فداء ... فعسى ان يكون تمحيصاً لذنبك ، واقالة لعثرتك ، وان ابیت الا فعل اللعين ، فاخراج منها فانك رجمي ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين .. اخرج منها .. فما يكون لك ان تتکبر فيها ، وقيل اخسأوا فيها ، ولا تكلمون ، فما انت الا كشجرة خبيثة اجتشت من فوق الارض ما لها من قرار . فلا ساء تظللك ، ولا ارض تقلك ، ولا ليل ينحيك ، ولا نهار يكتنك ، ولا علم يسترك ولا فتة تنصرك .
قد تقطعت بكم الأسباب . وأعجزكم الذهب ، فأنت كما قال الله عز وجل :

« مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء ، فلا ملجا لكم من الله يومئذ ، ولا منجي منه ، وجندوا الله في طلبك قافية ... فلا تجد في السماء مصعدا ، ولا في الارض مقعدا ، ولا في الارض ، ولا في البحر منهجا ، ولا في الجبال مسلكاً ، ولا في الهواء سلما ، ولا الى مخلوق ملتجأ ... حينئذ يفارقك اصحابك ، ويتخلى عنك احبائك ، ويخذلك اترابك ، فتبقي وحيداً فريدا ، وخائفاً طريدا ، وهائماً شريدا .. قد الجمك العرق ، وكظمك الغلق ، وأسلمنتك ذنبك ، وزدراك خزيك .. كلاً لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر ، ينبا الانسان يومئذ بما قدم وأخر .

« المعزل الدين الله »

وقد رد الاعصم على كتاب المعز لدين الله ، بالقليل من الكلام وهذا جوابه كما ورد :

« وصل كتابك الذي قلْ تحسيله ، وكثير تفصيله ، ونحن سائرون إليك في أثره والسلام

» الحسن بن احمد «

اعتبر المؤرخون كتاب المعز لدين الله الى الحسن الاعصم ، وثيقة تاريخية تصور مراحل الحرب التي دارت بين القرامطة والفااطميين ، وما جرى بين الاعصم ، وجعفر بن فلاح ، وسعادة بن حيّان ، كما يظهر الكتاب العلاقات القديمة بين القرامطة الأولين اجداد الاعصم والفااطميين . مضافاً الى ذلك الى ان الرسالة اعتبرت آية في الدبلوماسية ، لأن المعز لدين الله استطاع ان يجلب اليه العديد من القرامطة الذين كانوا يحاربون ، فنقموا على الاعصم عندما تبين لهم انحرافه عن طاعة الفاطميين وهم أئمة القرامطة ، واتباعه طريق العباسين المعادي لدینهم ، ولهذا ذكر انهم كانوا يفرون من جيشه ، ويتجأون الى الجيش الفاطمي .

ومهما يكن من امر ، فان الاعصم واصل زحفه حتى عين شمس ، فانتشر جيشه في هذه الجهات من نواحي مصر ، وأمر عماله بتحصيل الاموال ، والضرائب من عموم الصعيد . وآخرأ :

هاجم القرامطة القاهرة ، فاخترقوا الخندق ، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام السور الذي بناه جوهر حول المدينة ... وفي تلك الساعات الخامسة تمكّن المعز لدين الله من احداث ثغرة كبيرة في صفوف القرامطة ، فاتفق مع حسان بن جراح الطائي على التظاهر بالهزيمة .. والفرار من الميدان مما يشبط همة القرامطة ، ويجعل الذعر يدب في صفوفهم ... وبالفعل نفذ حسان وعده ، وتقهقر امام الجيش الفاطمي ... لقاء مبلغ كبير من المال ... وكان هذا التدبير مقدمة هزيمة الاعصم .

ان هذه المعركة الرهيبة قادها ببسالة «الأمير عبد الله بن المعز لدين الله» و «علي بن جعفر بن فلاح» لأن جوهر في ذلك الوقت كان مجاهداً، وفي عزلة تامة.

اجل... لقد ضيق الأمير عبد الله الخناق على الاعصم، وأرغمه أخيراً على التقهقر... وذكر ان الاسرى من جيشه فاقت الحد، ولم يكتف الامير عبد الله بذلك، بل لحق بالاعصم مطارداً حتى اذرعات بقرب عمان... وهنالك اسرع بالذهاب الى دمشق، ومنها الى البحرين، يجبر اذيال الخيبة، تاركاً بعض قواد القرامطة في بلاد الشام، وعلى راسهم ابو منجا.... وذكر:

ان الامير عبد الله، وعلي بن جعفر بن فلاح، ابديا من ضروب البسالة، ما تحدثت به الناس في كل مكان..... وفي الشام استعان علي بن جعفر بقبائل طيء، وبظالم بن موهوب العقيلي الذي انضمّ أخيراً إلى الفاطميين، فقبض على أبي منجا القرمي وابنه، وسلمهما إلى القائد الفاطمي، وعلى الأثر استخلف الفاطميون ظالم بن موهوب على دمشق وذلك في شهر رمضان سنة ٣٦٣ هـ.

جوهر امام التاريخ:

ذكرت المصادر التاريخية الفاطمية:

ان المعز الدين الله الفاطمي حزن حزناً عميقاً لدى سماعه خبر مقتل جعفر بن فلاح على الصورة التي ذكرناها... فجعفر بننظره كان من قواد الدولة الفاطمية البارزين الذين اخلصوا، وضحوا بكل غالٍ، ونفيس في سبيل عزتها، ومجدها، وسؤدها. وذكر:

انه عاتب جوهر عندما وصل الى مصر عن تغاضيه، وتقصيره بامداد جعفر بالجنود، والعتاد في حربه، كما انه اخذ عليه اهياه كل ما يتعلق بفلسطين، والشام ابان وجود جعفر بن فلاح، ولم يقنع، المعز لدين الله

بالاعذار التي قدمها جوهر، وظلّ على رأيه القائل، بان تفاصيis جوهر هو الذي ادى هذه المأساة الكبرى وكل هذا جعل المعز لدين الله ينظر الى جوهر نظرة تختلف عن نظراته الاولى .

ولكن لا بد من القول :

بان مقاليد الامور، وكافة الصالحيات في مصر، ظلت بأيدي جوهر الصقلي حتى قدوم المعز لدين الله، وذلك لمدة تزيد على الشهرين ، وعندما استقر، ودرس الأوضاع، قبض على زمام الامور بحزم واستأنر بكلفة الصالحيات، ولم يترك لأحد اي مجال لتخطي الحدود، والصالحيات، وقد ثبت انه سلب جوهر صالحياته، ونفوذه، منذ اليوم الأول، ولكنه ابقاءه الى جانبه يستشيره في كل ما تتطلبه البلاد من اصلاح . ولم يذكر التاريخ، والواقع: ان المعز لدين الله قد حفظ لهذا الفاتح الكبير ما كان له من الايديبيضاء على الدولة الفاطمية، وما قام به من فتوحات، واعمال، وتشييت لدعائم الخلافة الفاطمية في المغرب، ثم صد هجمات القرامطة، والاخشidiين عن مصر . . . تلك الهجمات التي كادت تعصف بالدولة الفتية .

ولكن ثبت ان المعز لدين الله اقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة، والصغرى، وجعله في عزلة تامة عن كل ما من شأنه سياسة الدولة الفاطمية .. اما الاسباب فعديدة . . . وربما كان بعضها مجھولاً حتى الان .

وهكذا نرى جوهر الصقلي ، يتوارى قليلاً قليلاً عن المسرح الفاطمي ، ولم يعد الى الظهور الا في بدء عام سنة ٣٦٦ هـ . حينما تفاقم خطرو افتکين التركي ، والحسن الاعصم القرمطي ، وفي تلك الفترة استعصى على قواد الجيوش الفاطمية ايقاف القوى الجبرارة المهاجمة . . . وكان المعز لدين الله قد توفي سنة ٣٦٥ هـ ، وتسلّم شؤون الخلافة العزيز بالله ، فلجأ العزيز الى جوهر، وولأه قيادة جيوشة ، ولم يكن جوهر في هذه المرحلة اقل اخلاصاً لولاه الجديد من المعز لدين الله .

ومهما يكن من امر... فنحن لا ندري سبب موقف المعز لدين الله من قائدِه جوهر... كما قلنا... ولعل الخليفة الفاطمي سلك معه الطريق الذي سلكه غيره من الملوك، والاختلاف مع عظماء قواهم، من اسسوا الدول، وفتحوا الامصار، وذلك اتقاءً من انتفاضاتهم، وخشيةً على ملکهم منهم... ولن يعوزنا الدليل... فقد قتل ابو جعفر المنصور العباسي قائدِه ابا مسلم الخرساني، وكذلك فعل عبيد الله المهدى الفاطمي بقائدِه، وداعيته ابا عبد الله الشيعي. اما المعز لدين الله فكان احسن حالاً، واكثر رأفة بقائدِه جوهر.

والحقيقة :

فإن جوهر الصقلي لم يكن قائداً عادياً، فالتأريخ افرد له الصفحات الطوال، ووضعه في عداد القواد العالمين الذين يضمون إلى جانب خبرتهم العسكرية معرفة بادارة البلاد، وسياسة الشعوب، و اختيار المعاونين، والاصحاب . وعندما يختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال ، ويذهبون فيهم مذاهب شتى .. يقول بعضهم :

ان الرجل العظيم هو ابن الساعة، ووليد الظروف... تخلقه الايام... وتنشهء الحوادث ، وتهيء له الفرص، ما لم تهيء لغيره ، وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تضمن به على سواه... وليس الرجل العظيم هو الذي يخلق الظروف ، ويرغم الحوادث على السير طوع ارادته ، والمضي في الطريق الذي يشقه لها .

ولا غُرو فقد كان لجوهر الصقلي من المواهب التي طالما املت ارادتها على الايام ، وفرضت رأيها على الحوادث ، وكل هذا جعل منه قائداً موفقاً ، وسياسياً حكيناً... الا ان هذا وحده لا يكفي . فلو لم تتح الظروف لجوهر الاتصال بالمعز لدين الله ، وهو في بلاد المغرب ، ولو لم يحز على اعجابه ، ويوليه ثقته ، وينحه رتبة قيادة جيشه ، كما ظهرت مواهبه النادرة ، وقوّة شكيّمته ، وحكمته بتوطيد اركان الدولة الفاطمية في

المغرب، والشرق.... ويكتفي ان نعلم انه اخضع بلاد المغرب بمجموعها لسلطان الفاطميين في اقل من عام بينما عجز الكثيرون عن ذلك في اعوام عديدة، كما انه فتح مصر في خلال ايام معدودة، بينما عجزت ثلاث حلات عن الوصول الى الفسطاط.. وهكذا تكاثفت ظروف الرجل العقري ، وجاءت معها مواهبه تتعاون لوضع الحجر الاساسي في بناء المجد ، والمستقبل .

ولم تقف ثقة المعز لدين الله عند هذا الحد، بل جعله على رأس الحملة التي وجهها لفتح مصر، ونشر الدعوة الفاطمية في الشرق، بعد ان فشل من سبقه من القواد الفاطميين في هذه المهمة العسيرة .

ومن الجلي الواضح ان حظه في مصر لم يكن اقل منه في بلاد المغرب التي كانت ترزع تحت الفوضى والاضطراب، في كل الدولة العباسية التي كانت تحكمها اسمياً، وتعجز عن ارسال جندي واحد للمساهمة في رد الاعداء المغیرين .

وعلى الرغم من وقوف المعز لدين الله على حقيقة هذه الوضاع، فإنه كان يرى: ان فتحها يحتاج الى جهود، وقيادة حكيمة، وعقل راجح، وبعد نظر، فاختار جوهر، وسلمه القيادة العامة، ولا غرابة في ذلك، فقد سبق له ان خبره كاتباً، وزيراً، وقائداً لجيشه في المغرب... وفي كل هذه المهام كان جوهر عند ظن المعز لدين الله... ثم تم فتح مصر اخيراً على يديه، واتخذها قاعدة، ومنطلقاً للتوسيع، والانتشار عبر فلسطين والشام... ثم بغداد... وعندي تتحقق احلام المعز لدين الله بالوحدة العربية المنشودة، ويكون الفضل بذلك لمهارة جوهر، وحسن سياساته وقيادته ، وتمكنه من اخضاع الظروف الى ارادته .

ان اثار جوهر الصقلي لا تزال حتى يومنا هذا تنطق بعظمة هذا القائد العظيم... كيف لا وهو منشئ القاهرة = المعزية = وهي اعظم قاعدة اسلامية، واقدم منارة للحضارة العربية، او المدنية التي انبسطت انوارها

على الآفاق، فاصبحت منبعاً للمعلوم، والمعارف، وكتبة للفنون، والأداب، ومحط رحال العلماء، والشعراء.

اجل... كان جوهر احسن مثال للحاكم العادل... مجلس للمظلوم بنفسه... يعاقب المسيء، وينصف المظلوم، ويقضى بين الناس بالعدل، ويرد الحقوق الى اصحابها، ويضرب على ايدي المعذبين والعابسين بالامن، ولو كانوا من خاصته، وخلصائه، ويسهر على راحة الشعب، وينحه الحرية المطلقة... ويكتفى ان المعز لدين الله محضه ثقته، وترك له حكم مصر اربعة اعوام، لم يفكر في خلاها بالحضور اليها.

واخيراً:

مات جوهر في القاهرة سنة ٣٨١ هـ، فعاده الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله في مرضه الاخير وقدم اليه خمسة الاف دينار... وهكذا فعل ولي عهده الحاكم بامر الله... وذكر:

انه امر بتکفینه بسبعين ثوباً ما بين موسى، ومثقل بالذهب... ثم صلّى عليه، ودفنه في القرافة الكبرى.

وبموت جوهر طويت صفحة من صفحات البطولة والعظمة، وغاب القائد الذي لم يهزم في معركة، والسياسي المحنك، والعاقل المدرك، والانسان الطيب... الذي لم يبق في مصر رجل الاً ومشي وراءه، ولا شاعر الاً ورثاه، وأشار برجولته، وشخصيته النادرة، وصفاته العالية، الخالدة على مر الاجيال.

الصراع في الشام:

لم تكن هزيمة الحسن الاعصم من مصر سنة ٣٦٣ هـ... نهاية الصراع بين القرامطة والفاتميين، فالرغم من عودة الحسن الاعصم الى البحرين، واستيلاء الفاطميين على بلاد الشام... فان الاخطار عادت من جديد، ولكن هذه المرة من جوانب عديدة... فهناك الروم من جهة، وهناك

افتكتين التركي من جهة اخرى، ومن المعلوم ان افتكتين من قواد الاتراك الذين كانوا في خدمة بني بويه، ثم انه ثار على بختيار بن معز الدولة بعد ان انتصر الدليم على الاتراك، ولكن بختيار استعان عليهم بابن عمده عضد الدولة فحلت الهزيمة بهم، مما اضطر افتكتين الى الذهاب الى الرحبة وكان معه اربعائة محارب، فعاصده الحمدانيون، وأمدوه بكل ما يحتاجه، وزينوا له احتلال بلاد الشام، واستخلاصها من الفاطميين، فتحالف ايضاً مع القرامطة، ومع بعض اهالي بلاد الشام، وخاصة القبائل العربية وكنا ذكرنا: ان المعز لدين الله استغل العداء الذي حدث بين ظالم العقيلي، وابي المنجا القرمطي، ففاوض، ظالم، وعيته على دمشق، وجعل تحت تصرفه جيشاً من اتباعه، ومن المؤيدین للفاطميين ... وعندما قصد دمشق قبض على ابي المنجا وسجنه مع ابنه، واعتبرت دمشق حينئذٍ من ممتلكات الفاطميين، لأن سلطانهم استقر فيها كما استقر في مصر ولم يكتفي المعز لدين الله بذلك، بل ارسل تعزيزات اخرى الى دمشق للبقاء فيها بصورة دائمة، وكانت مهمتها حفظ الامن، واقرار السلام، والضرب على ايدي كل من يبعث بالامن، او يفكر بالخروج على الفاطميين .

ومن الجدير بالذكر: ان المعز لدين الله ارسل في تلك الفترة قائده على ابن جعفر بن فلاح الى دمشق على رأس جيش من المغاربة، وجعل مهمته النعاون مع ظالم العقيلي، ولكن ظالم لم يرض عن هذا التدبير ، لأن اهالي دمشق كانوا لا يزالون يخنقون على الجيش الفاطمي المغربي، اذ لا تزال ماثلة امام اعينهم تصرفاتهم، وسوء ادارتهم وعيشهم، وتعدياتهم .

وتذكر المصادر التاريخية :

انه لم تمض سوى ايام حتى دب الخلاف بين ظالم وعلي بن جعفر... فظللم كان بحكم مرکزه مضطراً للوقوف بوجه جنود المغاربة، ومنعهم من التعديات على السكان ... وتطور الخلاف الى حد نشوب اكثـر من معركة

بين المغاربة والاعراب . وهذه الاعمال كانت مدعاة لغضب القائد العام على ابن جعفر، فأصدر امره باقصاء ظالم، وعيّن مكانه ابن اخته « جيش بن الصمصامة » ولكن بعد شهر من هذا التدبير قامت الثورة من جديد في احياء دمشق .

وعندما علم المعز لدين الله بما وقع ، اصدر امره بتعيين ظالم العقيلي على اقلم بعلبك ، واستعان بريّان الخادم واليه على طرابلس طالباً اليه التوجه الى دمشق ، ومعالجة الموقف ... فجاء الى دمشق وتسلّم شؤونها ، بينما عاد عليّ ابن جعفر الى الرملة ... وهكذا استطاع تهدئة الأمور الى حين .

اما افتکین فقد قام بدور كبير في بلاد الشام استمر من سنة ٣٦٤ حتى سنة ٣٦٧ هـ . اي في اواخر عهد المعز لدين الله ، وأوائل عهد العزيز بالله ... ومن الجدير بالذكر انه تمكّن بدهائه ورجولته ان يكون قوة . وان ينشر نفوذه في بلاد الشام ، متخدًا لنفسه شعار محاربة الفاطميين بالتعاون مع القرامطة ، والحمدانيين .

وذكرت المصادر :

ان ظالم العقيلي ، عاد وتحالف مع عليّ بن جعفر ، وسارت جيوشهما معاً للقاء افتکین عندما زحف باتجاه دمشق عابراً طريق حمص ، وعندما وصل ضواحي المدينة تجند في جيشه كل من يستطيع حمل السلاح من القبائل وخاصة اهالي دمشق ، وكان على رأسهم ابن الماورد ، ولهذا لم يتمكن ظالم وعلي من الصمود طويلاً امامه ، وخاصة بعد ان جاءت اليهما الاوامر بضرورة ترك جبهة الشام ، والعودة الى طرابلس لصد جيوش الروم الغازية .

ان هذا التراجع من قبل الجيش الفاطمي مكّن افتکين من دخول دمشق حيث اقام الخطبة في مساجدها باسم - الطائع العباسي ، ومن دمشق زحف باتجاه بعلبك لاخراج ظالم منها ، وهناك التقى بجيش الروم ، ودخل معه بفاوضات سلمية انتهت الى اتفاق يقضي بالابقاء عليه في دمشق لقاء جزية

كبرى مع المساعدة في احتلال باقي الأجزاء الشامية، وعندما اخبرهم بأنه لا يستطيع الايفاء بتعهدهاته المالية ما دام ابن الماورد في دمشق يقبض على ناصية الامور، وعندئذ هبط الجيش الرومي الى دمشق، وقبض على ابن الماورد، وسلم اليه دمشق.

بعض المصادر تقول :

بان افتکین كانت له ميول فاطمية تظهر احياناً، وتحتفى، ولكنها لم يكن قادراً على اظهارها جليةً خوفاً من قيام انتقاضات، وثورات مضادة، وممّا ذكر ايضاً : انه كان يراسل المعز لدین الله، ويعلن انقياده اليه ، ورغبتة في التعاون معه، فيجيئه المعز لدین الله بضرورة حضوره الى القاهرة للتفاهم ، مع التعهد باعادته مكرماً ، مشرفاً ... ولكن افتکین خاف اخيراً على نفسه من القيام بمثل هذه الخطوة . وفي تلك الاثناء برزت للعيان قوة القرامطة من جديد ، فاتصل بهم افتکین ، وعقد مع الاعصم محالفه عسكرية كان من بنودها محاربة الفاطميين في كل مكان .

ومهما يكن من امر ، فان المعز لدین الله قرر في النهاية الخروج بنفسه الى الشام لمقاضاة افتکین والقرامطة من جهة ، والروم من جهة ثانية ، ولكن الأجل وفاه قبل ان يستطيع تحقيق هذه الامنية .

من الواضح :

ان خطة افتکین كانت تهدف الى الاستيلاء على اجزاء بلاد الشام بأكملها ، وتجند الفاطميين ، وأعدوا قواتهم لقتاله ، وكانت امامهم وخطتهم تتضمن بالخلاص منه ، ولكن الامبراطور البيزنطي يوحنا تزنيكس دخل الى بلاد الشام عن طريق حمص ثم غادرها الى بعلبك ، وارسل انذاره الى دمشق ، وهنا كان لا بد لافتکين من التحرك .. وتذكر بعض المصادر:

بانه كان للروم عميلاً دمشقياً يسمى ابو بكر الزيات فقام بدور الوساطة بين افتکین والروم ، واتفق الطرفان : على ان يكف الروم عن الدخول الى دمشق لقاء قسط من المال مقداره ثلاثون الف دينار .. ومن

المجدير بالذكر ان يوحنا سار بعد ذلك . واستولى على بيروت ، ثم اغار على طرابلس ولكنها استعصت عليه ، ولم يتمكن من دخولها بسبب مرض مفاجئ ، اصابه واضطربه الى العودة الى بلاده .

بعد هذا اتجه افتکین الى صيدا ، واشتبك مع والبها الفاطمي ابن الشيخ وكان قد انضم اليه ظالم العقيلي ، فاستطاعوا الصمود ، ولكن افتکین استعمل اخيراً سلاح الحيلة والدهاء ... فأشاعرهم انه انهزم امامهم ... ولكن ظالم عرف بالمكيدة ، ونصح ابن الشيخ وجنوده بعدم الخروج ، واللحاق به ... ولكنهم لم يصدقوه ، وظنوا بهسوء . فاتبعوا افتکین ، وما زال يستدرجهم حتى عاد اليهم ثانية ، وقاتلهم وقتل منهم ما يقرب من اربعة الاف قتيل ، وأخيراً استولى على صيدا ... بينما فرّ ظالم الى صور ، ومن صيدا اتجه افتکین الى عكا ، ففرض على الفاطميين فيها الحصار ، ولكن ترکها اخيراً بعد ان رأى استحالة اقتحامها ... ومن عكا سار الى طبرية ، فحاصرها ودخلها ، وبعد ذلك عاد الى دمشق عبر حوران بعد ان اخضع كافة البلدان الشامية والفلسطينية اليه .

ان الاحداث الكبرى التي وقعت في الشام ، ازعجت المعز لدين الله ، وهذا ما حمله على اعداد جيش كشف للزحف الى الشام وملاقاة افتکین ، ولكن المرض الاخير فاجأه في منتصف ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ وقضى عليه بالموت ، فخلفه ابنه العزيز بالله الذي اعاد الى جوهر الصقلي اعتباره ، وسلمه القيادة العامة للجبوش الفاطمية ، فزحف الى بلاد الشام ، ولقي من الاهوال ، والمصاعب في حروبها مع افتکین والقراططة ما لا يستطيع كاتب ان يصفه ، وأخيراً حاصر جوهر وجنته في عسقلان فتمكن بجيشه وخطة تحلت فيها البراعة من الافلات ، وانقاد جيشه ، والعودة الى القاهرة ... وهناك اخذ بتجهيز حملة جديدة ، سارت من القاهرة وكان على رأسها الخليفة الفاطمي العزيز بالله ... وفي سهول الرملة ، وبعد سلسلة من المعارك ، فرّ الاعصم بعد ان فقد اكثر قواته ، اما افتکین فوقع اسيراً ،

وسيق الى القاهرة .

وتعتبر هذه المعركة ، آخر محطة في حياة القرامطة ، اذ بعدها انطوت صفحتهم ، وغاب ذكرهم من ساحات القتال ، والميادين ، واسدل الستار على نشاطهم التاريخي والسياسي الى الابد

اعمال جوهر في مصر

١ - الوزارة

لما فتح جوهر الصقلي البلاد المصرية ، اقرَّ الوزير جعفر بن الفرات في منصبه وجعفر ، كما مرَّ معنا كان وزيراً اول في عهد الاخشيديين ... اذ ان جوهر كان في مخاطباته ، ومراسلاتة له تتوج دائمًا بكلمة وزير ... وكان جوهر بحاجة لذلك ، لأن معرفة ابن الفرات بأحوال مصر وسياساتها اجبرته على ان يجعل منه مستشاره الخاص ، ومن جهة اخرى كان يرمي من الابقاء عليه افساح المجال للمغاربة للتدريب على يديه .

ومن جهة ثانية اراد بذلك التأكيد للسنيين بانه لا يقيم وزناً للتفرقة المذهبية ، وانه ليس بقصد التعرض للاديان وان كافة الناس عنده سواسية امام العدل والقانون ، ومصلحة الدولة الفاطمية .

ورأى جوهر انه اذا اقدم على عزل ابن الفرات من منصبه ، وسائل الموظفين السنيين ، واحلال المغاربة الفاطميين الشيعة مكانهم ، فقد تحدث في البلاد اضطرابات عامة تعرقل ادارة الاعمال الحكومية ... ومن جهة ثانية فان الوقت كان لا يزال مبكراً امام المغاربة لاستلام المناصب الادارية الكبرى التي يفترض بمن يتسللها الخبرة ، والادارة والمرونة .

ان هذا التدبير وحده كان حلّاً وسطاً بين الادارتين السنية ، والشيعية ، وعندما قررَ جوهر تعين موظفاً مغربياً الى جانب الموظف المصري ، كان يرمي من وراء ذلك تدريب المغاربة على اعمال الدولة تمهيداً لتسليمهم السلطات فيها بعد ، وكأني به اراد خلق جيل جديد من الموظفين يستطيع

الفااطمیون الاعتماد عليهم في مراحل حیاتهم السیاسیة وهذه السیاستة التي سلکھا جوھر تتجلى فيها عظمته، وبعد نظره، والظاهر انھا صادفت النجاح العمیم في جذب قلوب الرعیة، وكان فيها الضمانات لبقاء المناصب والادارات في منجاۃ من الفساد، والتلاعیب، والاستغلال.

ومما يلفت النظر ان القائد جوھر عمد الى اشراك مرافق مغربي مع الوزیر ابن الفرات، ومهماھ کانت تنحصر بالسیر في رکابه، ايما سار... في غدواته ورجوعاته بحجۃ المحافظة عليه، وفي الوقت ذاته لیكون رتبیاً على ما يقوم به من اتصالات، واجتماعات.

وعندما جاء المعز لدین الله الى مصر، عرض ابن الفرات اوضاعه، وشرح له کيف اصبح مسلوب الصلاحیة، بحیث انه لا يمارس من الوزارة الاَ اسعاها... ثم تقدم اخیراً باستقالته، فحاول المعز لدین الله ان یشنیه عن عزمه، ولكنه رفض، واعتذر ولم یر المعز لدین الله بعد ذلك من قبواھا على شرط ان یبقى في مصر، وقریباً من الخليفة للاستفادة من خبرته، وخدماته، والاستئناس برأيه في الامور الطارئة.

اجل... شعر ابن الفرات بامتحان کرامته، منذ اللحظات الاولى، عندما اغتصب جوھر كافة الصلاحیات من يده، ولكنه لم یکن یتجبراً على اعلان ذلك لأحد... وعندما جاء المعز لدین الله الى مصر رفض ان يستقبله في الاسكندرية، ولكن كبار المصريين نصّحوه، وبينوا له ما تجراه عليه، وعلى الآخرين المصريين هذه العملية من غضب، وأعمال عنف ونقمـة.. فاستجاب الى طلبهم مرغماً، وعلى مضض، واشترك في الاستقبال.

ومن الطریف انه عندما دخل على الخليفة المعز لدین الله... سأله:

احجَّ الوزیر؟

قال: نعم

وزرت قبر الشيختين؟

شغلي عنهم رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ...

كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولی العهد... وكان ولی العهد حاضراً فقال: السلام عليك يا ولی عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته.

هذه القصة تعطي الدليل على ذكاء ابن الفرات، وسرعة خاطره، وخلصه من الشباك في الوقت المناسب..... ومها يكن من امر، وبعد استقالة ابن الفرات سنة ٣٦٣ هـ. أسنده المعز لدین الله وزارة الدولة المدنية والحربية الى يعقوب بن كلس، والى عسلوج بن الحسن المغربي... ومن المفيد ان نذكر:

بأن ابن الفرات ظلَّ في مصر يعيش فيها كرجل له قيمة كبيرة في الاوساط، وقد تمت بينه وبين يعقوب بن كلس صداقة متينة ادت اخيراً الى تزويج الفضل بن جعفر بن الفرات من ابنة يعقوب بن كلس... وكل هذا ساعد على تقوية اواصر الصداقة بين الرجلين بعهد الخليفتين المعز لدین الله ، والعزيز بالله .

اجل... لقد مررت حياة ابن الفرات بمراحل عديدة في مصر... فكان وزيراً اولياً بعهد الاخشيديين ، وزيراً مسلوب الصلاحيات بعهد جوهر... ثم مستشاراً بالاسم بعهد المعز لدین الله... ثم رجلاً عادياً... وعاد اخيراً الى الحياة السياسية من جديد ، وتسلم الوزارة مرتين بعهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، كما شغل وظيفة صاحب الخراج... ومات اخيراً سنة ٣٩١ هـ.

٤ - انظمة الحكم:

وضع جوهر الصقلي للبلاد المصرية نظاماً للحكم يختلف عن النظام الذي كان سائداً في عهد الاخشيديين... ومن المعلوم ان مصر كانت قبل الفتح الفاطمي مقسمة الى ولايات مستقلة ادارياً ومالياً ، ومرتبطة بالقاعدة العامة ،

فلم يشأ ان يحدث تغييرًا كبيراً في التقسيمات الادارية ائماً احدث تعينات جديدة كان لا بد منها... فأسند الحكم الى اشخاص لديهم الخبرة والتجربة، وواكثراً من المصريين، وجعل في كل ولاية من الولايات التابعة للدولة دواوين يقوم على ادارتها موظفوون معاونون للوالى... فكان منهم على سبيل المثال: صاحب الخراج، وصاحب الشرطة، وقاضي القضاة، والمحاسب، وصاحب المظالم... وغيرهم... وكل هؤلاء كان للوالى الحق بالاسراف على اعهالهم، وتقديم التقارير بذلك الى نائب الخليفة جوهر صاحب الصلاحيات بتوزيع المناصب والمسؤوليات في كافة اجزاء الديار المصرية.

ومن الجدير بالذكر ان المعز لدین الله بعد وصوله الى مصر، وافق على هذه التدابير، وأقرَّ الاسس الموضوعة لانظمة الحكم الفاطمي في مصر وكانت كالتالي:

اعتبار مصر منقسمة الى اربعة ولايات، او اربعة اقاليم:

الاولى: ولاية «قوص» او الصعيد، ويحكمها عادة والي مغربي فاطمي يعاونه نائب من اهل مصر.

الثانية: ولاية «الشرقية» وهي الاراضي الواقعة شرقي دمياط... ومن اشهر مدنها قلوب وبليس.

الثالثة: ولاية الغربية، وتشمل البلاد الواقعة بين رشيد، ودمياط من اقصى الشمال، الى اقصى الجنوب، ومن اشهر مدنها منوف، وأبيار، والمحلة الكبرى.

الرابعة: ولاية الاسكندرية، ويضاف اليها البحيرة، ومن اشهر مدنها دمنهور والاسكندرية.

ومما تجدر الاشارة اليه ان كلاً من هذه الولايات الاربعة كانت مستقلة عن الاخرى، ولكنها تتصل اتصالاً مباشراً بالقائد جوهر الذي منح والي

الولاية صلاحية تعين العمال على المدن، والنواحي، والقرى في ولايته مع القيام بكل ما يهم الولاية من النواحي العمرانية، والصحية والزراعية والادارية، دون الرجوع الى الحكومة المركزية .. مضافاً الى ذلك المحافظة على امن المواطنين، وحررتهم، وراحتهم، والضرب على العابثين بالامن، والخارجين على قوانين الدولة .

وكان على القاهرة والـ ، كما كان على الفسطاط والـ آخر... وكانا تابعين ايضاً للحكومة المركزية الا ان رتبة والي القاهرة كانت اعلى من رتبة والي الفسطاط ، بالرغم من انها متساوية في الراتب .

وقدّم جوهر بعد ذلك الولاية الى ما يسمى الكورة ، والكورة هي مثل المديرية اليوم ، وتشمل على مدن وقرى ، ويشرف عليها رئيس الكورة ، ويعد رئيسها بمثابة المدير او المحافظ اليوم ، وله نائب صلاحياته كصلاحيات وكيل المديرية .. اما القرية فكان لها عمداء كما هو اليوم .

واشهر الأكوار في عهد الفاطميين ... الدقهلية ، وجزيرة قويتنا ، والشرقية ، والبحيرة ، والجيزة ، والفيوم ، والاسيوطية .. وغيرها .

وما تجدر الاشارة اليه ... بان كل ما ذكرناه كان مخصصاً لمصر ... اما بلاد النوبة او السودان ، فان جوهر اعتبرها من البلدان التابعة لمصر ... وطبعي انها كانت ترتبط بمصر عندما يكون حاكم مصر قوياً ، وتنفصل عندما يكون ضعيفاً ... وعندما خط جوهر الرحال في مصر كانت بلاد النوبة مستقلة تماماً الاستقلال ، وعلى رأسها ملك مسيحي اسمه « جورج » وكانت المسيحية فيها منتشرة انتشاراً كبيراً فأرسل جوهر الى ملك النوبة كتاباً يطلب اليه الدخول في الاسلام ، او دفع الجزية ، فقبول هذا الطلب بالترحيب ، ولبي الملك جورج الطلب الاخير ، ورضي بدفع الجزية الى الفاطميين ، وظللت علاقة السودان مع مصر الفاطمية علاقة طيبة لا يشوبها اي شائبة ... فلم تصدر عن هذا البلد اية ثورة او اضطراب او عصيان .

ويذكر بعض المؤرخين :

ان العرب القاطنين على ضفاف النيل الازرق قد زاد عددهم في ذلك الوقت حتى انهم استطاعوا ان يبنوا مسجداً في « سوبة » حاضرة المملكة المسيحية ، وتبعد اثنا عشر ميلاً عن مدينة الخرطوم .

وبالنسبة لفلسطين ، وببلاد الشام فقد اعتبرتا أيضاً من ملحقات مصر ، وتقسمت الى ولايتين :

الاولى - في الجنوب وقاعدتها الرملة .

والثانية - في الشمال وقاعدتها دمشق .

وكان والي الشام يملك صلاحية الاشراف على ولاية الرملة ، والمعنى ان والي الرملة كان عليه ان يتلقى اوامرها من والي دمشق .

اما بالنسبة للحججاز ... فان القائد جوهر لم يفكر بارسال اية حملة اليها ... فقد كان للدعاهية الفاطمية اثارها في هذا البلد ، حتى ان الدعاية وصلت الى حد استقطاب جماعة العلوبيين الحسينيين ، وجعلهم من اتباع الدولة الفاطمية ، والعاملين لها ، وهؤلاء تمكنوا في نهاية المطاف من الاستيلاء على مكة المكرمة ، واقامة الخطبة باسم المعز لدين الله ... وهذا الانتصار الذي حققه جوهر قوبل بالترحيب والثناء من قبل المعز لدين الله الذي كان لا يزال في المغرب .

وما يجب ان يذكر :

ان الخطبة ظلت في المدينة ومكة تقام باسم المعز لدين الله حتى وفاته ، وبعد ذلك قطعت ما حدا بالخلفية الفاطمي الخامس العزيز بالله الى ارسال حملة تمكن من محاصرة مكة والمدينة ، وظلت تضيق الحصار على العصابة حتى عادوا ، واعلنوا عن طاعتهم ، وأعادوا الخطبة باسم العزيز بالله ... وكل هذا اعتباراً للدولة الفاطمية على العباسين .

ومهما يكن من امر فان الفاطميين دللوا في مناسبات عديدة على

حرصهم على اقامة الشرائع الاسلامية وتعزيز سنن الاسلام... فكانوا يرسلون في كافة المناسبات الكسوات الى الكعبة، وكانوا يبذلون المساعدات والمعونات الكبيرة للبلاد الحجازية... مما اضفى على اسمائهم هالة من المهيبة، والتقدير، والاحترام. وهذا بعكس العباسين.

٣ - الشرطة:

عندما فتح القائد جوهر مصر، واستقر فيها... اخذ بدراسة شؤون الشرطة فرأى انها منظمة، وموزعة، وقائمة باعهاها ومسئولياتها بكل جد ونشاط لحفظ النظام، واستتاباب الامن والقبض على الجناة والفارين من وجه العدالة، وتنفيذ اوامر القضاة والمسؤولين.

ومن الجدير بالذكر: ان شرطة مصر كانت في ذلك الوقت مقسمة الى فرعين رئيسيين:

الأول: فرع شرطة الفسطاط او السفلى.

الثاني: فرع العسكر والقطاع العلية. ويقع شمالي الفسطاط.

فكان كل واحد من هذين الفرعين مستقلًّا عن الآخر. وكان صاحب الشرطة السفلى ينوب عن امير مصر اذا غاب عن الفسطاط، حتى كثيراً ما كانوا يطلقون على هذه المنظمة اسم خلافة الفسطاط كما ان صاحب الشرطة السفلى والعلية كثيراً ما يصليان بالناس، ويتوليلان اعطيات الجندي مضافاً الى اعمال وصلاحيات اخرى، مما يعطي الدليل على سمو هذا المركز، وعلو قدره.

ولم يشأ جوهر ان يغير شيئاً في نظام الشرطتين بل ابقى الشرطة السفلى بالفسطاط، ونقل الشرطة العليا الى القاهرة، ومن الجدير بالذكر: انه اسند الشرطة السفلى بالفسطاط الى عروبة بن ابراهيم، وشبل المعرفي وهما شيعيان، كما اسند الشرطة العليا في القاهرة الى رجل شيعي آخر يدعى جبرا ، وظل جوهر يشرف بنفسه على هاتين الشرطتين، الى ان جاء المعز لدين الله من المغرب وعندئذٍ منح الوزيرين يعقوب بن كلس، وعسلوج بن

الحسن ، صلاحيات الاسراف على ادارة الشرطة . وهناك اصطلاح فاطمي طبق في فترة ما ... فكثيراً ما كانت مديرية الشرطة ، والقضاء يسندان الى شخص واحد ... وكثيراً ما كانت الحسبة ، والشرطة ايضاً تسندان الى رجل واحد .

اما في الولايات الامريكية ، فقد كان هناك موظفين تابعين لصاحب الشرطة مهمتهم حفظ الامن ، واستباب النظام ، ومساعدة القضاة ، وحاكم المدنية .

٤ - النظام المالي :

وبالنسبة للنظام المالي ، فان جوهر وجد فيه الدقة ، والتنظيم ، وتوزيع الاعمال ، وخاصة في الدواوين الخاصة بالخارج ، وفي دوائر الضرائب العامة ، لهذا لم يدخل عليه اي تحسين ، او تعديل .

ومن الجدير بالذكر: ان جوهر جعل الادارة المالية العامة تحت انتظاره ، ورقابته وكان من برنامجه ان يجعل الحالة المالية مزدهرة ، ومستقرة ، ولهذا نراه يعني عناية كبرى بتوفير الغذاء ، والطعام للمصريين ... والدليل على ذلك انه عند حدوث المجاعة المعروفة طالب المعز لدين الله ، وكان لا يزال في المغرب بارسال الغلال ، والاموال ، وقام هو من جهة بفتح مخازن الحبوب ، كما منع الاحتكار ، وحال دون حدوث اية شكوى من الرعبة ، او اي اضطراب في مجال التوزيع ، وارضاء الرعبة . كما انه اقر على ادارة جباية الخارج علي بن يحيى بن العرمون وهو مصرى ، ولم يعزله من منصبه ، بل عين الى جانبه رجاء بن صولاب وهو مغربي فاطمي .

وحين قدوم المعز لدين الله الى مصر سلم شؤون البلاد المالية الى يعقوب ابن كلس ، وعسلوج بن الحسن وجعل الخارج ، والحساب ، والسواحل ، والاعشار ، والجواوى ، والاحباس ، والمواريث ، والشرطتين تحت امرتها ، وكتب لها سجلاً بذلك .

وذكرت بعض المصادر:

انه بفضل سهر جوهر على الشؤون المالية بلغ خراج مصر سنة ٣٥٨ هـ ما مقداره ثلاثة ملايين واربعمائة الف دينار، وهذا دليل على تنفيذ جوهر لعهوده التي اقتطعها على نفسه يوم قال للمصريين :

«ولكم علي امان الله التام، العام، الدائم، المتصل، الشامل، الكامل، المتجدد، المتأكد علي الايام، وكروor الاعوام .. في انفسكم، واموالكم، واهليكم، ونعمكم، وضياعكم، ورباعكم، وقليلكم، وكثيركم، وعلى انه لا يعرض عليكم معرض، ولا يتتجنى عليكم متاجن، ولا يتعقب عليكم متعقب».

٥ - النظام القضائي :

كان القضاء في مصر عند دخول القائد جوهر الصقلي بيد محمد بن احمد ابن عبد الله بن صالح بن اسامه الذهلي، وهو من اهل البصرة، وكان مالكيّاً، واديباً، وعلامة، وسهلاً في احكامه، فأحبه جوهر، وقربه اليه، وخلع عليه، وأقره في منصبه، ولكن بعد فترة اخذ يجد من نفوذه، فادخل بعض القضاة المتدرجين في السلك والزتمهم باتباع سنن الشيعة في بعض الاحكام، كما اخذ يتدخل في شؤون القضاة، ويشدد الرقابة عليهم.

وعندما جاء المعز لدين الله الى مصر، ابقى القاضي الذهلي، بالرغم من انه ابى ان ينزل عن مطيته عندما استقبله كما فعل غيره، واابى ايضاً ان يقبل الارض، وقد لفت موقفه هذا انتظار المعز لدين الله، وسائل خواص حجابه قائلاً :

من هذا الذي خالف الناس كلهم... فقيل له: قاضي مصر...
وعندما لام الذهلي احد مرافقه على تصرفه... اجا به بصوت عالٍ :
وما هذا...؟ اهو الشمس التي قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ) : من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها... الم تسمع قول الله تعالى :
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْلَّيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ، وَلَا لِلْقَمَرِ... وَاسْجُدُوا لِللهِ الَّذِي خَلَقُوكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾... فارضى

هذا القول الامام المعز لدين الله ... واستحسنه .

وما يذكر: ان القاضي الذهلي ظل في منصبه حتى اواخر سنة ٣٦٣ هـ . وفي هذا العام عين المعز لدين الله علي بن النعمن قاضياً مساعدأً ، ومعنى هذا ان تعينه جاء مقدمة لصرف الذهلي ... وذكر ايضاً: ان المعز لدين الله عين بعد الذهلي ابن ابي ثوبان ولما مات عين ابن النعمن .

٦ - المظالم :

اولى جوهر الصقلي شؤون المظالم اهمية خاصة ، وعرف: انه كان يعقد مجلس المظالم بنفسه ، ويدرس القضايا ، والداعوي التي يقيمها الافراد ، والجماعات على الولاة ، والموظفين عندما يهدون عن طريق الحق والعدل ، وخاصة على عمال الخارج اذا ظلموا ، واشتبوا في فرض الضرائب وجمعها ، وهكذا بالنسبة لكتاب الدواوين اذا حاولوا الانحراف ... مضافا الى ذلك المظالم التي يرفعها الجنود المرتزقة ، اذا نقصت ارزاقهم ، او تأخرت تعويضاتهم ورواتبهم ، ثم النظر في اقامة العبادات ، وتتنفيذ الحدود الدينية ، كالحج ، وصلاة الجمعة ، والجهاد في سبيل الله .. وكان جوهر يجلس في كل يوم سبت وحوله الوزير ، والفقهاء ، وغيرهم ... وعندما كثرت اشغاله ومهماته اوكل بالمظالم « ابو عيسى مرشد » .

وذكرت المصادر التاريخية:

ان المعز لدين الله، بعد ان وصل الى مصر، تسلم هذه المهمة فكان يجلس للمظالم بنفسه احياناً، او ينيب احداً عنه.

٧ - المنشآت والعموان:

القاهرة - الازهر

لم يشا جوهر الصقلي، ان يقيم مدينة القاهرة في الفسطاط ، او في مدينة العسكر وذلك لأن هاتين البلدين كانتا غاصتين بالسكان السنين ... ولكن هذا القول يعوزه الدليل .

فالمعلوم : ان جوهر اثر دخوله الفسطاط ، وضع اساس مدينة القاهرة ، وقصر الخليفة ، كما خطط للسور ، فجاءت هذه العاصمة كما ارادها محاطة بسور من اللبن الكثيف الكبير الحجم ، والى الشرق منه كان يقع قصر الخليفة ومكانه الان في الموقع المعروف بجانب الخليلي ، وهناك قصر آخر اقيم بقرب مسجد الحسين ، وكان بينهما الميدان المسمى « ما بين القصرين »

كما اخطط طريقاً عاماً وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً ، ويتصل بمدينة الفسطاط ماراً بين القصرين حتى باب الفتوح . وكان يصل الى الفضاء الواقع في الشمال ، والى الجنوب الشرقي من قصر الخليفة كان يقع الجامع الازهر . اما السور المحيط بالقاهرة ، فقد تم بناؤه سنة ٣٥٩ هـ . والى الجنوب منه تقع مدينة الفسطاط ، كما الى الغرب تقع المقس التي كانت تمتد الى النيل - وهي المعروفة في ذلك الوقت ببناء القاهرة . وكانت القاهرة عند انشائها تمتد من منارة جامع الحاكم حتى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية هي نفسها حدود القاهرة الحالية . اما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج .

وتذكر المصادر التاريخية :

ان المعز لدين الله امر ان تسمى القاهرة ، وعند بنائها سميت « المنصورية » نسبة الى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله والد المعز لدين الله ، او نسبة الى المنصورية عاصمة الدولة الفاطمية في المغرب .

ويظهر ان جوهر اراد ان يسميتها : « المعزية » ولكن المعز لدين الله سماها القاهرة تصديقاً لقوله لجوهر عندما ودعه :

« انك ستبني مدينة تظهر الدنيا »

وهناك اقوال تؤكد : بان تسمية القاهرة تعود الى ظاهرة فلكية ، وان اساسها وضع وقت طلوع كوكب المريخ او القاهر .
وذكرت « النجوم الزاهرة » :

ان جوهر لما شرع ببناء سور، واقامة القاهرة، جمع المنجمين، وأمرهم ان يختاروا طالعاً لحفر الاساس، وطالعاً لرمي حجارته، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب، وبين القائمة، والقائمة حبل فيه اجراس وأفهموا البنائين ساعة تحريك الاجراس ان يرموا ما في ايديهم من اللبن والحجارة. ثم وقف المنجمون لتحرير هذه وأخذ الطالع، فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الاخشاب، فتحركت الاجراس، وظن الموكلون بالبناء ان المنجمين حركوها، فألقوا ما في ايديهم من الطين والحجارة في الاساس... فصاح المنجمون: لا... لا... القاهر في الطالع... ومضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه.

وكان غرض جوهر ان يختاروا للبناء طالعاً لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً فوق: ان المريخ كان في الطالع وهو ما يسمى عند المنجمين القاهر. وذكر مصدر آخر:

ان القائد جوهر ارسل الى المعز لدين الله كتاباً يخبره فيه بوصوله الى الفسطاط، وشروعه ببناء مدينة تكون عاصمة للدولة الفاطمية... فأجابه: يا جوهر... ابن مدينة، وسمها القاهرة، لأني سأظهر بها بني العباس.

وذكر ايضاً:

انها سميت القاهرة لأن حروفها بحساب الجمل يأتي مطابقاً لتاريخ تسلم المعز لدين الله شؤون الخلافة الفاطمية وهي سنة ٣٤٢ هـ. فتكون على هذا الشكل:

ا ل ق ا ه ر ه
٣٤٢ المجموع ١ - ٣٠ - ١٠٠ - ١ - ٥ - ٢٠٠ - ٥

وما تجدر الاشارة ان جوهر راعى ببناء القاهرة الموقع الحربي، فجعلها اقرب الى الانتفاع بمياه النيل، كما جعلها غرب حافة الصحراء الشرقية اي

جبل المقطم، وذلك لاغراض الدفاع من الجهة الشرقية.

وذكرت بعض المصادر:

ان المعز لدين الله عندما جاء الى مصر رأى ان هناك خطأً، وكان على جوهر ان يجعل القاهرة على جبل المقطم، او على شاطئ النيل مباشرةً..

ومن منشآت جوهر في القاهرة قصر الخليفة (المعزي) ... وقد شرع ببنائه داخل المدينة الجديدة اي سنة ٣٥٨ هـ . وانتهى من بنائه في اواخر سنة ٣٥٩ هـ . فأدار عليه سورة متيناً سنة ٣٦٠ هـ .. ولما جاء المعز ل الدين الله كان القصر جاهزاً ، ومفروشاً ، وكان يضم العديد من دواعين الحكومة ، ودور السلاح ، وقد اعدت فيه المياه درعاً للحريق ، كما كثرت فيه الانفاق السرية ... فجاء هذا القصر آية في الفخامة ، والضخامة ، وبلغت حجراته اربعة الالاف ، ومن مميزاته كثرة ابوابه ... فكان فيه باب الذهب وتعلوته سارية باباً للخليفة عليها ، وباب العيد ، وامامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود في يومي العيدين .. وباب الدليل ، ويصل الى قبة الزعفران « وهي مقبرة الخلق وسائر الاسرة المالكة » وموضعه الان خان الخليلي .

اما جامع الأزهر فقد شرع جوهر ببنائه حول منتصف سنة ٣٥٩ هـ ، وانتهى من بنائه سنة ٣٦١ هـ اي بعد عامين ، وقد كتب على احدى قبابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... ما امر ببنائه عبد الله ، ووليه ، ابو تميم معد الامام المعز ل الدين الله .. امير المؤمنين ... صلوات الله عليه ، وعلى ابائه ، وابنائه الاكرمين ... على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في ستين وثلاثمائة ». .

هذا ... ويعتبر الأزهر رابع المساجد الجامعة في حواضر مصر ... فقد سبق ان بني عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو

سنة ٢١ هـ. وكان يطلق عليه اسم: المسجد الجامع، وтاج الجوامع، والجامع العتيق... ثم اسس العباسيون مسجداً ثانياً انشأه والي مصر صالح ابن علي العباسي، وسمى جامع العسكر، فظل قائماً حتى دخول جوهر مصر، وبنى احمد بن طولون مسجداً في مدينة القطائع... فظلت هذه المساجد الثلاث عاصمة حتى جاء جوهر الى مصر وبنى الازهر.

ولا يعرف على التحقيق سبب التسمية... فهناك من يقول: انه سمي بهذا الاسم نظراً لازدهار العلوم، والمعارف فيه... ولكن الحقيقة هو ان هذا الاسم اطلق عليه نسبة لفاطمة الزهراء زوجة الامام علي بن ابي طالب، وابنة الرسول الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ).

ولم تكن مساحة الازهر في زمن جوهر واسعة... ولكن الزيادات تعاقبت عليه فيما بعد ثم تحول اخيراً من مسجد صغير الى جامعة لنشر العلوم والمعارف، وقد بلغت اعمدته ثلاثة وخمسة وستين عموداً، وكان في احدى مقصوراته التي اعدها جوهر وحدها: خمسة وستون عموداً من اجود انواع الرخام... وهذه المقصورة كانت خاصة بال الخليفة المعز لدين الله... ويصل اليها عن طريق خاص.

ومن منشآت جوهر في الجامع الازهر المحراب القديم امام المقصورة القديمة، غير انه اقيمت محاريب اخرى بلغ عددها تسعة... وأقام جوهر للازهر منارة واحدة... وأخيراً بلغت المنائر خمسة.

ومهما يكن من امر فان جوهر الصقلي ما كاد يستقر في مصر حتى اخذ يعمل على اعداد العقول والاذهان لتقبل العقائد الفاطمية. ففي عام ٣٥٨ هـ. اي بعد عدة ايام من دخوله مصر، امر باقامة الخطبة باسم المعز لدين الله، وفي سنة ٣٥٩ هـ. امر بان يزداد على الأذان عبارة « حي على خير العمل »... كما امر بابطال شعار العباسيين، وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيضاء شعار الفاطميين... ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة.

ومهما يكن من امر... فان سياسة جوهر مع المصريين كانت تدل على مهارة، وبعد نظر، اذ انه نجح في حكم البلاد المصرية منهج الخدر والتؤدة... فام يعتمد مواجهة المصريين بالانتقال ، وبسرعة من المذهب السنى ، الى المذهب الشيعي ، بل اخذ كل هذا بالتدرج ... او ما يسمى : خطوة... خطوة... . واخيراً :

اتخذ من المساجد مدارس لتلقي علوم الدين... كما جعل منها في بعض الاوقات قاعات للمظالم ، ولجلس الشورى .
وفي خاتمة المطاف لا بد من القول:

بان آثار جوهر حتى الان تتنطق بعظمة هذا القائد العظيم والفاتح الكبير ، والسياسي المحنك ... ويكتفي ان يكون منشئ القاهرة المعزية ... اعظم عاصمة اسلامية ، وأقدم منارة للحضارة ، وللعلوم .

عودة الى المغرب :

انقضت الاعوام الاربعة اي من سنة ٥٨ هـ الى سنة ٣٦٢ هـ . وال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في المنصورية عاصمة المغرب ، جالساً على كرسيه ، يعالج شؤون دولته الغربية ... يقيم المنشآت ، ويوطد البنيان ، ويستبسط القوانين ، ويزيد في قدرات الدولة المالية ، وهذه الاعوام الاربعة مرت بسلام ولم يتخللها الا قيام بعض الاضطرابات في المغرب الاقصى كان يثيرها الأمويون ، فيدفعون بعض اعوانهم من الناقمين لاحادث بعض الفتن واقلاق راحة الدولة ، فكان المعز لدين الله بعد ذهاب جوهر الى مصر يخرج بنفسه لتأديب العصاة ، واعادة الامن الى نصابه . وعلى العموم فان هذه الحوادث بمجملها كانت شبه عادية... وكثيراً ما يحدث مثلها في كل دولة .

اجل ... اربعة اعوام مرت... والمعز لدين الله قابضاً على شؤون المغرب ، وتاركاً مصر وبلاد فلسطين والشام لقائده الامين جوهر الذي منحه ثقته ، ومحضه حبه ، وفوضه في كل شيء... وجوهر هذا من جهته

كان ملتزماً بأخذ رأي قائد الاعلى ، فلا يقوم بعمل الا بعد مشورته ، ولا يبرم امراً دون معرفته .
وأخيراً :

قرر المعز ل الدين الله الذهاب الى مصر ... وقراره هذا جاء بعد ورود انباء مزعجة عن تحركات قرمطية عنيفة ، ثم ان رسائل جوهر اليه كانت تلح عليه بالحضور ، وعلى وجه السرعة ، لأن الاخطار تحدق بمصر من كل جانب ، وان عليه ان يكون على رأس البلاد بحيث يتمكن من الاضطلاع بالمسؤولية الخطيرة .

وهنا تبرز امامه قضية المغرب ، فلمن يترك امر حكمها ، وادارتها وهذه البلاد الذي تعب هو واجداده في امر وجودها لا بد له من تسليمها الى اناس مخلصين يحافظون على حدودها ، وامتها ، واستقرارها وكيانها .
ومن الجدير بالذكر :

انه ترك جزيرة صقلية بأيدي الاسرة الكلبية ، وجعلها تابعة لمصر مباشرة ، كما جعل من اقليمي طرابلس ، وبرقة ولاتين تابعتين للقاهرة وذلك دون ان يكون لنائبه في المغرب الحق بالتدخل في شؤونها .

اجل .. كان ذلك في اواخر سنة ٣٦١ هـ . وقبل هذا التاريخ استدعي الامير جعفر بن علي ... واسر اليه باته ي يريد استخلاقه في المغرب ... فأجابه :

ترك معي احد اولادك ، او اخوتك ، وتفوضني بأموال الدولة تفوياضاً مطلقاً ، وتطلق يدي بتقليد القضاء ، والخارج ... ولا تسألني عن شيء
فغضب المعز ل الدين الله وقال :

يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت ان تجعل لي شريكاً في امري ،
واسبدهت بالاعمال ، والاموال دوني ، ... ثم اخطأك خطأك ... وما اصبت رشدك « فخرج عنه » .

بعدئذٍ اختار «بلكين بن زيري بن مناد» امير صنهاجة، وأعطاه الأمر بحكم بلاد المغرب باسمه، ونيابة عنه، وكان المعز ل الدين الله يعلم مدى العداوة بين الزناتيين، والصنهاجيين. وذكر ان المعز ل الدين الله زوده بال تعاليم، وأوجز له خطة الحكم بقوله :

لا تنس ثلاثة اشياء :

اياك ان ترفع الجبابة عن اهل الbadia ... ولا ترفع السيف عن البربر،
ولا تولي احداً من اخوتك وبني عمك، فانهم يرون انهم احق بهذا الامر
منك .

وقبل ذهابه الى مصر، جاء برجال كتامة، واستوثق منهم، وأخذ عليهم
العهد بمناصرة بلكين. وتذكر المصادر التاريخية :

ان المعز ل الدين الله عندما استدعي بلكين .. قال له :
تأهب لخلافة المغرب ... فأكبر ذلك وأجاب :

يا مولاي ... انت وآباءك الائمة من ولد رسول الله (صلوات الله عليه) ما صفا لكم
المغرب ... فكيف يصفو لي؟ وانا صنهاجي بربري ... قلتني يا مولاي
بغير سيف، ولا رمح ... فما زال به حتى اجاب واشترط :

ان يولي المعز ل الدين الله القضاء والخارج لمن يراه، وينختاره، ويجعل الخير
لمن يشق به، ويجعله قائماً بين ايدي هؤلاء، فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء
به حتى يعمل ما يجب به، ويكون الامر لهم ... ويصير كالخادم بين
اولئك .. فوافق المعز ل الدين الله على ما قاله ... وشكراً على صرحته ولما
انصرف قال ابو طالب بن القاسم بامر الله للمعز ل الدين الله :

يا مولانا ... وهل وثبت بما نطق به بلكين وهل يقوم بوفاء ما
ذكره ...؟ فقال المعز ل الدين الله :

يا عمه ...كم بين قول بلكين وقول جعفر ... اعلم يا عم ان الامر الذي
طلبه جعفر في اوله ، هو آخر ما يصرير اليه امر يوسف، فاذا تطاولت المدة

سينفرد بالامر... ولكن هذا اولاً احسن وأجود عند ذوي العقل، لانه نهاية ما يفعله.

النظام الاداري في المغرب:

وضع المعز لدين الله للمغرب نظاماً يقوم على الاعتماد على انصاره الموالين قبل كل شيء، وكان اهتمامه بذلك بالغاً، لانه كان يدرك ان رفاهية دولته، اما تقوم على استتابب الامن بادىء ذي بدء في الولايات، ومن مظاهر الحكم في هذه الولايات، في ذلك العهد، الاستعانتة ببناء الانصار الأوائل الذين قامت على سواعدتهم دولته الفاطمية، فسلمهم، وأخذهم بالشدة، اذا اهملوا او اساعوا، وشجع المحسن منهم بترقيته، والادار علىه، وبهذا استطاع ان يشعرهم بالخوف، والرجاء في آن واحد.

واعتمد المعز لدين الله على عنصر الشباب، وعيينهم في المناصب التي كان يشغلها اباؤهم، وغرضه ان يحيي فيهم الاخلاص لدعوته، ودولته، ويستغل اخلاص اباؤهم في استتابب الامن، والاستقرار، وكم من مرة زودهم بنصائحه وارشاداته كقوله لهم:

«انا ارDNA ان تصل عوارف ابائنا من اسلافكم فيكم، ونجي ذكرهم بكم، ونم شعثكم ونعرف من حالكم... فكعونوا حيث نريدكم، ونقدر من الخير فيكم. فأعينونا على ما ارDNA الخير بكم، بصالح اعمالكم، وحسن نياتكم، وطوبياتكم. فاننا نقدر على تغيير حالكم، وسد فقركم، وان نغنيكم، ولا نقدر على صلاح ما تفسدونه من انفسكم اذا انت لم تقبلوا على امرنا ايامكم، ووعظاً لكم... فما السعيد كل السعيد الا من قبل عنا، وامتثل امرنا، وأطاعنا، ولا الشقي الا من خالفنا وارتكب نهيانا... وما نريد في كل ما ن فعله فيكم مما تخبونه، او تكرهونه، وتعرفونه، او تنكرونه الا صلاحكم، والخير لكم في دنياكم وآخركم... ان احسنا الى من نحسن اليه منكم، ورفعنا من ترفعه، وانعمنا على من ننعم عليه... فما نريد منه بذلك الا ان يعرف فضلنا فيشكرون، ويعمل من صالح العمل ما يستدعيه، ويترى منا المزيد

عليه، ويصل الى رضوان الله، ويرضي بنا عنه، وان عاقبنا من نعاقبه فما نعاقبه إلا تأديباً له، وليرجع عما انكرناه عليه، ونقتمناه من امر الى ما يرضي الله تعالى عنه، ويرضينا منه، فيسعد بذلك في الدنيا، والآخرة، وان قتلنا منكم من نقتله من يجب القتل عليه، ولا يسعنا ان نبقيه، فما ذلك منا فيه الا تطهيراً له ومحبصاً لذنبه، وكل ما تجري به امورنا فيكم... فهو صلاح لعامتكم».

وفي هذه الارشادات، اشعار هؤلاء العمال والموظفين، بان الخليفة يراقب اعمالهم، ويوجههم لعمل الخير، واسعاد المواطنين... وكل هذا يدخل في نطاق من الحكم القائم على الصلاح والعدل... ويتجلی كل ذلك في ردّهم على اقواله:

«نحن يا امير المؤمنين عبيدك، وصنائعك، والمعترفون بفضلك... فما اصيـناه فبتقـويـك وتأـديـبك، وما اخـطـأـنا فيـهـ، فـنـحـنـ نـرـجـوـ مـنـهـ رـأـفـتكـ، وـرـحـمـتكـ».

فأجابهم:

«يعصـمـكـ اللهـ منـ الخطـأـ بتـأـديـبـناـ، وـتـقـويـنـاـ، اـذـ لاـ نـرـىـ لـاحـدـ منـكـ زـلـةـ الاـ نـبـهـناـ، وـلاـ غـفـلـةـ الاـ ايـقـظـنـاـ، وـلاـ تـخـلـفاـ الاـ حـرـكـنـاـ، وـلاـ تـقـصـيـراـ الاـ وـعـظـنـاـ...ـ فـلـيـسـ يـهـلـكـ مـعـ هـذـاـ الاـ الشـقـيـ الذـيـ غـلـبـتـ عـلـيـهـ شـقـوـتـهـ...ـ وـالـلـهـ يـفـيـدـكـ بـولـايـتـنـاـ، وـجـمـيلـ رـأـيـنـاـ فـيـكـ».

ومما تجدر الاشارة اليه، ان نظام الوراثة لم يكن قائماً... فالمعز لدين الله لم يطبقه في مجال اختيار عماله بل كانت الكفاءة، والمقدرة هي المؤهل الوحيد، مضافاً الى ذلك، ان المعز لدين الله لم يترك لأي كان امر انتقاء العمال، والموظفين الكبار، بل كانت مسؤولياته وحده... وكل هذا يدل على انه لم يكن يعهد لأحد مسؤولية ما الا بعد ان يقف على اخلاقه، وتربيته، ومدى اخلاصه للدولة، وهذا قبل اسناد المهمة اليه، وبعدها ايضاً.

ولم ينس المعز لدين الله ابناء المحاربين، والقواد، والولاة الذين اخلصوا له ، ولآبائه ... فكان يعطيهم الأولية بالانتقاء، مدللاً بذلك على انه لا ينسى المجاهدين الذين اخلصوا للدولة ... وكل هذا يعطي درساً للابناء ايضاً بان اخلاصهم ايضاً ستقدرها الدولة، كما قدرت اخلاص الاولين . ومن هنا ازداد الالهاص ، والتغافل في حبه ، وتسابق العمال على خدمة الدولة ، واقامة العدل ، ورعاية المواطنين ، واطاعة اوامر الخليفة . ومهما يكن من امر:

فإن النظام الاداري الاساسي في المغرب قام على تقسيمات رئيسية ... اي ولايات كان المعز لدين الله يختار حكمها من يثق به ، وكان هذا الحاكم للولاية يستقر في المدينة الرئيسية للولاية بحيث يستطيع الاشراف على المدن والنواحي الاخرى ، وسائر الجهات .

و كانت بلاد المغرب في ذلك العهد مقسمة على الوجه التالي :
ولاية برقة ، وكان يحكمها غلام المعز لدين الله افلح الذي اتي ان يتربّل لجواهر عند ذهابه الى مصر ... ويليها ولاية طرايلس .. وهذه الولاية كانت مصدر الثورات في عهد عبيد الله التهدي ، والقائم بامر الله ويلي هاتين الولايتين ، ولاية المغرب الاقصى ، ومقرها مدينة تاهرت ، وكان حاكمها مسؤولاً عن اقليمي فاس و سجلماسة وغيرهما .
و كانت صقلية تعتبر ولاية ايضاً .

اما في تونس فكانت المنصورية هي العاصمة ... ويتبعها كافة الاجزاء التي في المغرب الأوسط ... وبعد انتقال المعز لدين الله من افريقيا الى مصر حدثت بعض الاضطرابات في بلاد المغرب ... فأصبحت هذه البلاد « دار اماراة » بعد ان كانت « دار خلافة » ... وأصبح نائب الخليفة هو المصدر الوحيد للحكم ، واقتصر بذلك كما ذكرنا : بلکین بن زيري بن مناد الصنهاجي بعد ان تقبّه المعز ل الدين الله بیوسف بدل بلکین ، وسماه ايضاً « ابو الفتوح » و « سيف الدولة » وظل يتلقى الاوامر من هذا الخليفة ...

الى ان استقل البيت الصنهاجي عن الفاطميين فيما بعد .

هذا ويجب ان لانسى: ان المعز لدين الله لم يترك لنائبه في المغرب السلطة المطلقة ، بل جعل رئاسته الاشراف على بعض الولايات ، دون ولايات اخرى . . . حتى انه عين « زيادة الله بن القديم » على جباية الاموال ، و « عبد الجبار الخرساني » و « حسين بن خلف » على الخراج ، وعلى الرغم من مركز يوسف ، فانهم كانوا يتعالون عليه ، ويعتبرون ارتباطهم بالمعز لدين الله مباشرة يعفيهم من اعتباره رئيساً عليهم . . . ولكن لا بد من القول:

بان يوسف قام باعمال في المغرب تدل على بعد نظر ، ودرأية ، ومرؤنة في اساليب الحكم . . . فعين بعض الموالين له في الوظائف الرئيسية . . . فجعل على تونس « عبد الله بن محمد الكاتب » و كان مقره في العاصمة المنصورية . اما يوسف بن زيري فكان كثير التنقل ، لا يستقر في مكان ، وظل يتبع الزناتيين ، وأنصار الامويين . . . واخيراً: اتخذ من مدن المغرب الأقصى مقراً له ، واستقر في فاس بدليل ان رسائل المعز لدين الله كانت تصل اليه الى هذه المدينة .

ويجب ان لا يغرب عن بالنا: ان يوسف قبض بيد من حديد على شؤون المغرب ، ووقف صامداً بوجه تحركات الامويين ، والروم الذين استغثموا فرصة ذهاب المعز لدين الله الى مصر . . . فقوى اسطوله ، وكثير عدد جنوده ، وحارب بقوة وعزيمة كل من عصاه ، حتى انه قبض على بعض اخوته الذين توجس منهم خيفةً فحبسهم ، ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن ، ولجأوا الى مصر بعهد الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله ، الذي تدخل بينهم ، وبين اخיהם ، وأصلاح الامور ثم اعادهم الى المغرب .

وما تجدر الاشارة اليه: ان يوسف بن زيري لم يكن راضياً عن ابن القديم الذي عينه المعز لدين الله على جباية الاموال ، وعندما نشب القتال بين نائبه عبد الله بن الكاتب في المنصورية وابن القديم ، زحف يوسف الى

المنصورية، وقبض على ابن القديم، وأنصاره سنة ٣٦٤ هـ. وقتله مع اتباعه، وذكر: ان عددهم بلغ سبعة الاف.

في الطريق الى القاهرة:

غادر الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله مدينة المنصورية... ومنها وصل الى يرقة... وكان يرافقه جمع من رجال الدولة... وآخوه... وأولاده، وابناء عمومته... وجئت عبيد الله المهدي، والقائم بامر الله، والمنصور بالله ضمن توابيت.

وعندما وصل الى الاسكندرية خرجت الناس بشيبيها، وشبابها لاستقباله، وكان على رأسهم والي المدينة، وقاضي القضاة «الذهلي» والاعيان، وكبار رجال الدولة... فجلس عند المنارة للاستراحة، ثم خطب بالجموع... وما ذكره:

انه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه، ولا مال يحصل عليه، وإنما جاء لاقامة الحق، والحج، والجهاد، وتطبيق اوامر الله، والحفاظ على سنة الرسول الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ) ولكي يختتم عمره بالاعمال الصالحة. وقد وعظهم، وأطال في الوعظ حتى ابكي الحاضرين.

ومن الاسكندرية تابع المسير، فوصل الى الجيزة... وهناك خرج الى استقباله القائد جوهر الصقلي، فترجل عندما رأه، وقبل الارض بين يديه، وكان في عداد مستقبليه ايضاً الوزير جعفر بن الفرات الذي رغب في الاجتئاع اليه على انفراد، وأبقاءه معه ثلاثة ايام في الجيزة... ومن الجيزة تابع المسير، فعبر جنوده المرافقين النيل الى مصر، ثم عبر هو على سفينة خاصة جهزت له خصيصاً... ودخل القاهرة دون ان يمر على الفسطاط، وكان اهلها قد زينوها، وأقاموا الاقواس، وتأهبو لاستقباله...

ولما دخل القاهرة توجه الى القصر الذي اعد له جوهر... فخرّ لله ساجداً ثم صلّى ركعتين في احدى الردهات... وصل خلفه كل من كان معه.

وهكذا استقر المعز لدين الله في القصر الكبير مع اولاده، وابناء عمه، وحاشيته، وخدمه وعيده... وكان جوهر قد اعد كل ما يحتاج اليه الخليفة من اموال، وحلي، وجواهر، وأثاث، ورياش، وأواني، وثياب، وسلاح.

ومن الجدير بالذكر:

ان جوهر كان يقيم في هذا القصر... فلما وصل المعز لدين الله تركه، ولم يحمل معه اي شيء من اثائه الا ما كان عليه من الثياب... ونزل في داره التي اعدها في القاهرة... وفي اليوم الثاني خرج اشرف مصر، وقضاتها، وعلماؤها لتهنئته، والسلام عليه. فذكر التاريخ:

انه جلس في قصره، على سرير من ذهب، صنعه له جوهر في الايوان الجديد، ثم اذن للناس بالدخول عليه، وكان جوهر بين يديه يقدم اليه الناس قوماً بعد قوم معرفاً اياهم، وبعد ان فرغ من السلام على الناس تقدم منه القائد جوهر، وطلب الاذن بتقديم الهدية التي اعدها له بمناسبة قدومه الى مصر... وكانت مؤلفة من :

مئة وخمسين فرساناً ملجمة، وبعض السروج، واللجم الموشى بالذهب، وبعضاها مرصع بالجواهر، وواحد وثلاثون من الابل، وعليها الدبياج، والمناطق، والفرش، وتسعة من النوق المحملة بالحرير، وثلاثين بغلة... سبعة منها مسرجة، وملجمة... ومائة وثلاثين بغلة للنقل، واربعة صناديق مشبكة شفافة يرى ما بداخليها من اواني الذهب، والفضة، ومئة سيف محلى بالذهب، والفضة. بالإضافة الى الاواني، والأوعية، وبعض التحف الثمينة. ولما فرغ جوهر من تقديم هديته نهض ابو جعفر عبد الله الحسيني، وقدم هديته الى المعز لدين الله وكانت مؤلفة:

من احدى عشر سفطاً من متاع تنيس ودمياط، بالإضافة الى الخيول، والبغال.

وذكر:

انه في اليوم الثاني ركب المعز لدين الله الى مصلى القاهرة، فصلى في الناس، وجلس خلفه ابو جعفر مسلم العلوي .. ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر، ومعه جوهر، وعمار بن جعفر، فخطب وابلغ في خطابه حتى ابكاهم.

ولما عاد الى قصره دعا الناس الى تناول الطعام معه ... وبعد ذلك خلع على جوهر خلعة مذهبة، وعمامه، وقلده سيفاً وعشرين فرساً ملجمة مسرجة، وخمسين الف دينار، ومائتي الف درهم. وفي المساء ذهب الى المقس للاشراف على الاسطول الذي عمل جوهر على تقويته، والاكثر من عدد سفنه.

الآثار الفاطمية في المغرب:

عني الفاطميون بالعمارة عنابة باللغة، وقد ذكرنا ان عبيد الله المهدي اسس مدينة المهدية، وجعلها حاضرة لدولته الفاطمية، كما انشأ مدينة اخرى سماها «المحمدية»، وعوّل القائم بامر الله على إنشاء مدينة اخرى كان يريد ان يسميتها «القائمة» نسبة اليه، ولكن الحروب، والثورات حالت دون ذلك. اما المنصور بالله، فقد ذكرنا ايضاً انه اسس مدينة المنصورية ونقل اليها الدولة والدواوين. بعد ان جعل فيها المباني، والقصور ..

ومن القصور التي بناها المعز لدين الله بعد ان تسلّم الخلافة قصره المسمى بقصر البحر، وقد اختار موضعه بنفسه، وقام ببعاده، ووضع تصحيحه بنفسه، ولم يكن اطلاقاً اسم قصر البحر على هذا البناء، الاّ لانه يطل على البحر ... وكان المعز لدين الله قد اقامه في ارضٍ فسيحة، وأنشأ في وسطه بركة او بحيرة كبيرة متسعة السطح ... وأقام قصراً آخر في وسط البحيرة ... وبهذا يكون قصر البحر مؤلفاً من قصرين. وقد ذكر

ان المعز لدين الله قال قبل ذلك :

اريد ان أبني قصراً ، وأحتفر في وسطه بحيرة كبرى ، ويكون وسط الماء قصراً آخر ... وذكر ان المعز لدين الله اقام الجسور لايصال القصرین الى بعضها ... وهذا القصر يشبه قصور قدماء المصريين . وقد ذكر التاريخ :

ان منحاتب الثالث احد ملوك الاسرة الثامنة عشر بنى قصراً في « طيبة » وأنشأ في وسطه بحيرة كان يتزه فيها هو، وزوجته .

وفي العاصمة المنصورية انشأ المعز لدين الله البساتين الغناء ... ومن هذه البساتين البستان الذي انشأه بوادي القصارين على مقربة من المنصورية ، وكان قبل ذلك مكاناً موحاشاً ينقل منه الناس الاتربة لصنع الطوب ، وعمل السماء ، فاغترس المعز لدين الله ارضه ، وأدار عليه حائطاً ، وأجرى عليه الماء حتى اينع اخيراً باصناف الاشجار ، والرياحين ، والورود ، والنوار ، وصار من اجمل البساتين .

وكذلك حفر المعز لدين الله قناة كانت اية في الدقة ، والروعه ، وكانت مياهها تتدفق من اليابس الواقع خارج مدينة المنصورية ، من مكان يعرف « عين ايوب » وتبعد عنها اكثر من ثلاثة وسبعين الف ذراع ، ويتخلل الطريق الذي تناسب فيه هذه القناة مرتفعات ، ومنخفضات وصخور ، ثم تناسب في الارض ، حتى تصل الى قلب حاضرة الفاطميين .

وكان الخليفة القائم بامر الله قد استغلّ مياه « عين ايوب » في ايصال المياه الى القironان ولكن ثورة ابي يزيد حالت دون اتمام هذا المشروع ... ولما ولي المنصور بالله الخلافة فكّر في انجازه لكنه عدل عن ذلك ، بعد ان رأى انه يكلف خزانة الدولة اموالاً طائلة .

ولما ولي المعز لدين الله امر بان تجري مياه هذه القناة إلى المنصورية ... ومما تجدر الاشارة اليه ان الخليفة المذكور استطاع ان ينقل

الى المنصورية عمودين حجرين كانا في مدينة سوسة، وهما من بقايا القرطجانيين او الروم، وكانا من الصخامة بحيث كان النظر اليهما عبرة، وانه لم يتمكن احد من الملوك في الماجاهيلية، او الاسلام تحريكها... ولكن المعز لدين الله تمكّن من نقلهما بواسطة عبيده، وماليكه.

من هنا... نرى ان المعز لدين الله لم يتوان، وهو بالغرب عن النهوض بالفن، حتى ان حاضرته كانت غاية في الروعة، والجمال، كما ان قصوره كانت مضرب الامثال في الفخامة... وفي مصر استمر في اعماله العمرانية... كما سنفصل:

المعز لدين الله في المشرق:

جمع المعز لدين الله في يده كافة السلطات، وجعل من دولته، دولة تقوم على العلم، والعقل، والاستمار، واصلاح المجتمع، والنهوض به، وتوفير الامن والاستقرار للبلاد والسعادة، والرخاء للشعب.

وكان الخليفة المعز لدين الله يشرف بنفسه على كافة اجزاء الدولة، بحيث لا تفوته شاردة، او واردة، وكان يعتمد في تصريف الامور، وقضاء الاحوال على نخبة من الموظفين، والمساعدين، والمستشارين اختارهم بنفسه، وبعضهم اعطاه صفة الوزارة من دون تسمية، ومن الواضح: انه قد نجح نجاحاً باهراً في سياساته، وحكمه، سواء في المغرب او في مصر.

اما الخلافة فكانت مقصورة على البيت الفاطمي، ويشترط فيمن يتولاها ان يحوز على النص من خليفة قبله يشترط فيه ان يكون خليفة ايضاً.

وعندما جاء المعز لدين الله تسلّم الخلافة بقوّة، وجمع بين الدولة، والدعوة.. اي انه تسلّم السلطتين الروحية، والزمنية، وعمل لكل منها على ضوء عقله، وتدبيره، ونشاطه، فكان يستمد نفوذه الديني، والسياسي من انتسابه لعلي بن ابي طالب، وفاطمة الزهراء... فبذل جهوداً جبارة في سبيل الحفاظ على هذا المركز بدقة، ونظام... وقد وجد امامه دعاء اقوىاء

تمكنوا ان يضموا الى صفوفهم كل فريق موالٍ لعلي بن ابي طالب، وابناء الرسول الاعظم، وهذا النسب اوجد لهم مكانة محترمة في العالم الاسلامي، وغيرهم من العباسين، والامويين، وأرسى لهم قاعدة كبرى من التقدير والتقديس.

ومن الجلي الواضح: ان الزعامة الاسلامية كانت تمر في صراع على الخلافة الروحية والسياسية، وقد عرف العالم الاسلامي اخيراً ان المعز لدين الله تمنع بها وحده دون سواه.

وبالفعل: اقام المعز لدين الله لنفسه هالة من التقديس بانتسابه الى علي وفاطمة، وجدب اليه قلوب الناس، متخدناً من قانون «التعليم» والعرفان مبدأ خرج به على الناس، فأشاع مبدأ التشقيق، والتعليم، وحضر على تلقي العلم، لاعتقاده ان دعوته، ودولته يجب ان تسبق الدول الاخرى في هذا المجال.

ومهما يكن من امر، فالمعز لدين الله لم يكن حاكماً مستبداً، او عابشاً، او ماجنا... فاتباعه كانوا يتحدون بأخلاقه، وعفته، وكرمه، وسهره على راحة شعبه... وكل هذا اوجد لديهم مبدأ الطاعة، لأن المعز لدين الله كان يعتبر انه من المدعاة، والمصلحين، ومحظ الآمال.

وقد ذكرنا في الصفحات السابقة:

ان الخليفة الفاطمي القائم بامر الله كان يعتبر عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب والده الروحي، وليس ابا الجسماني، لأن عبيد الله كان اماماً مستودعاً وهو عم القائم بامر الله، وقد اثبت المعز لدين الله ذلك، عندما قصّ على قاضي قضاته النعمان... بان سمع زوجة عبيد الله المهدى يقول لأولادها بعد وفاته:

والله اذا خرج هذا الامر من هذا القصر، فلا يعود اليه أبداً، وسيصير الى ذلك القصر يعني قصر القائم بامر الله، فلا يزال في ذرية صاحبه ما

بقيت الدنيا .

ومعنى هذا ان عبيد الله المهدي لم يكن صاحب الأمر، وانه كان كفياً، وقائماً على القائم بامر الله، وكل هذا يتجلّى بتصرّفات المعز لدين الله باثبات نسبة الفاطمي، وبتعاليه على العباسين والأمويين، قوله: انه صاحب الحق في الخلافة الإسلامية .

ولما كانت الخلافة هي السلطة العليا للدولة، وتقوم على الدعاية، فقد حرص المعز لدين الله على اعطائها حقها من التقدير، بان افسح المجال لولي عهده بمشاركة في الاعمال الحربية والادارية والسياسية، وذلك كما فعل المهدي مع القائم بامر الله، والقائم مع المنصور بالله، والمنصور مع المعز لدين الله، والمعز مع ابنه عبد الله الذي سميَ ولیاً للعهد... ثم لما مات عهد الى ابنه الثاني العزيز بالله .

وقد كشف المعز لدين الله عن خططه المستهدفة النهوض بالرعاية...
وابان سهره على راحة اتباعة ورعاياه فيقول:

«للناس شغل بدنياهم، وما يتلذذون به منها، وشغلنا اقامة اودهم،
وصلاح احوالهم، والنظر فيها يعود عليهم، ويحمي حاهم، ويدفع عنهم،
ويحقن دماءهم، ويحسن حريمهم، وأحوالهم، ويكتف ايدي المتطاولين اليهم
بذلك... نقطع ليلنا، ونهارنا عن ذلك بعزل، ومنه في غفلة بما هم فيه
متشارعون... فالله المستعان على ما قلتنا من امورهم، وافتراضه علينا من
القيام بأسبابهم، ونرحب اليه في اصلاحهم، وهدايتهم الى ما فيه حظهم،
ونجاتهم في دنياهم، وآخرها»

هكذا كان المعز لدين الله... يعمل لاصلاح، وصالح رعيته، وهذا يفسر مدى ازدياد نفوذه، وما ناله من ظفر، ونصر في فتوحاته شرقاً،
وغرباً، معتقداً بان الخلافة منصب عسير تحفّ به المتاعب ولكن الله قلل
اياه، وفرضه عليه لانه من سلالة الرسول الاعظم .

وليس من شك بان المعز لدين الله كان يجمع في يديه كافة السلطات ، فكان المحرك لجميع اعمال الدولة يعين الولاية على الأقاليم ، ويزودهم بنصائحه ، ولا يترك المجال لغيره للتصرف بشؤون الدولة العليا ، بل على العكس كان على اتصال بكل ما يجري فيها ، وكان بالإضافة الى كل ذلك القائد الاعلى للجيش .. يعين كبار قواه الذين مهروا في الفنون الحربية ، وعرفوا بأخلاصهم ... وكثيراً ما كان يضع لقواده خطط الهجوم ، والدفاع ، وال الحرب ، ويشرف بنفسه على تنفيذها ، وينظر في المظالم بنفسه هذا بالنسبة لامور الدنيا ، أمّا امور الدين ، والدعوة فكان يقبض عليها بيد من حديد ... فيعين ايضاً كبار الدعاة ويزودهم بكتب الباطن ، والتعاليم الفلسفية ، وكان على اتصال بهم سواء في المشرق ، او في المغرب حتى أصبح له في كل بلد اتباعاً ، وانصاراً .

بعد كل هذا يكن القول :

بان الخليفة المعز لدين الله عرف كيف يمثل هذا المنصب ، وينتشر الدولة الفاطمية من الاخطار ، ويسيء بها في طريق مستقيم سليم .

١ - الجيش الفاطمي :

لما كان الجيش هو العمود الفقري للدول ، فان المعز لدين الله اعتمد عليه اعتناداً كلياً ، وسعى الى ايجاد جيش قوي منظم ، يحمي الحمى ، ويساعد على النهوض بالدولة الى جانب اسطول كبير لم يلبث ان اصبح اقوى اساطيل العالم في حينه ، وقد تكون المعز لدين الله بواسطة هذا الجيش ان يستولي على تونس ، والجزائر ، ومراكش ، ولبيبا ، ثم النفاذ الى مصر ، وفلسطين وبلاد الشام .

ومهما يكن من امر... فان المعز لدين الله اعتمد هو ومن سبقه من الخلفاء والفاتميين على الكتاكيتين ... وهم الذين انضموا تحت لواء ابو عبد الله الشيعي ، ثم قرَبُ غيرهم من انس بهم الاخلاص ، والاستجابة للدعوة ، وللدولة معاً ، فأساند اليهم المناصب ، والقيادات ، ومن هؤلاء الصنهاجيين

والمصادمة... وغيرهم.

وكانت جيوش المعز لدين الله تتكون من عنصرين:

الأول - وهو الجيش الدائم الذي يكون على اهبة الاستعداد لتلبية مطالب الدولة في كل حين، والى جانب هذا الجيش الدائم، فرق من المتطوعة، ولم يكن اعتماد المعز لدين الله على هؤلاء الا بقدر يسير، وحيثما يكون بحاجة اليهم لسد النقص في الجيش الدائم. وقد ذكرت المصادر الفاطمية: بأن هؤلاء المتطوعة كانوا يسارعون الى تلبية النداء حينما تعصف بالدولة العواصف، فهم كانوا من اصحاب العقيدة، والایمان، والمتفانين في طاعة الائمة. وقد ذكر المعز لدين الله مساعدة هؤلاء الى الخروج للحرب... كقوله لهم في احدى المواقف:

«بارك الله فيكم، وأحسن صاحبتم، والخلافة عليكم... فقد صدقتم ظني فيكم، وأملي عندكم، وانتم من معدن البركة، وعنصر الخير بكم بدأ الله اظهار امرنا، وبكم يتممه، ويصلحه، بحوله، وقوته.. وقد اعلمت مساريتم الى ما ندبتم اليه، واجابتكم لم اردمت له، وأرجو ان تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم، ويعلي ذكركم... انت البنون، والاخوه، والأقربون.. ما يعد لكم عندي احد، ولا يبلغكم من قبلي بشر، وما ذلك الا لما لي في قلوبكم... ما نصر الله ولیاً من اوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا.. على ذلك مضى اولكم، وعليه انت على محبتنا، ونصرتنا، وموالاتنا... فانت حزب الله، وأنصاره، وجنده... وأحباوه..»

وعرف عن المعز لدين الله: انه كان يثير حماسة جنوده بالمال، وبالمناصب، ويغافلهم من الله ومن عقابه... اما المال فكان يدر عليهم الكثير منه، حتى لا يستطيع احد ان يقارن بين جنوده، وجنود العباسين، او الامويين... ولم تقتصر عطااته لهم، بل كان ينفق على ذويهم اثناء غيابهم... كما سن قانوناً بالاتفاق الدائم على عائلة من يموت في الحرب، والجهاد. وفي هذه الوثيقة التي وردت في كتاب المجالس والمسائرات

للقاضي النعمن بن حيون ما يثبت ذلك . « وهو قول احد المشاركه للخليفة
المعز لدين الله :

« اين يبلغ يا امير المؤمنين عطاء غيرك من عطائك ... ؟ ان الذي يعطيه
اعداوك جندهم هو نزر يسير ، بالنسبة لعطائك لأوليائك اذا حصل لهم .
ان اداءك انا يعطون الرؤساء من اجنادهم العطاء لهم ، ولاتباعهم ، ومن
قدموه عليه من اجنادهم ، ولعبدهم ، وسائل اسماهم ، فيقطع العرفاء من
ذلك كثيراً منه لأنفسهم ، ويغرقون ما فيه على من قدموا عليه ، وربما
عاملوهم فيه ، ولا يبلغ ما يصل اليهم بعض ما يصل الى اقل عبيد
مولانا ومولانا يسبغ على اولئاته ، وعيده الصلات والأرزاق ،
والكساء ، والعلوفة ، والجراية على نسائهم ، وأبنائهم .. يقبضون ذلك بآيديهم ،
وان خرجوا في بعث حملهم ، ووصلهم ، ومن استشهد منهم ، او مات ابقى
ما كان يجري عليه لخلفيه ويفرق عليهم السلاح ، والرواحل ، والمصارب ،
وجميع ادوات السفر عندما يسافرون ، مع اقطاعهم القطائع والمزارع
واستعمالهم على الاعمال ، وتعاهدهم بالهبات الجزلة ، والعطايا السنوية ، وبلغتهم
عند اوبتهم من البعوث بالكساء والصلات ، والراكب ، والحملانات .

وكل هذا يفسر سبب مغalaة جيوش الفاطميين في طاعة رؤسائهم ، وما
احرزوه من النجاح ، والانتصارات في الحملات التي اشترکوا فيها . اما
تخويفهم من الله فيتجلی بقول المعز لدين الله :

« ان الله قد امتحن عباده بالجهاد في سبيله معنا ، فنحن نندهم اليه لنعلم
المجاهدين منهم ، والصابرين ، وليرفع الله به درجاتهم ، ويجزل مثوابهم ،
وينقل حالاتهم . فكم منكم اليوم من ينفذ في هذا الجيش تابعاً يعود متبعاً ،
ومرؤوساً يصير رئيساً ... انما ترفعكم عندنا ، وعند ربكم بنياتكم ، وأعمالكم وبها
تتوسلون اليانا ، والى بارئكم » .

ومن الاصلاحات التي ادخلها المعز لدين الله على نظام الجنديه ما كان
يوليه قواه من تقدير واحترام ، فكان اذا ارسل قائداً من قواه الى مكان

ما قرنه بنفسه، وأبادن لجنته انه نائبه، وان طاعتهم لقائهم هي طاعة له . وقد سنّ بعمله هذا دستوراً من دساتير الجنديه له قيمة من الناحية العلمية . وكان يقول لجنته اذا ودعهم :

« لا يصلح الناس الا برئيس ... وقد قدمت عليكم من علمتموه ، وأقمته فيكم مقام نفسي ، وجعلته معكم كأذني ، وعيني ... ولكل امرئ منكم على نفسه بصيرة »

واعتمد المعز لدين الله ، وهو بالغرب على الجيش المؤلف من المغاربة ، بينما في مصر فان جيشه كان اكثره من المغاربة ، والصقالبة ، والسودانيين ، وغيرهم ، بينما لم يكن فيهم الاً عددًا لا يذكر من المصريين .

ويذكر التاريخ :

ان جيش مصر في عهد المعز لدين الله كان مؤلفاً من مائتي الف اما المصادر الفاطمية فتؤكد بان عدده كان اربعين ألف ... وأكثرهم من المشاة ، الا الكتاميون الذين اشتهروا بالفروسيه .

واعتمد المعز لدين الله على ديوان الجندي للنهوض بالجيش ، بل انه كان يجعل ديوان الخراج ، او بيت المال تحت طاعة الجيش ، ورهن اشارته .

وممّا تجدر الاشارة اليه :

ان الجيش الفاطمي في عهد المعز لدين الله كان يتكون من فريقين : الامراء ، وطوائف الجندي ، ولكل من هذين الفريقين مرتبة لا تتجاوزها الى غيرها ، فالامراء كان يخلع على بعضهم باطوابق من ذهب في اعناقهم ، والبعض يركب في المراكب بالقضب الفضيّة التي يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجميل .

اما طوائف الجندي ، فكانوا يعتبرون اصحاب الفتوحات ، ويكتفي ان تكون غالبيتهم من كتابة ومن صنهاجة ، ومن المصادمة ، الذين ساهموا مع جوهر في فتح مصر ، والشام .

ومن أشهر فرق الجيش في عهد المعز لدين الله :

السودانية : وكان المعز لدين الله يعتز بهم ، حتى انه كان يشركهم في ركوبه في احتفالات عيد رأس السنة الهجرية ... فكان يختار منهم ثلاثة من الشباب الاقوياء ، ويعطي لكل منهم درقة ، وحربة محلة بالفضة ، ويسمى هؤلاء : ارباب السلاح الصغير ... وكان الى جانبهم « الصقالبة » وهؤلاء من الأرقاء الذين يشترون بالمال من بلاد اسيا الصغرى ، والبلقان ، وكان لهم شأن كبير في عهد المعز لدين الله وبعده ... وهناك فرقة « الاتراك » وهذه الفرقة كان يعتمد المعز لدين الله عليها اعتماداً كبيراً ، وكانت هناك فرقة « الأخشيدية » ايضاً . ومن المعلوم ان لكل فرقة من هذه الفرق قائد خاص مسؤول امام القائد العام . وعندما استقرَّ المعز لدين الله في مصر ادخل في عداد جيشه اعداداً من الاكراط والفرنجة ، والمجربة الكبار ، والصغار ، والدليم ، والاعراب من البدو الرحـل .

وكانت فرق الجيش تتخذ الألوية المختلفة الالوان شعاراً لها ... فتارة تكون خضراء وتارة بيضاء ... وكثيراً ما كانوا يستخدمون الرايات واسطة للتواصل بين وحدات الجيش ... وكانت للجيش الفاطمي فرقة موسيقية مقرها في قصر الخليفة ... وذكر انها كانت تتقدم ركب المعز لدين الله عندما دخل مصر .

اما اسلحة الجيش الفاطمي فهي :

الرماح ، والحراب ، والدروع ، والأطباء ، والخناجر ، والبليط ، والغفارات على الرؤوس ، والمنجنيقات ، والدبابات ، والكبيش ... وكانت لديهم فرقة كبرى تسمى « النقطية » مهمتها استخدام النار في الحروب .

٢ - الاسطول :

الاسطول بالنسبة للفاطميين كان له اهمية كبرى ، وقد ذكر انهم عندما كانوا في المغرب اخذوا من المهدية قاعدة لاسطوطهم ، واخيراً جعلوا من

سوسة قاعدة ثانية ، وهذا بالإضافة الى قاعدتهم البحريّة الكبّرى في جزيرة صقلية . ويجب ان لا يغرب عن بالنا : بان الاسطول الفاطمي كان سيد البحار في المتوسط ، وان مدن روما الكبّرى الواقعة على شواطئ البحار كانت تحت رحمة هذا الاسطول في كافة الاوقات .

اجل ... لقد غصّت المهدية في السفن في عهد المعز لدین الله ، مما اضطره الى التفتيش عن قاعدة ثانية تخفّف عن هذا التغر ... وتأتي المصادفات حاملة نبأ اكتشافهم في سوسة على سبعة مراجل ازلية الصنع ، متقدنة ينفذ بعضها الى بعض ، وكانت مدفونة تحت الارض ... وكان هناك صهريج يجري منه الماء اليها ... وهذه المراجل اذا ما امتلأت بالماء استغنى اهل المدينة عن الماء ... وكانت ذخيرة للمراكب .

فرفع ذلك الى المعز لدین الله ... فسرّ به ، وأمر باصلاح المراجل ، والصهريج ... واصبحت سوسة بعد هذا الاكتشاف القاعدة الثانية للاسطول ، والدار الصناعية الكبّرى لبناء السفن ، واصلاحها .

ومن الافكار المعزّية :

انه كان يخطط ليجعل من المنصورية قاعدة ثالثة يدل على ذلك قوله :
« لئن امتدَّ المقام هنا ... لنجرين البحر بحول الله ، وقوته اليانا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط ، وتقلع بحضرتنا » .

وبهذا نرى ان المعز لدین الله كان يتم بتكوين اساطيل قوية ...
وعندما جاء الى مصر عزّ دار صناعة للسفن في المقس ، كما انه لم يهمل الدار الثانية في الفسطاط ، والثالثة في الاسكندرية ، ودمياط .

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً الى خوف المعز لدین الله من غارات الروم ، والقراططة على مصر ، والشام فحسب ، بل كان ذلك راجعاً الى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخدّها الاعداء طريقاً لللغارة على مصر ... كما كان راجعاً ايضاً الى ما كان يهدف اليه من اتخاذ مصر ،

وببلاد الشام نقطة يعبر منها الى بغداد، اضف الى ذلك حرصه على ان يكون لاسطوله السيادة والتفوق على سائر اساطيل البحر الابيض المتوسط... ولا غرو فقد دخلت في حوزة المعز لدين الله بعد ان تم له فتح مصر، وفلسطين، والشام..... البلدان الواقعة على البحر الابيض من انطاكيه حتى سبتة، كما وقعت في يده موانئ المغرب الاقصى المطلة على المحيط الاطلسي ايضاً... مضافاً الى ذلك القواعد البحرية المهمة مثل: صور، وصيدا، وعكا، وبيروت، وعسقلان.

وبالنسبة للسفن الفاطمية... فقد كانت مختلفة الانواع.. واهمها:
الشنديات: وهي المراكب المسطحة... وتحتخص بحمل العتاد، والجنود.
الشواني الحربية: وهي سفن كبيرة فيها الابراج... وهي ايضاً اشبه ما تكون بالبوارج الحربية المعدة للهجوم والدفاع.
والمسطحات، والطرادات، والعشاريات، والحراقات.
وقد قرأتنا في كتب التاريخ موقف هذا الاسطول من صور، وسواها في حروبها مع الروم، وقرأتنا كيف اتخذ القائد جوهر الصقلي من عكا، وعسقلان مستودعات للامدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام.

وبالنظر لأهمية هذه السواحل، كان المعز لدين الله يعين عليها القواد، والولاة الاقوياء، وقد قدرت سفن الاسطول الفاطمي التي بنيت في دور الصناعة في مصر بأكثر من الف قطعة مختلفة الاشكال، والاحجام..... وكان للاسطول امير يدعى «قائد القواد» وقد سمي بذلك لأن تحت امرته وبصورة دائمة عشرة قواد، كما كان يطلق عليه اسم «امير الجيش» او «المستوفي». وقد بلغ من عنایة المعز لدين الله انه كان ينفق عليه بنفسه، ويساعده احد الوزراء، ولم تكن بحارة الاسطول من رتبة واحدة... وذكر: بان المعز لدين الله كان يقطع رجال الاسطول اقطاعات عرفت

باسم : « ابواب الغزا » ... وكان يترك لهم الغنائم ، والمال ، والثياب ، والمتاع ، ولا يستبقى سوى السلاح ، والأسرى ... وعندما كان الاسطول يقوم بمهمة كان المعز لدين الله يحضر بنفسه حفلة الوداع ، والاستقبال ، فيبارك رجاله ، ويدعو لهم بالتوفيق .

وممّا تجدر الاشارة اليه ان عناية المعز لدين الله لم تكن تقتصر على الاسطول الحربي بل اقام اسطولاً ثانياً للتجارة .. وكانت مهمته نقل السلع من مصر الى البلدان الاجنبية ، وبالعكس .

وكان للفاطميين في ذلك العهد اسطولان : احدهما في البحر الابيض المتوسط ، والآخر في البحر الاحمر فكانت الاسكندرية ، ودمياط في مصر ، وعسقلان ، وعكا ، وصور ، وصيدا من اهم موانئ الاسطول التجاري ، كما كانت « عذاب » اهم موانئ البحر الاحمر .. وكانت مزودة باسطول حربي يقوم بمهمة حماية الاسطول التجاري ، وحماية التغور من اللصوص ، وقراصنة البحار .

ان كل هذا يعطي الدليل على عناية المعز لدين الله باسطول ، وبجيشه الذي كان يعده للمهامات الكبرى ، والفتورات العظمى .

٣ - التشريع والقضاء :

للفاطميين تشريع خاص يستند على فقه المذهب الاسماعيلي ... وقد طبق هذا التشريع في المغرب بادئ ذي بدء ، فأسندوا القضاء الاعلى الى رجال يفترض فيهم معرفة قواعد وتشريع المذهب الاسماعيلي المستمد من الفقه الجعفري المستند الى الامام جعفر بن محمد الصادق ... وكان على رأس هؤلاء قاضٍ كبير يسمى « قاضي القضاة » اتخذ لنفسه مهمة تعيين القضاة الآخرين في المناطق والألوية على قاعدة اصدار احكامهم وفق القواعد الفاطمية .

وكان النعمنان بن حيون المغربي هو الممثل الاعلى للقضاء في عهد

الفاطميين بال المغرب فقد اتخذه عبيد الله المهدى قاضياً لدولته ، ثم عيّنه المنصور بالله قاضي قضاة دولته ، ومنحه الصلاحيات والنفوذ ، وكتب له عهداً بالقضاء في مدن المنصورية ، والمهندية ، والقيروان ، وسائر مدن إفريقيا الشمالية ، وأولاًه عطفه ، ومحبته ، واعترف بنياهته ، واقامته قواعد الحق ، والعدل بين الناس وبين القوي ، والضعيف ، والظالم ، والمظلوم .

وكانت مهمة قاضي القضاة في دولة الفاطميين ، بتلك الفترة ان يخطب في المساجد الكبرى ، وان يعين من ينوب عنه في الامصار ، ويعزل من يستحق العزل ، وينقل من يرى ان المصلحة في نقله الى مكان آخر ، وكان يضع للقضاة الآخرين نظاماً يسرون عليه في القضاء بين الناس ، واسساً يستطيعون بموجبه الحفاظ على مكانتهم ، واخذ الحق للمظلومين من الطالبين .

ويحدثنا النعمن بن حيّون ، وكان يضطلع بهذه مهمة قاضي القضاة في كافة المغرب بأنه كان يسدي النصائح للقضاة ، ويرسم لهم الخطوط لاصدار الأحكام ، والوقوف على الحق .

اما المعز لدين الله فكان يحرص ايضاً على ان يكون قاضي قضااته متلاً أعلى فيخلق الكريم والفضيلة ... فكان يحثه هو والقضاة الآخرين على التمسك باهداب الدين . واقامة العدل بين الرعية اغنيائهم وفقراهم ... وان تكون احكامهم مستمدة من كتاب الله ، وسنة رسوله .

مضافاً الى كل ذلك كان قاضي القضاة يقوم بالفتيا الى جانب تنظره في القضايا المذكورة في حاضرة الدولة ، والاشراف على القضاة في الاقاليم ..

اجل ... كانت ترد لعميد سلك القضاة اسئلة كثيرة ، ومسائل استعصى حلها ... فكان عليه ان يجيب عليها ، ويشرح غواصتها شرحاً يتافق مع اصول المذهب الاسماعيلي الجعفري ، وما جاء في الكتاب والستة ولم يكن قاضي القضاة - النعمن - مستبداً بالأمور وحده ، بل كان يرجع الى رأي الخليفة المعز الدين الله الذي لم يدخل وسعاً عن القيام بهذه تصحيح

الفتاوى ، وتنقيحها ، والتصديق عليها ، وأحياناً التعليق عليها .

وكل هذا يدل على علو كعبه في العلوم الدينية ، والاصول الفقهية ...
ولا غرو فان المعز لدين الله كان عالماً حاذقاً ... حتى اعتبر في عصره من
كبار المشرعين في العالم الاسلامي .

وعندما جاء الى مصر اصطحب معه « علي بن النعمن » وكان قد ولأه
القضاء ... اما والده النعمن فكان قد بلغ من العمر عتياً ، وعندما جاء الى
مصر ... آثر الاستراحة ، والتفرغ الى التصنيف ، والتأليف .

اما الحسبة فهي سهمة ذات اهمية قصوى ، وقد كان يضطلع بها شخص
يسمي « المحتسب » ومهمته تحصر بمراقبة ارباب الحرف ، والذين يتعاطون
بيع اللحوم ، والحلويات ، والمواد التي تدخل في نطاق الطعام ... ثم
المحافظة على الصحة العامة ، والاشراف على المأكولات التي تعرض للبيع
للناس ، والتأكد من نظافتها ، وخلوها من الغش ، والفساد ... كما يدخل في
نطاقه الاشراف على الطرق العامة ، ومنع اقامة المباني فيها ، او استغلالها
بقصد المنفعة الخاصة ، مضافاً الى ذلك المحافظة على الآداب وضبط
الموازين ، والمكاييل ، ومنع الغش .

وفي العهد الفاطمي بمصر ... كانت وظيفة المحتسب تعادل وظيفة
النائب العام ... بحيث ان صلاحياته ، وصلت الى حد مراقبة الحمّالين ،
والسفن ، ومنعهم ان يحملوا على سفنهم أو دوابهم اكثر من طاقتها ، وكما
انه كان يراقب الكتاتيب لمنع المعلمين من ضرب الطلاب ضرباً مبرحاً ،
وفوق هذا كان من حق المحتسب ان يوقع على العقاب الذي يراه مناسباً
على سيئي الاخلاق ايضاً .

وعلى العموم ، فان المحتسب ، واعوانه كانوا يساعدون القضاة على
استتاب الامن ، والنظام وبعضهم يقوم بهمة البوليس السري لتبني الجناة ،
والقبض عليهم ، واكتشاف المؤامرات التي يحيكها اعداء الدولة .

وقد اعطى المعز لدين الله الصلاحيات الالزمة لمؤلاء المحتسبين، وكان ينتقيهم بنفسه من المخلصين له. اما المظالم فكان المعز لدين الله يوليه اهتمامه . . . وقد ذكر انه كان يجلس للمظالم بنفسه بعد ان قدم الى مصر، او ينوب عنه من يجلس اليها كيعقوب بن كلس، والحسين بن عمار.

وذكر القاضي النعمنا :

انه رفع الى المعز لدين الله . . . ان بعض الاطراف اتوا يشكرون اليه عاملاً كان عليهم، ورفعت له رقعة، وكانوا قد رفعوا قبل ذلك اخرى . . . فقال :

« عجباً لمؤلاء . . . يرون اننا في غفلة عنهم، وعن غيرهم، وما شغلنا اذا اشتغل ملوك الدنيا بذاتهم الا النظر في امور من قلدننا الله عز وجل امره، واسترعاها اياه، وانتم ترون ما نحن فيه في كل يوم . . . واما يلتذ بالدنيا من يرى انها حظه من الآخرة ولو لا ما نعلمه لنا عند الله عز وجل، ما نظرنا بعين لما نحن فيها من مزاولتها، وأهلها، . . . ثم نظر الى اي الى النعمنا » فقال :

قل لمؤلاء القوم . . . حسبي ان تعلموا ان خبركم انتهى، فامسکوا عن الشكوى، وكان قد بعث في عزل ذلك العامل . . . فوافي بعد ذلك ب ايام قليلة، واستعمل غيره مكانه » .

٤ - مظاهر الحياة الاجتماعية :

هذا لا ريب فيه، ان دراسة الحياة الاجتماعية في عهد الفاطميين، تستحق العناية والدراسة، وقد يرى الباحث المتعمق ان هذه الحياة قد تطورت في عهد المعز لدين الله، وخاصة بعد ان قدم الى مصر. فهذا الخليفة وضع اسس الحياة الاجتماعية، وأدخل في نطاقها الموسم، والاعياد، والاحتفالات الدينية، والقومية، وما صحبها من مظاهر النعيم، والثروة.

فليس من المبالغة بشيء، اذا ما قلنا : بان خزائن الدولة في عهد المعز

لدين الله قد امتلأت الاموال... ويرجع ذلك الى تنظيم الاقتصاد، والى تطبيق الانظمة المالية الدقيقة المتطورة ستها هذا الخليفة المصلح، لاستغلال موارد الدولة، وقد عرف انه رتب ايضاً امور الدعوة الدينية وخاصة مواردها المالية من الاتباع، والمربيين، ويدخل في نطاق ذلك الزكاة، او خمس الاموال... وهذه الاموال كانت تدفع الى صندوق المعز لدين الله الخاص، ولكنه كان يضيفها الى واردات الدولة العامة ويأمر بانفاقها في الطرق، والوجوه التي يعود نفعها على الدولة الفاطمية.

وتضخمت هذه الموازنة في عهد المعز لدين الله، وفاضت بالاموال حتى اصبحت الدولة الفاطمية تعتبر من اغنى دول العالم. وقد تجلّى كل ذلك في الاموال التي كان ينفقها المعز لدين الله على الحفلات، والاعياد والمواسم. وذكر التاريخ:

انه سنة ٣٥١ هـ. قرر المعز لدين الله ختان ابنائه... فأشرك الرعية في هذه الفرحة وحتم عليهم تقديم ابنائهم الصغار ليختنوا، وياخذوا لقاء ذلك من الدولة تعويضاً معلوماً... فتدفقت الاموال من مدينة المنصورية في المغرب الى الولايات الاخرى، وحول الخليفة الولاة دفع الاهبات، والنفقات والمدايا للصغار... فكان يعطي الطفل كسوة حسنة، ومبلغاً من المال يتراوح بين مائة وخمسين، ومائتي درهم... وذكر: انه اختن في المنصورية وحدها نحو ربع مليون من الصبيان.

وممّا يدل على ضخامة هذه النفقات بمناسبة هذا الختان... ان المعز لدين الله ارسل الى صقلية وحدها خسین حلاً من المال كل حمل مقداره عشرة الاف، دينار، وهذا غير الكسae... وقد تم كل هذا في برقة، وطرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش.

ويحدثنا النعماان في كتابه المجالس والمسايرات عن ذلك فيقول:
لما اراد المعز لدين الله ان يظهر اولاده: عبد الله، ونزار (اي العزيز

بالله) ، وعقيل ، تقدم الى خاصته ، وأولياته ، وسائر جنده ، وعيده ، وجميع رجاله ، وكل من بالحضره من سائر التجار ، والصناع وعامة الرعية بالمنصورية ، والقيروان ، وجميع اهل مدن افريقيا وكورها من حاضر ، وباد ، وأمر بالكتب الى العمال من لدن برقه وأعهاها الى سجلهاسته ، وحدودها ، وما بين ذلك ، وما حوتة مملكته ، والى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس من بدوي ، وحضر ، ان يتقدمو في ظهور ابنائهم يوم الثلاثاء اول يوم من شهر ربيع الأول سنة ٣٥١ هـ . الى انتضاء الشهر ، وأمر : ان يحمل الى كل بلد من هذه البلدان من الحضره اموال ، وخلع تفرق على كل من ظهر من ابناء المسلمين من خاص ، وعام .. فكان الذيرأينا قد حمل الى صقلية من المال خمسين حملًا سوى الخلع ، ومثل ذلك ونحوه الى كل عامل ليفرقه على اهل ولايته .

وتقدم في ظهور ولده ، وجلس بنفسه لظهور سائر اهل الحضره ، وما يليها من البوادي ، وأمر بضرب سرادقات بساحة قصر البحر حول الماء ، وبادخال الصبيان مع من اراد الدخول معهم من اباءهم ، وامهاتهم ، وعيدهم ، وخدمهم ، ومن ارادوا ان يظهروه من عبيدهم ، واعتمز ان يصل الطهور ايام هذا الشهر كله ... وكان يجلس من وقت الغداة فلا يزال جالساً ، وهم يطهرون ، ويرون بين يديه ، فيكون ، ويوصلون لا يحيط من ذلك منهم شريف ، ولا مشروف ، ولا حر ، ولا عبد ، ولا قريب ، ولا بعيد ، ولا حاضر ، ولا باد . والختانون في السرادقات على الكراسي ، وبين ايديهم المنابر لجلوس الصبيان والقوم يسكنونهم في حجورهم ، ويذرون الذروات المسككة للدم على اختانهم ، ويقفون بالبخور ، وماء الورد على رؤوسهم يرشونه على وجوههم ، لما يتعريهم من الروع ... وكانت هناك فرق تعزف وتلعب يلهوونهم ويصحبونهم الى متازفهم بعد انتهاء عملية الاختنان .

وأكثر الناس الخوض والحديث في ذلك ، وتعاظموه ، وأجعوا في ابتداء

الامر ان ذلك لا يتم ، وان الاموال لا تنہض به ، وذکروا لکثرة ما رأوه من الخلائق ان ذلك لو وصل حولاً لما انقطع الناس ، ولا اتى على آخرهم فيه ... وکنت : « يقول النعمان » ممن تعاظم ذلك ، وتداخله الاشغال .

وكل هذا يدل على ضخامة الاموال ، ووفرتها في خزائن الدولة ، ويدل ايضاً على كرم المعز لدين الله ، وجوده ، ورغبته في اسعد ، وترفه شعبه ، وقد حق له ان يفخر على معاصريه من الملوك والخلفاء ، والامراء الذين كانوا ينفقون الاموال في اللهو والمجون .

ويضيف النعمان :

كانت ايام هذا الشهر ايام اعياد ، ومسرات ، وأفراح ، وهبات في كل وجه ، وجهة من مملكة امير المؤمنين من بدء وحضر ، وقد عمهم فضله ، وغمرهم كرمه ، وارتافق به اغنيائهم ، وانتعش له فقراؤهم ، ودخلت المسرة على اهل كل بيت منهم ، وقد كان اثراً جميلاً لم يسبقه اليه احد من قبل ، ولا ظن ان احداً يتسع له مثله .

وهكذا انتشر الثناء عليه ، والدعاء له على السن العامة ، والخاصة ، المخالفين والمؤيدين لما ظهر من فضله على الفقراء ، والمساكين ، اذ كان احدهم يأتي بالثلاثة ، والاربعة ، او ربما اكثر من ولده فيأخذ لكل واحد منهم صلته ، وحقه .

وهذا ان دلّ على شيء ، فاما يدلّ على حب المعز لدين الله لرعايته ، وحبه عليها ، ومتانة ماليته ، واقتصاد دولته ، والتتفاف القلوب حوله . وليس هذا بالغريب على هذا الخليفة الكبير الذي خبره الشعب ، وعرفه مهتماً برعاياه ، وأنصاره ... فكثيراً ما كان يقدم الى الكثير منهم المستحقين الاموال الوفيرة ، ويشفق على فقرائهم ، ويساعد المرضى ، والمحاجين ، ويدخل السرور والطمأنينة على قلوبهم ، وكثيراً ما كان يبني الدور للفقراء منهم ، ويدلل في كل المناسبات عن انسابه للرسول الكريم ، وعن ورعيه ، وتقواه ، وایرانه بوطنه ، وبأمته .

اما ثروة بلاده، واقتاصادها ، فكانت في درجة عالية من الوفر... يدلنا على ذلك الاعانة العاجلة التي ارسلها من المغرب الى مصر عندما عصفت فيها المحنـة... وكان جوهر الصقلي فيها... فأرسل اليها الحبوب، والغلال، والاموال، وظل يمدـها حتى استقامت امورها ، وخفـت محنـتها .

ومن جهة اخرى... فـان الانفاق الذي كان ينفقه على حملاته، وفتوحاته يعطي الدليل على الثراء ، والاموال الكثيرة المتداقة على خزانة الدولة ، وعلى التنظيم المالي الذي ابتكره المعز لـدين الله ومن الجدير بالذكر انه استطاع توجيه الحرب كما يريد دون عجز... فذهبـت جيوشه تغزو بلاد المغرب ، فـتصل الى شواطئ الاطلسي ، ثم تتـابع الضربات ، وتهدـد الامـويـين في عـقر دارـهم ، كما تـقف بالمرصاد للبيزنطيـين ، فـتهـزمـهم في صقلية شـر هـزـمة ، وـتـستـولي عـلى بـعـض مـدن اـيـطالـيا الجنـوبـية ، حتى ان اـسـطـوـطاـها استطـاع اـكـثـر من مـرـة ان يـصـل الى سـرـديـنيـا... ويـجـب ان لا نـنسـى ان الحـمـلة التي اـرـسلـها الى مـصـر بـقـيـادة جـوـهـر فقد كـلـفت مـيزـانـية الدـولـة اـرـبـعـة وـعـشـرـين مـلـيـونـا من الدـنـانـير ، وـهـو مـبـلـغ كـبـير بـالـنـسـبة لـذـلـك العـهـد ، مـضـافـاً الى ذلك الـامـوال ، والـامـدادـات التي كانت تـرـسل تـبـاعـاً الى مـصـر.

وـمن مـظـاهـر الثـرـاء ، وـالـرـفـاه الـهـدـيـة التي اـرـسلـها القـائـد جـوـهـر الصـقـلي الى المعـز لـدين الله سـنة ٣٥٩ هـ فقد بلـغ عـدـدهـا: تـسـع وـتـسـعـون بـخـتـيـة ، وـاحـدى وـعـشـرون قـبـة عـلـيـها الـدـيـبـاجـ المـنسـوجـ بـالـذـهـبـ ، وـهـا مـنـاطـقـ منـ ذـهـبـ مـكـلـلةـ بـالـجـوـهـرـ ، وـمـائـة وـعـشـرون نـاقـةـ عـلـيـها الـأـجـلـةـ منـ الـدـيـبـاجـ ، وـاعـنةـ بـالـفـضـةـ ، وـخـمـسـيـةـ وـسـتـةـ وـخـمـسـونـ جـمـلاـ ، وـثـمـانـيـةـ وـارـبعـونـ دـاـبـةـ مـنـها بـغـلـةـ وـاحـدةـ ، وـسـبـعـةـ وـأـرـبعـونـ فـرـساـ بـأـحـلـةـ حـرـيرـ مـنـقـوشـ وـسـرـوجـ كـلـها مـا بـيـنـ ذـهـبـ ، وـفـضـةـ ، وـهـكـذاـ اللـجـمـ... وـلـيـسـ هـذـهـ الـهـدـيـةـ وـحـدـهـاـ التـيـ قـدـمـهـا جـوـهـرـ الىـ المعـزـ لـدينـ اللهـ ، فـهـنـاكـ الـهـدـيـةـ التـيـ قـدـمـهـاـ اليـهـ عـنـدـمـاـ وـصـلـ الىـ مـصـرـ... وـقـدـ ذـكـرـنـاـ عـنـهـاـ.

وـمن مـظـاهـر الثـرـاء ايـضاـ... ما اـحـضـرـهـ المعـزـ لـدينـ اللهـ منـ بلـادـ

المغرب ... والمعنى انه يدل على وفرة الاموال .

والحقيقة :

فان المعز الدين الله لم يكن يستخدم الاموال الا في سبيل النهوض بالدولة والدعوة الفاطمية فقد ذكر :

انه لما عزم على الانتقال الى مصر، جعل امواله على الف بغير ، كيما انه سلك الدنانير الذهبية على شكل طواحين ، وجعل على كل جل قطعتين ، كما جعل في وسط كل قطعة ثقباً تجمع به القطعة الاخرى ، فاستعظام ذلك الجند ، والرعية ، وصاروا يقفون في الطرق لمشاهدة هذه المناظر العجيبة التي لم يألفوها من قبل .

ونحن نعتقد :

بانه لو قدر للمعز الدين الله البقاء في مصر طويلاً ، لاستطاع ان يستغل موقعها الجغرافي في التجارة ، وخصص ارضها في الزراعة احسن استغلال ، وكانت خزائنه فاضت بالاموال ، وبالرغم من الاعوام القليلة التي قضتها في مصر ، فانه تركها في حالة جيدة .

ومما يدل ايضاً على وفرة ثروة مصر في عهد المعز الدين الله ... تلك الكسوة التي اعدها للكعبة الشريفة ، وهذه الكسوة فاقت الكسوة التي كان العباسيون يرسلونها الى الكعبة ، حتى اصبحت مضرب المثل ، ومثار الاعجاب ، ولم يستطع صانعو المجوهرات في تلك الايام ان يقدروا ثمنها الكبيرها ، ودقة صنعتها . وقد وصفها ابن ميسير في تاريخ مصر بقوله :

« سعتها اثنا عشر شبراً ، وارضها دبلاج احمر ، ودورها اثنا عشر هلالاً ذهباً ، في كل هلال اترجمة ذهب مشتبك ، وفي جوف كل اترجمة خمسون درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الاحمر والأصفر ، والازرق ، وقد كتب على دورها آيات الحج بزمرد اخضر ، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ، وحشو الشمسيّة المسلك والمسحوق .. فرأها الناس في القصر ، وفي

خارج القصر لعلو موضعها ، وانما نصيتها عدة فراشين بالنظر لنقل وزتها .

وهذه الكسوة صنعت في مصر ، وارسلت سنة ٣٦٢ هـ ، اي في نفس العام الذي وصل فيه المعز لدين الله إلى مصر .

ومن مظاهر التراث في عهد المعز لدين الله، تلك النهضة التي كانت ظاهرة في القصور الفاطمية الفخمة في المغرب ، وإنشاء البيساتين ، والحدائق ، والميادين ، والقنوات ، والبحيرات ... وهكذا في القاهرة العزيزة .

ومن الواضح ان قصور الفاطميين كانت في القاهرة آية في الابداع ، فقد كان لها مداخل كثيرة تفضي الى اروقة متواضعة ، والى ابهاء ، وافنية هي آية في الروعة ، والابداع ، حتى ان قصر البحر الذي تكلمنا عنه في المغرب كان مثلاً اعلى للقصور في العصور الوسطى ، فكان جزءه الأوسط اشبه بجزيرة تقع في وسط بحيرة وقد بلغ جزءه الخارجي الذي يحيط بالبركة من الاتساع بحيث يخيل الى الناظر انه مدينة قائمة بذاتها ، ولم يكن القصر الشرقي الكبير في القاهرة بأقل روعة من قصر البحرين في المنصورية .

وكان المعز لدين الله يجلس على سرير الملك بالایوان الكبير ، وكان هذا المجلس مضرب المثل في الاناقة ، وكان تعلق فيه ستور الديباج شتاءً ، والدببيق صيفاً ، وفرش الشتاء بسط الحرير عوضاً عن الصوف وهو مطابق لستور الديباج ، وفرش الصيف مطابقاً لستور الدببيق ما بين طبري ، وطبرستاني مذهب ومعدوم المثال .

ورأى المعز لدين الله سنة ٣٥٣ هـ انه يرسم مصورةً للعالم ، يوضح فيه موقع بلاد الحجاز فيه ، فعمل له ثوب حرير منسوج من الذهب .

وقد وصفه المقريزى بقوله :

« هو مقطع من الحرير الازرق التستري القرقوي ... غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائل الوان الحرير ، وفي المصير صورة اقاليم الارض ، وجبالها ، وبحارها ، ومدنها ، وأنهارها ، ومسالكها ... وفيه صورة مكة ،

والمدينة، واسم كل مدينة، وجبل، وبلد، ونهر، وبحر، وطريق بالذهب او بالفضة.

وليس ادل على تلك الثروة الطائلة من ان احدى بنات المعز لدين الله تركت ثروة لا تقل عن مليون ونصف دينار، كما تركت ابنته الثانية اموالاً كثيرة، وحلياً فاخرة ولا شك ان الامراء الفاطميين كانوا يشاركون الخلفاء في عظمتهم، وميلهم الى الظهور، ولا يقلون في ذلك عن الخلفاء انفسهم.

فقد ذكر:

ان «تغريد» زوجة المعز لدين الله انفقت من مالها الخاص على تشييد مسجد كبير في القرافة، كما اقامت قصراً في المحلة المذكورة الى جانب المسجد، وقد احاطته ببستان جميل، وأنشأت فيه حماماً، وبئراً.

وذكر ايضاً:

ان رشيدة ابنة المعز لدين الله تركت بعد وفاتها ثروة تقدر بما قيمته الف الف وسبعيناً الف دينار وهكذا ابنته الثانية عبدة فقد تركت من التحف، والتماثيل، والجواهر ما لا يمكن تقديره بشمن.

٥ - الحفلات والاعياد:

كان الفاطميون يقيمون الحفلات بمناسبة الاعياد، ويطبعونها بطابعهم الخاص... فكانت اعيادهم، او حفلاتهم في كل يوم جمعة، وصلاة العيددين، وتوزيع الحملات الحربية، ويوم عاشوراء، ومولد علي بن ابي طالب، وفاطمة الزهراء، ومولد الحسن، والحسين، وعيد الغدير، وليلة اول رجب، ونصف رجب، وأول شعبان، ونصفه، وغرة رمضان.

اما الاعياد المصرية، كعيد جبر الخليج، وعيد النوروز... فكانوا يحتفلون بها حتى انهم شاركوا الاقباط بيوم الغطاس، وخميس الجسد، وعيد الميلاد، وغيره.

وكان المعز لدين الله يغتنم فرصة هذه الاعياد، فيعطي الاعمال في

مصالح الدولة، فيقيم في قصره الاسمطة، ويدعى إليها قاضي القضاة، وكبار القواد، والموظفين، وكان ينفق عليها الاموال الطائلة حتى تظهر بظاهر النعم.

اما بالنسبة لعيد النوروز فقد اكدت المصادر التاريخية: ان المعز لدين الله امر بالغائه لانه غير اسلامي، ولأن الخلاعة، والمجون كانت تمارس خلاله.

٦ - النهضة الثقافية والعلوم:

تقدمت الثقافة تقدماً باهراً في عهد المعز لدين الله، ونهضت في البلاد نهضة علمية كانت موضع حديث المؤرخين، وخاصة النهضة التي كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالدعوة الاسماعيلية، وفلسفتها. وفي عهد المعز لدين الله نفع دعاة افذاذ، وشعراء، وادباء... ومن الجدير بالذكر: ان المعز لدين الله ساهم في هذه النهضة، فكان دماغها المفكر، والمخطط الاكبر لها.

وعلى العموم: فان العلوم الاسلامية ازدهرت في منتصف القرن الثالث، والرابع الهجريين... وقد رفع البوهيميون، والحمدانيون لواءها في المشرق، كما ساهم الامويون في الاندلس في هذه النهضة، ولكن المعز لدين الله فاقهم جميعاً، لانه كان يعتقد بان مثل هذه النهضة لا تكون صحيحة وتامة الا اذا قادها ابناء الرسول.

ومن الواضح:

ان المنصور بالله والمعز لدين الله امتاز بسرعة اطلاعه... ولم تشغله مهام الخلافة، واعباء الحكم، والحروب التي خاضها عن البحث، والتأليف، والنظر في العلوم، فكان كثيراً ما يحتم على ولده المعز لدين الله ان يتتوفر على الدرس، ويؤلف الكتب، ويقرض الشعر، كما كان يحث العلماء على الاستزادة من العلم كقوله للقاضي النعيم:

«يا نعماً استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة، وأنكرته».

وهذه البيئة العلمية التي شبّ فيها المعز الدين الله، وترعرع كان لها اثرها في تنمية مداركه، وسعة اطلاعه، وتضلعه في العلوم، حتى انه كان يحاضر العلماء، والنحاة، والفقهاء، ويناقشهم مناقشات تدل على سعة اطلاعه، ومقدراته العلمية.

وكانت مكتبة المعز الدين الله في المنصورية، ثم في القاهرة، زاخرة بالكتب... وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة، انه كان يعرف مواضع ما فيها من الكتب، وما تحويه من المعلومات.

وذكر النعماً:

انه امر مرة خازنه، ان يحضر له كتاباً، فلم يحضره على الفور، فقام، وبحث عن هذا الكتاب، ثم قرأه، واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم تلك الليلية في القراءة، وهو واقف على قدميه... وكان يقول:

«والله ما تلذذت بشيء تلذذ بالعلوم، والحكمة»

وكان المعز الدين الله يعقد المجالس العلمية، فيحضرها كبار رجال دولته، ومشايخها، وعلماؤها، وادباءها، فيظهر مقدرته الفائقة، ضالوعه في الفلسفة، وعلم التأويل، والحديث، والفقه... يدلنا على ذلك قول النعماً:

ان المعز الدين الله نظر في كل فن، وبرع في كل علم... فان تكلم في كل فن منها اربى على المتكلمين، وكان فيها نسيج وحده في العالمين. أما علم الباطن، ووجوهه فهو بحره الذي لا تخاض لجنته، ولا يدرك اخره. وأما القول في التوحيد، وتشبيت الدين، والرد على اهل البدع والملحدين، والغلاة، فهو واحده، وعلمه، ومناره، وعمدته، وأماماً الفقه، والحلال، والحرام، وسائل الفتيا، والاحكام فذلك مجده، وميدانه، وصنعته، وديوانه. وأماماً الطب، والهندسة، وعلم النجوم، والفلسفة، فأهل النقاد في كل فن من ذلك عيال بين يديه... يخترع لهم في كل يوم الصنائع ويبعد

لهم فيه البدائع ، من دقائق معانيه ، وما تحرر اذهانهم فيه »
وكان المعز لدين الله مشغوفاً بكتب الباطن خاصة ، حتى انه كان يجد
في ذلك لذة ، وفخرنا يصغرنا امامها جاء الخلافة . . . فهو يقول :

« اني لأجد من اللذة ، والراحة ، والمسرة في النظر في الحكمة ما لو
أوجده اهل الدنيا لاطرحوها لها ، ولو لا ما اوجب الله سبحانه عليه من امور
الدنيا لاهلها ، واقامة ظاهرها ، ومصالحهم فيها الرفضتها بالتلذذ بالحكمة ،
والنظر فيها ». .

وكان المعز لدين الله ايضاً يستحب هم المغاربة ، والمشارقة على السواء
للتزود من العلم ، ويلوم من يتقادع منهم عن ذلك ، وكان يعلم بان يحكم شعباً
مشققاً ، وكثيراً ما كان يصرح بجلساته بأنه مما يحيز في نفسه ان يرى الناس
ينهمكون في اللهو ، والبعث دون ان يحبوا البحث ، والاطلاع ، وتغذية
عقولهم بالعلوم والمعارف . واكثر من ذلك كان اذا ارق ، او احس بالملل
من مشاغل الحياة ، اكيى على الكتب يرتشف منها العلوم ، والفنون . وكذا
ذكرنا انه كان يجيد كافة اللغات السائدة في عصره .

وكان ايضاً يعمل على تشجيع العلماء ، ويقر لهم اليه ، ويدر عليهم
الاموال ، كما كان يشرف على مؤلفاتهم وبحوثهم ، ويتناولها بالتعديل ،
والتحبير ، والتصليح ، فيحذف ما يريد ، ويضيف اليها ما هو ضروري من
الآراء ، وينقد المؤلفين نقد العالم الصليع .

ومن الجدير بالذكر ان بعض الامراء الفاطميين ، والمستحبين من اهل
الدعوة طلبوا الى النعيمان وضع كتاب في اخبار الائمة الفاطميين ،
وأحاديثهم ، فوضع كتاباً سماه « الديتار » ثم قدمه للمعز لدين الله ومع علو
قدر النعيمان في التأليف ، فانه امده بكثير من الاراء . . . وكتب اليه يقول :

« وقفت على الكتاب ، وتصفحته فرأيت فيه ما اعجبني فيه من صحة
الرواية ، وجودة الاختصار ، ولكن فيه كلمات يعسر فهمها على كثير من

أولياته ، فاشرحها بما يقرب من افهمهم ، فيستوي في معرفته والاحاطة بعلم الفاظه الشريف ، والشرف ، فإنه يجيء طریفًا قریب المأخذ ، وسمه كتاب «الاختصار» لصحيح الآثار ، عن الائمة الاطهار... فان ذلك اشبه به من كتاب الدينار» .

وكان القاضي النعمن مع قدرته يقف من المعز لدين الله موقف التلميذ من معلمه... وقد تجلّى ذلك ان كتاب «دعائم الاسلام» المشهور للنعمان قد نصّ عليه فصوله ، وفرع فروعه .

وهكذا بالنسبة للدعاة الآخرين : كجعفر بن منصور اليمن ، ويعقوب ابن كلس ... ومن أشهر العلوم التي اشتغل بها العلماء في عهده : التفسير ، والحديث ، والمناظرة ، والفقه ، والتأويل ، والكلام ، والعقائد ، والوعظ ، والفلسفة .

وصفوة القول : انه كان من افذاذ عصره في العلم ، والتصنيف ، والادب ، حتى نسب اليه الكثير من الكتب ، مثل كتاب الروضة ، والرسالة المسيحية ، وكتاب المناجاة ، وغيرها من الكتب التي لم يبق لها اي اثر... وهذا بالإضافة الى نهضة الشعر في عصره التي حل لواوها ابن هاني الاندلسي ، وولده تميم .

ولم يقف نشاط المعز لدين الله على نشر الثقافة العامة وحدها ، بل تجاوزه الى نشر المذهب الاسعاعيلي ووضع لها نظاماً مفصلاً للاستفادة منها ، ولكي تجد في عقول رجال الدعوة ، والمستجيبين ، والمؤمنين مجالاً خصباً ... فكان يجتمع الى الدعاة الكبار في اماكن خاصة ، ويقرأ عليهم المحاضرات ، والتعاليم في اصول ، وقواعد المذهب ، والحكمة ، والعلم الحقيقى ... وهذه الاجتماعات كانت تسمى « مجالس الحكمة » ثم تطورت فيها بعد ، فأصبحت تدرس في المساجد ، وفي قاعات قصر الخلافة .

ومن الواضح : ان الفاطميين في المغرب كانوا يعنون بنشر تعليم الدعوة... فقد ذكر :

ان المنصور بالله كان كثيراً ما يشرح للمعز لدين الله بعض كتب الباطن الرمزية ، والفلسفة المعقّدة ، حتى انه كثيراً ما قال له :

« كنتُ احب ان اعيش لك اكثراً مما عشت لأفديك وأزيدك »

ولما ولـي المـعـز لـدـيـن اللـه الـخـلـافـة اـعـتـبـر ان هـذـا الـوـاجـب يـجـب ان يـكـون جـزـءـاً مـن سـيـاسـة الدـوـلـة ، فـسـنـ السـنـن ، وـحـتـمـ على اـتـبـاعـه قـبـوـلـها ، وـالـعـمـلـ بـهـا .

وـخـصـصـ المـعـز لـدـيـن اللـه وـقـتاً لـأـخـذـ الـعـهـودـ عـلـىـ الـمـسـتـجـبـيـنـ ، وـالـدـاخـلـيـنـ فـيـ الدـعـوـةـ ، وـلـمـ يـكـنـ يـرـضـيـ انـ يـقـومـ اـحـدـ غـيـرـهـ بـهـذـهـ الـمـهـمـةـ ، وـلـذـلـكـ وـفـدـ النـاسـ مـنـ الـمـشـرـقـ ، وـالـمـغـرـبـ ، وـكـثـرـ عـدـدـ الـمـسـتـجـبـيـنـ ، وـعـظـمـتـ رـغـبـاتـهـمـ ، وـاقـبـلـواـ يـقـطـعـونـ الـبـحـارـ ، وـالـقـفـارـ نـيلـ بـرـكـاتـهـ ، وـسـمـاعـ وـصـایـاهـ .

وـكـانـ يـعـنىـ عـنـاـيـةـ خـاصـةـ بـتـلـقـيـنـ دـعـاتـهـ خـصـائـصـ الـمـذـهـبـ الـإـسـمـاعـيـلـيـ ، وـأـسـرـارـهـ اوـ ماـ يـسـمـىـ عـلـومـ الـبـاطـنـ فـأـخـرـجـ منـ خـزـائـنـهـ الـخـاصـةـ الـكـتـبـ الـتـيـ وـرـثـهـ عـنـ أـبـائـهـ . . . وـجـعـلـهـاـ فيـ مـتـنـاـوـلـ كـبـارـ الـدـعـاـةـ .

وـمـنـ الـجـدـيرـ بـالـذـكـرـ انـ هـؤـلـاءـ الـدـعـاـةـ كـانـوـاـ يـنـقـسـمـونـ إـلـىـ صـفـوـفـ لـكـلـ مـنـهـاـ عـلـومـ خـاصـةـ بـهـ ، وـبـفـضـلـ هـذـاـ التـنـظـيمـ . وـهـذـهـ الـنـهـضـةـ حـلـتـ الـأـمـوـالـ إـلـىـ صـنـدـوقـ الـدـعـوـةـ ، وـاـصـبـحـتـ دـعـامـةـ كـبـرـىـ لـلـدـوـلـةـ الـفـاطـمـيـةـ .

ويـجـبـ انـ نـشـيرـ : انـ كـتـبـ الـدـعـوـةـ الـتـيـ تـكـلـمـنـاـ عـنـهـاـ ، كـانـتـ زـاـخـرـةـ بـالـنـصـائـحـ الـتـيـ تـوـجـهـ الـدـعـاـةـ لـيـسـرـوـاـ عـلـىـ هـدـيـهـاـ فـيـ تـلـقـيـنـ عـقـائـدـ الـمـذـهـبـ ، وـلـيـكـونـوـاـ مـنـ الـفـرـاسـةـ بـجـيـثـ يـسـتـطـعـونـ اـنـ يـيـزـوـاـ بـيـنـ الـمـسـتـجـبـيـنـ ، وـيـلـقـنـوـاـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ مـقـدـارـ مـاـ يـسـتـحـقـهـ .

وـهـذـهـ الـكـتـبـ اـيـضاًـ رـسـمـتـ الـخـطـةـ لـلـدـعـوـةـ الرـسـمـيـةـ الـتـيـ يـجـبـ عـلـىـ الدـاعـيـ سـلـوكـهـاـ لـتـلـقـيـنـ مـبـادـىـءـ الـدـعـوـةـ ، فـيـسـرـ معـهـمـ فـيـ خـطـىـ مـتـئـدةـ ، حـتـىـ لاـ تـضـيـعـ الـبـذـورـ فـيـ اـرـضـ سـبـحةـ ، وـلـاـ يـنـحرـفـ عـنـ السـبـيلـ ، اوـ يـنـعـكـسـ عـلـيـهـ قـصـدهـ ، فـتـصـابـ الـدـعـوـةـ بـالـخـيـبةـ ، وـالـخـذـلـاـنـ . وـقـدـ اوـضـحـ المـعـزـ لـدـيـنـ اللـهـ ذـلـكـ بـقـوـلـهـ : يـنـبـغـيـ لـلـدـاعـيـ اـخـتـيـارـ اـمـرـ مـنـ يـدـعـوهـ ، وـتـعـرـفـ اـحـواـلـهـ رـجـلاـ ،

وغير كل أمرٍ منهم ومعرفة ما يصلح له، إن يؤتى إليه، ويحمله عليه من أمر الله، وأمر أوليائه، ومقدار ما يحمله من ذلك، ومدى قوته، وطاقته، ومدى يوصل ذلك إليه، وكيف يغدوه به، وامتحان الرجال، وتعرف الاحوال ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات، والقدرات.

وهكذا رسم للدعاة خطة تنظيم العلاقة بين الداعي والمستجبيين، والطريق الذي يجب أن يسلكوه مع مدعويهم، فأبان لهم وجوب الظهور بظهور الوقار، والاجلال. ليكون ذلك مدعاة إلى تفاني المدعويين في الالتفاف حولهم، وإن يكون مصدر هيبة الداعي، ووقاره .. فيكون:

حسن الصوت، خفيف، الجناح، لين الجانب، حسن العشرة، جميل المخالقة، من غير تكبر ولا تكبر .. بل يكون التواضع سيهـ، والوقار همته .

وهكذا كان للفاطميين في البلاد التي يدعون فيها لمذهبهم تشريع خاص في معاملتهم أهالي هذه البلاد، كما كانت لهم ثقافة، وصلة، وأذان، وعبادات مقرره، ولا غروًـ فإن كل اسماعيليـ منها بعدت دياره كان يحن إلى الدولة الفاطمية، ويسعى إلى دعمها، وتلبية ما تفرضه عليه مبادئها، ونظمها... وبهذا نستطيع أن نقول إن المعز لدين الله، وجهـ الدعوة الباطنية توجيهاً صحيحاًـ كما وجهـ الدولة توجيهاً سياسياً عظيماًـ، ويتجلىـ كل ذلك بما نطقـ به الدعاة الذين جاءواـ من المشرقـ بالاموالـ، وعندما كانواـ يتأنبونـ للعودةـ قالـواـ :

«لا جعل الله آخر عهـدناـ بكـ، فـما اـشـدـ عـلـيـنـاـ فـرـاقـكـ لـوـلـاـ ماـ نـرـجـوـهـ فيـ اـمـتـثالـ اـمـرـكـ ، وـاـنـاـ لـذـكـ شـخـصـنـاـ عـنـكـ ، وـفـارـقـنـاـكـ ...»ـ فقالـ لهمـ:

«اـذاـ كـانـ اـعـتـقـادـكـ وـلـاـ يـتـنـاـ ، وـاـمـتـالـ اـمـرـنـاـ ، وـطـاعـتـنـاـ ، وـتـسـلـيمـ لـنـاـ ، وـوـصـلـكـ ذـكـ قـوـلـاـ وـفـعـلـاـ ، فـأـنـتـمـ مـعـنـاـ حـيـثـ كـنـتـ...ـ مـتـصـلـةـ اـرـواـحـنـاـ بـأـرـواـحـكـ ، وـمـوـدـتـنـاـ بـمـوـدـتـكـ ..ـ وـمـنـ كـانـ عـلـىـ خـلـافـ ذـكـ لـمـ يـنـفـعـهـ قـرـبـهـ مـنـاـ ، لـاـنـ اـلـاتـصـالـ لـاـ يـكـونـ بـتـقـارـبـ الـاجـسـامـ ، وـاـنـاـ يـكـونـ عـنـ تـقـارـبـ الـانـفـسـ ،

فأنفسكم ما كنتم على ما وصفنا قربة من انفسنا ، وان بعدت الاجسام ، ونأت المنازل ، ومطابقة اخسن ، وأقرب ، وألصق من مطابقة الأهل ، والقرابة ، وانتم واجدون مثـا مالا تجدونه من الآباء ، والامهات .. ان احستم احستم الى انفسكم ، شكرنا ذلك من امركم ، وعرفنا فضله لكم ، وجزيئكم به .. وان اسأتم صفحنا عـما يحب ... صفحـه عنكم ، وكل انسان منكم ينظر لنفسـه ، ويکدح لها ، ونحن ننظر ، ونعني لصلاح جميعكم . فأعینـونا على ذلك بتقوى الله ، وامتثال امره ، والانتهاء بنهـيه ، فانـكم اذا فعلـتم ذلك اصلاح الله حـالكم ، وأجزـل اجرـكم ، وأقرـ اعينـكم ، واعـينـنا بـكم ... وعن قـرـيب تـرونـ من صـنـع الله ، وفضـله ما تحـبـونـه ان شـاء الله ».

هذه هي اهم مظاهر الدعوة الاسعاعية ، كما كانت الدولة الفاطمية تقوم بنشرها ... ومعنى ذلك انه كان لهم منهجين: المنهج العلني ، والمنهج السري ... اما المنهج العلني فكان يقوم به الوزراء ، والولاة بحيث يرضي العامة جميعها ... وأما المنهج السري فقد كان المسؤول عنه الخليفة الفاطمي نفسه .

وهذه هي التعاليم التي اقرـها المعـز لـدين الله ، وجعلـها دستورـا للـدعاـة ، والـمستـجـيبـين :

« ان يبدأوا بصلاح أنفسـهم فـهم اـحق النـاس بالـورـع ، والـصلاح ، والتـقوـى ، والـعـفـاف ، والـعـمل بكلـ صـالـحة ، واجـتنـاب كلـ مـكـروـه .. وهذا يـابـ ايـضاـ يـدخلـ فيـه جـمـاعة المؤـمنـين ... لـقول الصـادـق جـعـفرـ بنـ مـحـمـدـ لـكـافـةـ شـيعـتهـ منـ تـطلـقـ لهـ الدـعـوـةـ :

كونـوا لـنـا دـعـاـةـ صـامـتـين ... ثمـ بينـ ذـلـكـ ، وأـخـبـرـهـمـ انـهـمـ اذاـ عـمـلـواـ صـالـحاـ ، عـلـمـ النـاسـ انـهـمـ خـيرـ ، فـدـخـلـواـ فـيـ جـلـتـهـمـ ، وـكـانـواـ دـعـاـتـهـمـ باـعـهـلـمـ لاـ بـالـسـتـهـمـ ، وـكـلـ مـؤـمـنـ يـعـمـلـ خـيرـ ، فـهـوـ دـاعـ اـلـىـ الـائـةـ ، وـلـكـنـ سـيـلـهـ ماـ حـدـ لـهـ ، لـاـ يـنـبـغـيـ اـنـ يـتـجـاـوزـهـ اوـ يـقـصـرـ عـنـهـ . فـرـأـسـ اـمـرـ الدـعـاـةـ اـلـىـ اـولـيـاءـ اللهـ ، وـسـيـدـ اـعـهـلـمـ ، وـقطـبـ اـمـرـهـمـ ، صـلاحـ اـنـفـسـهـمـ بـالـدـيـنـ الصـادـقـ ،

والورع الحاجز ، والدعاة بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة .

ثم ينبغي للداعي اختيار امر من يدعوه ، وتعرف احوالهم رجلاً رجلاً ، وتميز كل امرىء منهم ، ومعرفة ما يصلح له ان يؤتي اليه ، ويحمله من امر الله ، وامر اولياته ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، ومدى قوته ، وطاقته ، ومتى يوصل ذلك اليه ، وكيف يغدوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الاحوال ، ومقدار القوى ، ومبلغ الطاقات .

وعلم ذلك هو افضل ما يحتاج اليه الدعاة في باب السياسات ، والرياضات ، فكثير ما فسد امر الداعي من جهله بهذا الباب ، وفسدت دعوته منه ، وقد يعترف من يجوز عليه التضييع من الدعاة ، وينفق عنده منهم وتجوز عليه الحيل ، من الفساد في امره ، والخلل في دعوته ، ما يطول القول بذكره .

في ينبغي للداعي ان يحكم امر هذا الوجه من نفسه ، ويكون اسبق اهل دعوته به ، وأقربهم منه ، وأحقهم بفوائده ، من حست نيته ، وصفت طويته ، ودق ذهنه ، وصح اعتقاده ، وجاد عقله ، وملك سره ، وقام بفرضه ما كان ، مما كثر او قل ، شرف عند الناس من كانت هذه حالة ، او الخطأ لديهم ، او صغر او كبر عندهم ، الا ان يحتاج الداعي الى استئالة الاشراف في حال ما يستميلهم ، كما تستمال المؤلفة قلوبهم على مقدار احوالهم ... فان التقريب على الدين ، والتفصيل به ، والترفع لاهله ... اقرب الى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه .

وي ينبغي للداعي ان يتهيّب عند اهل دعوته ، وان لا يعودهم الجرأة عليه ، ولا يبسطهم كل البساط لديه فيهون عندهم ، ويصغر امره لديهم ، فانه كلما كان اهيب عندهم ، كانوا اكثر انتفاعاً به ، وأحرى عنده ، ول يكن تهبيه ذلك ، بحسن الصمت ، وخفض الجناح ، ولین الجانب ، وحسن العشرة ، وجيل المخالفة ، من تجبر عليهم ، ولا تكبر في امره عليهم ، بل يكون التواضع سياء ، والوقار همته .

وقد جاء عن الصادق جعفر بن محمد انه قال :
اطلبو العلم ، وتزينوا معه بالوقار ، والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ،
ولمن تعلموه ، ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم ... وقال :
من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويحاري به السفهاء ، او يصرف به
وجوه الناس اليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبواً مقعده من النار .. ان الرئاسة لا
تصلح الا لاهلها .

فينبغي للداعي ان يكون مهياً في غير تكبر ، ولا صلف ، متواضعاً لا
لمهانة ، ولا لضعف ، فان اجتمع له امره ، واستحكم ، واتصل له مراده ،
واننظم وعده في اهل دعوته ، وعظم ، فليحسن الى محسنهم ويقر لهم على
درجاتهم ، وينزلهم على طبقات اعياهم ، ولا يهمل امرهم ، فيدع عقوبهم على
ما يتضح له من ذنبهم ، ويصبح له من اساءتهم . فقد كان من استحكم امره
من الدعوة . يؤدب من ادب من اهل دعوته لصنوف من الادب ، فيقضي
بعضهم ، ويهجره ، ويأمر المؤمنين ان يهجروه ، فلا يكلمه احد منهم ، ولا
يدانيه ، فيبقى مهجوراً في قومه مبعداً في اهله ، وخاصته ، حتى تصيق
الارض عليه برحبها ، ويطارح عليه في التوبية ، وقبوها ، ويتحنه بما شاء ان
يتحنه في نفسه ، او في ماله ، او فيما رأه من احواله ، بعد المدة الطويلة ،
والنكارة الشديدة ، ومنهم من يبتنته على رؤوس الملأ ، ومنهم من يذله ،
ويوجه في الخلاء ، ومنهم من يأمر بجلده ، ومنهم من يمضي العقوبة في
قتله ، ويتحزن بذلك اقرب الناس اليه . فيأمر الاخ بقتل اخيه ، والخمير
قتل حيمه ، فيقتله ، ويكون ذلك محننة القاتل في نفسه ، وعزاء في وليه ،
اذا لم يل امره غيره ، وصلاحاً في ان يسلم من الحقد قلبه ، فيعاقب كل
امريء منهم بقدر ذنبه ، ويجعل العقوبة له بحسبه ، ولم يكن يحمل شيئاً من
امرهم . فاستقامت لذلك ارادته منهم .

وقد قال علي :

ان الله جلّ ذكره ادب هذه الامة بالسيف ، والسوط ، ليس عند الامام فيها هواة ، ولو علم الله جلّ ثناؤه ان عباده يصلحهم التجاوز عنهم ، لأمر به .. ولكن جلّ ثناؤه ، حدّ حدود الذنب بهم ، اذا علم - لا شريك له - ان بها صلاحهم ... فجعل حد القاتل في العمد القتل ، وجعل في الخطأ الدية ، وحكم في الزاني المتصنّن بالرجم ، وفي البكر بالجلد ، وفي السارق بالقطع ، وفي المحارب بالصلب ، او النفي ، وقطع اليد ، والرجل ، والقاذف بالجلد ، وفي الشارب بالحد في حدود فصلها ، واحكام افترضها ، وأجرتها .

وطبقات الدعاة ، والولاة ... ينبغي لهم التأدب بكل ما جرى ذكره في هذا الكتاب ، والتحلّق به واعتقاده قولًا ، وعملًا ، ودينًا ، ونية .. ولذلك اجريت ذكرهم فيه ، واهم أخص بالائمة .. صلوات الله عليهم من كثير من قدمنا ذكرهم .

فإذا تأدب المبتدئ بها أولاً . فأولاً ، واستعملها باباً باباً ، صار إلى درجة هؤلاء ، ودخل في جملتهم . »

كلمة اخيرة في المعز لدين الله :

كان عصر المعز ل الدين الله حافلاً بمظاهر القوة ، والعزة ، والعظمة ... فهذا الخليفة العالم الفيلسوف ، استطاع بما اوتته من ذكاء ، وصدق ، ومهارة في الامور السياسية ، والادارية ، والحرسية ان يوحد بلاد المغرب تحت رايته ، وان يحقق الانتصارات الرائعة على الامويين ، وعلى حلفائهم الروم حتى ان الامويين في قرطبة كانوا يخشون على بلادهم من ان تقع في قبضته ، وسارع الروم اخيراً الى عقد الصلح معه بعد ان اصبحت بلادهم الساحلية تحت رحمة اسطوله . وبعد ان اتخذ من صقلية ، وكربيلا جسراً للعبور الى ايطاليا شمالاً ، والى مصر ، والشام شرقاً ، حتى يتمكن من الوصول الى بغداد اخيراً ، والى القسطنطينية بعد ذلك ... وبهذا يكون قد حقق الوحدة العربية الشاملة ، او ما يسمى بالامبراطورية الفاطمية .

ونشر المعز ل الدين الله مبادئ الدعوة الاسماعيلية ... فأنفذ دعاته الى كل

مكان ، وزوّدهم بنشراته ، ومحاضراته ، وكان لنظم الحكم الدقيقة التي سار عليها اثره البعيد في رقي بلاده ، لانه كان بالفعل يمثل الحكم المستير القوي العادل الذي يجمع في يديه كافة الصالحيات ، والسلطات . . فجاءت نظم الحكم التي سنّها ، وابتدعها مثلاً أعلى في الدقة ، والتنظيم .

وان مدينة القاهرة المعزّة التي تعد الآن من امهات مدن العالم ، وجامعة الازهر مدینتان بوجودهما لهذا الخليفة المصلح الكبير .

اجل ... اعتبر التاريخ المعز ل الدين الله من كبار رجال عصره . . فقد فاق اقرانه ، ومنافسيه علمًا وسياسة وحربا .

اننا لا نغالي اذا ما قلنا، ان الفاطميين في كافة ادوار حكمهم قدموا كل ما يمكن ان يقدمه المصلحون لرعايتهم ، وللنہوض بدولتهم . . فقد كان برناجهم اصلاحي شامل يقوم على توحيد كلمة الرأي العام الاسلامي بوجه عام ، والعريي بوجه خاص . . وعندما جاء المعز ل الدين الله نفذ هذا البرنامج على اعتبار انه من اكابر المصلحين المسلمين ، ومن دعوة الوحدة العربية الشاملة .

وان المتتبع لدراسة تاريخ الفاطميين يرى : انهم عندما جازت عليهم القدر لجأوا الى بلد عربي اسلامي ، وقاموا بنشاطهم ضمن البلدان الاسلامية ، وحينما اقاموا دولتهم ، اقاموها في بلد اسلامي ، بالرغم من ان ذلك كان متيسراً لهم في فارس او في خراسان .

ونحن عندما نرى المعز ل الدين الله يوجه جهوده لتوحيد اجزاء المغرب ، وبعد ان تم له ذلك اتجه الى المشرق اي الى مصر . . وبذلك اقام الوحدة العربية الافريقية ، ولم يتحالف ضد الامويين في الاندلس ، بل تركهم ، وشأنهم ، وذلك لكي لا يجعل للروم متذذاً الى البلاد الاسلامية . . وكل هذا يدل على صدق عروبة الفاطميين وحسن اسلامهم .

اجل . . لقد كانت امنية المعز ل الدين الله ان يبعث الدولة العربية

الاسلامية الواحدة.. وقد حال دون تحقيق هذه الامنية ثورة القرامطة، وتعاون البوهيميين، والعباسيين، والحمدانيين، والاتراك والروم احياناً... فاستطاعت بغداد ان تبقى تحت رحمة الفرس، والاتراك، والحمدانيين تحت رعاية الروم.

رحم الله العز لدين الله... فان في تاريخه كل عزة وفخر... وحبدا لو ان القاهرة المعزية التي اشادها، وفت له بعض ما عليها، وفكّر القائمون عليها اقامة احتفال بمناسبة مرور الف عام على بنائها.

وحبدا لو ان العز لدين الله جعل اقامته ستة اشهر في المغرب، وستة اشهر في المشرق... اذن لظللت اعلام الدولة الفاطمية ترفرف على المشرق والمغرب اجالاً طوالاً وما استطاع المغاربة ان يعلنوا الانفصال عن المشرقيين في عهد الفاطميين المتأخر، ول كانت الامور ظلت على حالتها دونما اي تغيير او تعديل.

ولكن لربك في ذلك شأن وهو اعلم...

اعلام الادب والشعر والفلسفة: في عهد المعز لدين الله

١ - جعفر بن منصور اليمن

عرف جعفر بن منصور اليمن «ابن حوشب» بانه من كبار دعاة الفاطميين الذين كانوا مكلفين بشؤون الدعوة في اليمن، وعند خلع أخيه ابو الحسن بن منصور اليمن طاعة عبيد الله المهدي في اخريات ايامه، عارضه جعفر وابنه، ولما لم يستطع اقناعه او ردعه، تركه وغادر اليمن الى المغرب وذلك سنة ٣٢٢ هـ . وهناك التحق بال الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله الذي منحه الرعاية التامة، وفي عهد المنصور بالله ظلّ متمتعاً بالتقدير والاحترام، وقيماً على شؤون الدعوة... وفي عهد المعز لدين الله اصبح «باب الأبواب» او «داعي الدعوة» .. وعندما غادر المعز لدين الله المغرب الى مصر رافقه، وظلّ على رأس منصبه حتى وفاته .

من مآثره انه كان يراسل اخاه، ويؤنبه على نكرانه، وخيانته . ويقول الحمادي الياني :

انه دخل على أخيه في آخر لقاء بينهما ، وقال له :
قطعت يدك بيديك ... ومن المغرب ارسل له عتاباً قاسياً ، وما جاء فيه قوله :

فكنتم تهدمون وأبني — وشنان من يبني ، وأخر يهدم
امتاز جعفر بن منصور بنشاطه الفكري في حقل التأليف، وفي مجال
الفلسفة الدينية، وكان خصباً في الانتاج ولكن مؤلفاته كما ظهرت لنا على

وضعها الحالي ترتدى طابع التعقيد، والابتعاد عن الهدف، وفيها أيضاً عبارات من الغلو لا تتفق، والاراء الفاطمية، وقد وصفها أحد الدعاة بأنها قريبة من الاراء القرمطية المتطرفة، ومن هنا يمكن القول بان الايدي قد اعتبرتها تغييراً، وتعديلأً... فنحن لا نصدق الا انها عرضت على المعتذرين الله ونعتقد: ان المعتذر لـ الله لا يمكن ان يسمح بها وهي على وضعها الحالي .

ذكر:

ان القاضي النعمان مرض وهو بمصر، فزاره العديد من علية القوم، ومنهم جعفر بن منصور فلما اقبل النعمان من مرضه سأله المعتذر لـ الله عن من زاره اثناء مرضه؟ فذكر الاسماء جميعها دون ان يذكر جعفر، ولكن المعتذر لـ الله اخذ يطوي جعفر... ثم قدم الى النعمان رسالة، وطلب منه قراءتها .. فنالت اعجابه ، وظنّ انها من تأليف الخليفة ... ولكن المعتذر لـ الله اجابه بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور. وعندما ادرك النعمان ان جعفر له هذه المكانة عند المعتذر لـ الدين الله... ذهب اليه ، وعبر له عن اصدق عواطفه وتقديره .

مات جعفر بن منصور اليمني في مصر، ولكن لم يعرف تاريخ وفاته .

لـ جعفر بن منصور اليمني العديد من المؤلفات . ومن اهمها :

كتاب : تأویل الزکاة .. او كتاب الفرائض وحدود الدين

كتاب : سرائر النطقاء

كتاب : اسرار النطقاء

كتاب : الشواهد والبيان

كتاب : الكشف

كتاب : الفترات ، والقراءات .

٢- يعقوب بن كلس :

هو: علم من اعلام الدولة الفاطمية، بل شخصية من اعظم الشخصيات التي خدمت الدولة الفاطمية، وأدّت لها اجل الخدمات، بالإضافة الى ما كان لها من اثر بارز في الحياة الفكرية بمصر.

هو: ابو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس. ولد في بغداد من اسرة يهودية، ونشأ فيها حيث درس الكتابة، والحساب، وبعد ذلك اتّخذ التجارة مهنة، ومتّكّساً بها، فبدأ بعاونته والده في هذا المجال ثم رحل معه الى الشام في بعض المسائل التجارية، وبعدها جاء الى الرملة، وأقام فيها، وصار وكيلاً لبعض التجار ومنها انتقل الى مصر للقيام فيها ببعض الاعمال التجارية، وكان يحكمها في تلك الفترة «كافور» الاخشيدى وذلك سنة ٣٣٤ هـ. وهناك تمكن بفضل مرونته وجرأته من الاتصال يكافور.. فأحّله من نفسه محل العطف والرعاية لما انسه فيه من علو النفس، والجذب، والهمة، والنشاط، والامانة. فعيّنه في ديوانه الخاص، وأُسند اليه مهمة استشارية، وفي الوقت هذا اعتنق الاسلام، فزادت خطوطه عند كافور، ولزم دراسة القرآن. ورتب له كافور رجالاً من العلماء درسوه اصول الدين الاسلامي، فاجتهد في الدرس، والتحصيل حتى بلغ فيها درجة عالية، وقد اثار تقرير كافور اليه حسد الوزير جعفر بن الفرات، فنصب له الحبائل، لاخرجها من البلاد. وبعد وفاة كافور القى ابن الفرات القبض عليه وسجنه، ولكنّه تمكن من الفرار، وهرب الى المغرب حيث اتصل بالخليفة الفاطمي المعز لدين الله، فقربه، وعطّف عليه، وما زال عنده، حتى تم فتح مصر... فجاء اليها مع المعز لدين الله .

يذكر بعض المؤرخين :

ان ابن كلس منذ ان كان يقوم في مصر بخدمة كافور، كان على اتصال بداعية الفاطميين يزودهم سراً بكل شاردة، وواردة عن مصر، وأحوالها، وبعد ان استتب الامر للمعز لدين الله، ونقل عاصمة ملكه الى

القاهرة عَيْن ابن كلس على الخراج، وجميع وجوه الحسبة، والأموال، فاستمرَّ في عمله، واكتسب حب وثقة الخليفة، كما ولأه النظر في جميع أمور قصره، وبعد وفاة المعز لدين الله ازدادت مكانته عند الخليفة الخامس العزيز بالله، وكان في تلك المدة قد تعمق في دراسة الدين الإسلامي، والفقه الفاطمي المجهري خاصة، فأصبح من أعلام علماء الدعوة الفاطمية.

اننا لا ندري السبب الذي لاجله اعتقل في قصره سنة ٣٧٣ هـ لمدة عدة أشهر... ثم لا ندري سبب اطلاق سراحه من قبل الخليفة سنة ٣٧٤ هـ، بعد ان اصدر امراً بحمله في موكب الى القصر، ثم قرأ سجلاً بعودته الى منصبه من جديد. وقد ذكر احد المصادر:

ان سبب اعتقاله كان بسبب تهمة الصفت به بأنه دسَّ السم بالطعام للقائد التركي افتكتين ولكن ثبتت فيما بعد براءته

كان له في الدولة الفاطمية سلطان، ومكانة رفيعة، وكان محباً للعلم، وللعلماء مشجعاً لهم يغدق المنح والعطايا على الكتاب، والشعراء. وذكر التاريخ:

انه كان يجمع عنده العلماء، والفقهاء، ويقيم في منزله الكتاب لننسخ القرآن الكريم، وأخرون لننسخ كتب الحديث، والفقه، والأدب، والطبع، وكان كل يوم ينصب خواناً لخاسته من أهل العلم والكتاب، وخواص الاتباع، والجلساء، وقد عرف من هؤلاء:

الحسين بن عبد الرحيم الزلازي مصنف كتاب «الاسجاع» والتميمي المقدسي الطبيب، والبديري الذي اخذ ابن كلس عنه علم العروض.

اما في الفقه الفاطمي فقد بلغ هو نفسه درجة اهلته لأن يؤلف الكتب، وقد رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيها مصنفاته على الناس، وكان يحضر هذا المجلس القضاة، والفقهاء، القراء، والنحاة، وجميع أرباب الفضائل، ووجوه الدولة. كما انه رتب مجلساً آخر للفقهاء،

والمتكلمين ، واهل الجدل ... وكلهم كانوا يشتراكون بالمناظرات بين يديه .

وذكر :

ان مؤلفاته بلغت العشرين مجلداً جميعها فقدت ، ولم يبق منها الا «رسالة الوزيرية» في مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذي طلب الخليفة الفاطمي السادس الظاهر لاعزاز دين الله من الناس ان يحفظوه . وذكر :

ان القضاة كانوا يصدرون فتاويم بوجبه ... هذا ويجب ان لا ننسى ان ابن كلس هو صاحب فكرة تحويل الجامع الازهر الى جامعة علمية .. وقد عرف انه رتب للعلماء ، وللمدرسين الذين يدرسون فيه الرواتب ، والارزاق . ومعنى هذا كله انه رعى العلم ، والعلماء ، وشجع الادب ، والادباء فاتسعت بمساعيه الثقافة ، وازاداد الاقبال على العلم .. كما ان الشعر لقي على يديه التشجيع . فقد كان للشعراء في انشاد الشعر بحضوره .. مغدقاً عليهم الاهبات ، والعطایا .

وذكر التاريخ :

ان الخليفة العزيز بالله حزن عليه عندما ظهرت علته ... وقد عاده وقال في اثر ذلك :

« وددت لو انك تبتاع ، فأبتاعك بمالك ، او تفدى فأتفدى بولدي »

توفي يعقوب بن كلس سنة ٣٨٠ هـ . واجتمع الناس فيها بين القصر ، وداره لتشييعه الى مقره الاخير ، وخرج الخليفة العزيز بالله على بغلة ، والناس يمشون بين يديه ، وخلفه ، وكان بغير مظلة ، والحزن ظاهر عليه ، وأقام ثلاثة ايام لا يأكل على مائده ، ولا يحضرها من اعتاد حضورها ، وأقام الناس عند قبره شهراً ... وغدا الشعرا الى قبره فرثاه مائة شاعر اجيزوا كلهم ... وهذا يدل على مكانته في نفس الخليفة ، وفي نفس معاصريه والشعب عامة .

ومن الجدير بالذكر :

ان ابن كلس هو الذي اشار على الخليفة العزيز بالله باستخلاف جوهر الصقلي على قيادة الجيوش بعد ان كان المعز لدين الله قد نجاه... وجرى هذا عندما اشتدّ خطر القرامطة.. كما انه هو صاحب فكرة التخفيف من نقوذ قبيلة كتامة في الجيش الفاطمي.. وكان يقول:

بضرورة ادخال عناصر مشرقة في جيش الدولة الفاطمية لاجاد التوازن، مما سبب غضب المغاربة عليه، فتأمروا على قتله اكثر من مرة. ويجب ان لا يغرب عن البال انه كان على اتصال وثيق بالاتراك وانه ادخل العديد منهم في الجيش الفاطمي بواسطة صهره التركي «رشيق العزيزي» الذي تولى احدى القيادات في الجيش الفاطمي، وكان له دوراً فعالاً في الحروب الفلسطينية ، والشامية .

ومها يكن من امر... فان الوزير «ابن كلس» جعل من داره قصراً ينافس قصر الخليفة بما كان يذخر فيه من رياش، وبما يضميه بين جوانبه من حاشية، وخزائن الكسوة، والاشربة، والاموال، والتحف، فقد جعل على كل من هذه الاقسام ناظراً خاصاً يديرها ، ويشرف على امورها، كما انه اخذ حرساً خاصاً له بلغ عددهم اربعة الاف من العبيد، والممالين، وهم الذين كانوا يطلقون عليهم اسم «الوزيرية.... كما رتب في داره الحجاب نوباً، وأجلسهم على المراتب ، وألبسهم الحرير، والديباج ، وقلدهم السيف ، وجعل لهم المناطق... وكان له العبيد، والجواري ، والاطباء ، الذين كان ينتدبهم للكشف على المرضى من هذا الحشد الهائل من الناس ، وكان الى جانب كل هذا عدداً من الكتاب ، والعلماء ، والادباء ، والشعراء ، والمتكلمين ، وأرباب الصنائع يلازمون الدار ، ولكل منهم مكان منفرد خاص به .

وأقام ابن كلس في داره عدة مطابخ لتقديم الطعام لهؤلاء جميعاً علاوة على المطابخ الخاصة التي كانت تقوم بخدمته ، وخدمة جلسائه ، وخصوصه ، وضيوفه .

وفي شهر رمضان كان يقيم مآدب الافتخار للفقهاء، ووجوه الناس، وأهل الستر ، والتعفف ولجماءات كثيرة من الفقراء .

وذكر التاريخ ايضاً عنه :

انه خلَف ثروة كبيرة من الاملاك ، كما ترك املاكاً ، وضياعاً ، وعيناً ، وورقاً ، وأواني من الذهب ، والفضة ، والجواهر ، والطيب ، والعبر ، وثياباً ، وفرشاً ، وكتباً ، وعيدياً ، وخيلاً ، وبغالاً ، وابلاً ، وغلالاً ، وخزائن مليئة بالتحف . الغالية . . . وكلها قدرت بأربعة ملايين دينار . وهنا لا بد من التساؤل ؟ من ترك يعقوب هذه الثروة الضخمة ؟ . . . فالتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن اولاده ، واسرته سوى قوله: انه كان له ابستان زوجهن الى كل من فضل بن الفرات والى القائد التركي رشيق العزيزي ، وهناك مصدر ذكر ان دار ابن كلس بعد وفاته تحولت الى ما يشبه المتحف ، ونقلت المكتبة التي كانت فيها الى مكان آخر .

ومهما يكن من امر فقد ذكر :

ان ابن كلس بعد ان وطَّ نفوذه ، وبسط سلطانه نقل دواوين الدولة كلها الى داره ، فجعل فيها مركز الحكم ، ومصدر السلطات ، او ما يسمى دار الوزارة ، وبهذا تكون من ممتلكاته الخاصة ، مضافاً الى ذلك انه جعل فيها ديواناً خاصاً لل الخليفة ، وأعماله ، وشؤونه ، وديواناً لقيادة الجيش العليا ، واعمال الحرب ، وديواناً للمالية ، والخارج ، والسجلات ، والانشاء ، والمستغلات . . . وكان على كل ديوان رئيس مسؤول يرجع اليه في الامور الطارئة ، والمسائل العليا . . . كما جعل في داره خزائن الاموال العائدة للدولة ، والكسوة وقسمها الى اقسام عديدة ، وجعل على كل سُم ناظر مسؤول .

اما هذه الدار ، فكانت تقع في حارة الوزيرية الى الجنوب الغربي من القصر الصغير ، وعلى مقربة من باب الفرج على الخليج .

وعلى العموم ... فانها كانت مدينة قائمة بذاتها ... فيها كل ما يتطلبه الشعب من حاجاته، ومتطلباته عندما يحتاج الى ما يتعلق باموره، وحياته ... وكنا ذكرنا انه كان يقيم في هذه الدار بجناح اعده لنفسه، وفي هذا الجناح كان يخصص اياماً يجتمع فيها مع عامة الناس ... بحيث كان قد اباح الحرية المطلقة بالدخول لكل من يريد عرض قضيائاه، او مظلمه، او الاستماع الى الدروس. وبالاضافة الى ذلك خصص يوماً في الاسبوع للقضاة، والفقهاء، والقراء، والنحاة، واصحاب الحديث بالترغب لاعطاء الدروس، والوعظ، والارشاد للراغبين، وطلبة العلم .. وهذا بالإضافة الى ما اعده من ندوات في جامع الازهر .. اما مجلس المناظرة بين المتكلمين، وأهل الجدل فقد كان يعقده برئاسته مرة في الشهر، وكان المتكلمين قد ارتبوا به حكماً فاصلاً بينهم .

وكنا ذكرنا ايضاً: انه عين في داره عدداً من الكتاب لنسخ القرآن الكريم، وكتب الطب، والفقه، والادب، وجعل على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها مقابلة، وضبط كل ما يكتبه الكتاب، ونتيجة لذلك اصبحت لديه مكتبة عظيمة لم يكن يوجد لها مثيل في ذلك العصر .

ومن المشهور عن ابن كلس ميله الى الترف، والاناقة ... فقد كان يكثر من الملابس الشมيمية، وكان لديه خزانة خاصة للكسوة لها ناظر يشرف عليها، وكانت تضم افخر الثياب، وأثمنها ... وخاصة ما كان منها مصنوعاً للحفلات، والاعياد .

واشتهر الى جانب كل هذا بحبه للبنيان، والعمaran، وشق الشوارع، والطرق، واقامة الملاعب، والساحات، والحدائق حتى انه انشأ عدداً من المساجن، والمساجد، وكانت جميعها تحمل اسمه .

اجل ... كان ابن كلس يمتلك طاقة كبرى من الذكاء، والعبقريه ... فالى جانب خبرته العالمية في الشؤون المالية، والاقتصادية .. كان عالماً بالادارة، ومتضليعاً بمعرفة احوال الريف، والقرى، والزراعة، وامور الري ،

وانواع الغلال الصالحة . وقد ذكر بأنه اجرى اصلاحات كثيرة في هذا الحقل ، وانه لم يكن يسأل عن شيء من كل هذا الا وأجاب عليه عن يقين ، ومعرفة ، ودرأية .

وكان اكثرا من كل هذا ... فبفضل سياساته الاقتصادية التي مارسها ، وطبقها في الدار المصرية ، وبفضل حسن ادارته نعمت الدولة الفاطمية بالهدوء ، والازدهار الاقتصادي ، والرفاه المالي ، فامتلاط خزائن الدولة بالثروات حتى ان خراج الدولة وصل في عهده الى اربعة ملايين دينار . . . ولكن لا بد من القول بان البلاد المصرية سنة ٣٧٣ هـ مررت بفترة غلاء ، وفوضى ، ومجاعة ، وانتشار الأوبئة نتيجة لانخفاض النيل ، وفي هذا العام قبض الخليفة العزيز بالله على ابن كلس ، وحجزه في داره ، ومنع الناس من الدخول عليه . . . وبعد فترة وثق الخليفة من براءته ، وافتقد نصائحه وتدابيره وحسن سياساته ولم يجد في تلك الايام العصبية في احياء الدولة من يحل محله وينقذ البلاد مما هي عليه . . . فما كان منه الا ان اعطاه الحرية ، وأعاده مكرماً ، فزاد نفوذه وخاصة بعد ان وجد العلاج الناجع للأزمة ، وأقبلت عليه الدنيا من جديد ، وهرع الناس يمدون اليه اليد بتحية .

لقد اجمع المصادر التاريخية باجماعها :

بان ابن كلس كان مسلماً عن حقيقة وایمان ، وانه كان ديناً ، ومتمسكاً باهداب الدين . يطبق قواعد الاسلام ، واصولها ، وأحكامها . . . ولكنه كان فاطميّاً شيعياً ، وهذا واضح في اهتماماته ومؤلفاته . . . فالفقه الجعفري كان بنظره واعتقاده هو ما يجب الأخذ عنه ، ولهذا جعل له فرعاً خاصاً في الأزهر بحيث كان فريق من المدرسين ، والفقهاء الاختصاصيين يتولون تدريس هذه المادة ، وتعيمتها على الراغبين ، وتعتبر الرسالة الوزيرية المصدر الاول ، والأساس لاحكام وفروع هذه المادة .

ويجب ان لا ننسى انه في عهده وفد على مصر نخبة من العلماء من شتى احياء القطر الاسلامية فانضموا تحت لوائه ، ومن جهته مهد لهم سبيل الدرس ، والتحصيل ، والتدريس ، واجرى عليهم الرواتب والارزاق ،

: وَمِنْهُمْ

ابو عبيد الله محمد بن جعفر التميمي المغربي المعروف بالقرّاز القيرواني
النحوي ... وكان يحمل لقب شيخ اللغة في المغرب.

وَمَمَّا يقال عنه :

ان القرّاز فصح المتقدمين ، وقطع السنة المتأخرین .

وَحَكَى ابُو حَيَّان التوحيدي :

انه سأله التميمي الشاعر المصري عن ابن كلس ؟ فقال :

ذاك رجل له دار ضيافة ، وله زوار كالقط ... يعطي على القصد ،
والتأميل ، والطمع ، والطلب ، وليس عنده امتحان ، فالراحل شاكر .

ومن الشعراء الذين خصّهم برعايته أبو الجيع ، وابن الرقعمق ،
والانتاكى ، والدمشقي ، والرسى ، وابن بشر ، وغيرهم .

وخللاصة القول :

فإن الوزير الأجل ابن كلس .. كان كما اطلقوه عليه .. مثلاً أعلى في
الاخلاص للدولة الفاطمية الفتية ... كرم اليد ، جزيل العطاء ، محسناً
للناس ، عبّاً لعمل الخير ... وإذا علمنا أن مائة شاعر رثوه يوم وفاته
ادركتنا منزلته ... ولكن من هم هؤلاء الشعراء ، وain قصائدتهم ؟ ... في
الواقع لم يبق لنا من تلك الآثار إلا قصيدة ابن الرقعمق التي قالها مدحه .

لم يدع للعزيز في سائر الارض عدداً الا وأخذ نسائه
ولهذا اجتباه دون سواه واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيّد له الوزارة مجدًا لا ولا قيل رفت مقداره
بل كساها ، وقد تخربها الدهر وكسر الخطوب بالبذل غاره

ومنها :

هكذا كل فاضل يده نسي وتصحي نفاعة ضرارة
فاستجره فليس يأمن الا من تفيأ بظله واستجراه

٣ - النعيم بن حيون التميمي:

هو: القاضي ابو حنيفة النعيم، بن عبيد الله محمد، بن منصور بن احمد بن حيون، المغربي، التميمي . ولد في القيروان سنة ٢٩٣ هـ. وتوفي في القاهرة سنة ٣٦٣ هـ.

كل ما عرف عن والده ابو عبد الله محمد باته كان من اتباع المذهب المالكي الذي كان سائداً في افريقيا الشمالية، والاندلس ، فشيد النعيم على هذا المبدأ، ثم تحول فيها بعد الى المذهب الحنفي ، ولم يليث ان اصبح اخيراً من الاثنى عشرية الشيعية . بعد ان تم له الاتصال بمؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله المهدى، وجّه جهوده للمذهب الفاطمي واصبح من مؤيديه، والعاملين له ..

اول عمل قام فيه في الدولة الفاطمية . . . المكتبة الخاصة بال الخليفة حيث عهد اليه عبيد الله بامر تنسيقها، والاشراف على تنظيمها، فأغادته هذه المهمة كثيراً، ومكتنته من الاطلاع على الكتب الدينية والفلسفية، وبعد وفاة عبيد الله ظلّ على راس عمله، ولكن تقديره تضاعف لدى الخليفة الثاني، القائم بامر الله بحيث اصبحت له مهمة استشارية، وعندما جاء المنصور بالله عينه قاضياً في طرابلس الغرب، ثم نقله فيها بعد الى المنصورية . . . فأصبح القاضي الأول للدولة ..

اعتبر القاضي النعيم المؤسس، والأب الاكبر لاسرة عظيمة خدمت العلم، والقضاء، وادّت للتفكير الاسلامي اجل الخدمات، فكان لها الاثر البارز في مجرى التفكير العام، وفي مصير الحياة العقلية ليس في قطر اسلامي معين، فحسب، بل في البلدان الاسلامية، والعربية عامة. وعندما نقول : بأنه كان اشهر فقيه تشاً في ذلك العصر، واكثرهم انتاجاً وأغزرهم

مادة، وأخصبهم قريحة، وانتجهم للمؤلفات، فنكون قد انصفنا الرجل،
واعطيناه ما يستحقه.

جاء من المغرب مع المعز لدين الله، وكان قد سماه: قاضي قضاة
الدولة الفاطمية، وفي مصر تفرّغ للتأليف ولكن الأجل وافاه بعهد المعز
لدين الله.

ترك النعيم ولدانها: ابو الحسين علي بن النعيم، وايو عبد الله محمد
ابن النعيم. وقد مرّ علينا ان علي تسلّم شؤون القضاء بعد والده بامر من
المعز لدين الله، بينما عهد الى اخيه محمد بمهمة نيابة القضاء وبعد وفاة علي
تسلّم منصبه. ومتى يجب ان يذكر: ان علي كان له ولداً اسمه الحسين، وان
محمد ولداً تولّى القضاء بعده بعهد العزيز بالله، والحاكم بامر الله وهو
المعروف «بعد العزيز» بن النعيم. ومن هنا فان هذه الاسرة عرفت في
مصر بعائلة القضاة، فكانت في مختلف الادوار قائمة بمعهاها العلمية،
ومحافظة على اخلاصها للدولة الفاطمية.

أشهر مؤلفات النعيم.

١ - في الفقه:

الايضاح، مختصر الايضاح، الاخبار، الينبوع، الاقتصار، الاتفاق
والافتراق، المقتصر، القصيدة المنتخبة، مختصر الآثار.. يوم وليلة..
الطهارة، كيفية الصلوات، منهاج الفرائض.

٢ - في المناظرة:

الرسالة المصرية في الرد على الشافعي، كتاب في الرد على احمد بن شريح
البغدادي، الرسالة المسماة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة، اختلاف
اصول المذاهب، دافع الموجز في الرد العنكبي.

٣ - في التأويل:

نهج السبيل الى معرفة علم التأويل، اساس التأويل، تأويل دعائم الاسلام.

٤ - في الحقائق:

حدود المعرفة، كتاب التوحيد والامامة، اثبات الحقائق، كتاب في الامامة.

٥ - في العقائد:

القصيدة المختارة، التعاقد والانتقاد، كتاب الدعاء، كتاب الهمة في اداب اتباع الائمة، كتاب الحلي والثياب، كتاب الشروط.

٦ - في الأخبار والسير:

شرح الاخبار، قصيدة ذات المن، قصيدة ذات المحن.

٧ - في التاريخ:

افتتاح الدعوة، مناقببني هاشم، الرسالة الى المرشد الداعي بمصر في تربية المؤمنين، المجالس والمسايرات، معالم الهدى.

٨ - في علم الارواح:

تأويل الرؤيا، منامات الائمة، كتاب التقرير، والتعنيف، مفاتيح النعمة، تقويم الاحکام، الراحة، والتسلی، سيرة الائمة.

للقاضي النعهان مؤلفات عديدة ولكن اهمها بنظر دعاة الفاطميين:

كتاب اساس التأويل، وفيه تأويل قصص الانبياء التي وردت في القرآن الكريم، وبالنظر لأهمية الكتاب فقد ترجمه الى اللغة الفارسية المؤيد في الدين .. هبة الله الشيرازي داعي دعاة الفاطميين بعهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله . ومن الجدير بالذكر ان هذا الكتاب حقق وطبع باشراف: عارف تامر.

اما كتاب دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام، والقضايا والاحکام فهو من الكتب القيمة التي ضممت فقه الدولة الفاطمية، وذكر ان الخليفة الفاطمي اشرف بنفسه على تأليفه، ونصَّ العديد من الفقرات على النعهان

منه . وقد جاء بجزأين : حقيقه العلامة آصف علي اصغر فيضي وتوّلت دار المعارف المصرية طبعه ، وتوزيعه .

هناك كتب اخرى منسوبة للنعمان ... ولكنها لم تذكر في عداد مؤلفاته .

٤ - ابن هانىء الاندلسي :

هو محمد بن هانىء بن محمد بن سعدون الاذدي الاندلسي . ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية سنة ٣٦٠ هـ او في سنة ٣٣٦ هـ على اختلاف الروايتين . يكتفى بأبي قاسم ، وبأبي الحسن ، ويقال له ابن هانىء الاندلسي تمييزاً عن الحسن بن هانىء الحكمي الشاعر الذي اشتهر بأبي نؤاس .

قالوا :

انه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الاذدي ، وقيل بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم ... ويزيد بن حاتم هذا هو الذي سيره أبو جعفر المنصور العباسي في ستين الف فارس الى افريقيا لقتال بن حفص فوصلها سنة ١٥٤ وظفر بعمر المذكور وقتلها .. فلما مات يزيد في شهر رمضان سنة ١٧٠ هـ استعمل هرون الرشيد اخاه روحًا على افريقيا .. وكان قبل ذلك نائباً على فلسطين .

ينسب الى الاذد ، وهي قبيلة يمنية تجمع فروعًا كثيرة ، وهذه سمى قصائده « ازدية يمنية » . وكان والده هانىء من احدى قرى المهدية بأفريقيا الشمالية ، وكان ايضاً شاعراً اديباً ، فانتقل الى الاندلس ، وأقام في اشبيلية حيث ولد له محمد ، فنشأ بها ، وحصل له حظ وافر في الادب ، وعمل الشعر ، ومهر فيه ، وكان تأديبه في دار العلم بقرطبة ، ثم استوطن والده إلبيرا ... وكان ايضاً مع مهاراته في الشعر عارفاً بعلوم آخر لا سيما علم الهيئة كما يظهر من قصيده الغائية . وكان له حذق ثاقب في فك المعجم .

اول ما اتصل به ابن هانى، صاحب اشبيلية فأعزه، وأكرمه، وأقام معه زماناً، ثم فارقه بعد ان نقم اهل اشبيلية على الملك، وأساءوا القول فيه، وذلك لاقامة الشاعر عنده لانه كان يدين بالعقيدة الاسماعيلية، وبiamامة الفاطميين، وعندما هموا بقتله اشار عليه الملك بالغيبة عن المدينة مدة ينسى بها خبره، فتركها وعمره يومئذ سبعة وعشرين عاماً.

ومن الغرابة انه لا توجد في ديوانه قصيدة في مدح صاحب اشبيلية.
مع ان الشاعر اقام عنده زمناً طويلاً..

وخرج الشاعر الى عدوة المغرب، فلقي القائد جوهر الصقلي، وامتدحه فأعطاه مائتي درهم فاستقلها، وسأل عن كرم يمدحه .. فقيل له: عليك بأحدى الجعفررين: جعفر بن فلاح او جعفر بن علي بن حدون المعروف بابن الاندلسية، وكان جعفر بن علي بالمسيلة، وهي من مدن الزاب، واليأ عليها مع أخيه يحيى، فقصدتها، و مدحهما بالقصائد الرائعة، فبالغا في اكرامه، والاحسان اليه، وسارت اشعاره فيها في كل مكان... وظلّ عندهما في ارגד عيش، وأعز جانب إلى ان غدا خبره الى الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، فطلبه منها، فوجهاه الى القيروان في جملة طرفٍ وتحف بعثا بها اليه ... وهكذا اقام عند المعز لدين الله الى ان كان من امر قتله .. ومن الجدير بالذكر: انه لقي المصاعد، والاهوال حتى وصل الى البلاط الفاطمي المعزى .. وهذا يشير بقوله:

ولو علقته من امية احبل لجَب سنام من بني الشعر تامك
ولما التقت اسيافها ورماحها شرعاً وقد سدت على المسالك
اجزت عليها عابراً وتركتها كأن المنيا تحت جنبي ارائك
وما نقموا الا قديم تشيعي فنجى هزيراً شده المتدارك
امتدح ابن هانى الاندلسي الخليفة المعز لدين الله بغر القصائد،
وعيون الشعر... فبالغ في الانعام عليه، وأقام عنده، وهو منعم مكرم الى

ان ارتحل من المغرب الى مصر .. وان الحظ الذي حصل له عنده اجل من ان يوصف ، وبالجملة : لم يكن هناك ممدوح اعزّ شاعره كما عزّ المعز ل الدين الله ابن هانىء .. وممّا يجب ان يشار اليه انه لما انشد في القيروان وقصيده التي اولها :

هل من اعقة عالج يبرين ام منها بقى الحدوخ العين
امر له بدست قيمته ستة الاف دينار ... فقال : يا امير المؤمنين مالي
موقع يسع الدست اذا بسط ، فأمر له بقصر منيف .

ولما بلغ المعز ل الدين الله خبر وفاته ، وهو بمصر .. تأسف عليه وقال :
لا حول ولا قوة الا بالله ... هذا الرجل كان نرجو ان نفاخر به
شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

يقول التاريخ :

انه بينما كان يسير متوجهاً الى مصر ، وهو في صحبة المعز ل الدين الله اذ
وجد مقتولاً بجانب البحر .

وقال ابن خلkan :

لما توجه المعز ل الدين الله الى الديار المصرية شيعه ابن هانىء ، ورجع الى
المغرب لاخذ عياله والالتحاق به ... فتجهز ، وتبعه ، ولما وصل الى برقة
اضافه شخص من اهلها ، فأقام عنده في مجلس الانس ويقال انهم عربدوا
عليه ، فقتلواه ... وقيل : خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق ،
واصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته ؟ وقيل : انه وجد في ساقية من سوادي
برقة مخنوقاً بتكة سرواله ، وكان ذلك بكرة يوم الاربعاء لسبعين ليالٍ بقين
من رجب سنة ٣٦٢ هـ . وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل : اثننتان
وأربعون هذا ومن المؤكد ان ابن خلدون ، وابو الفداء ، وابن
الاثير ... اتفقوا على ان ابن هانىء كان مع المعز ل الدين الله عندما توجه

الى مصر، ولما وصل الى برقة قتل ابن هانىء غيلة. امّا ابن الخطيب فيذكر ان ابن هانىء توجه الى مصر ليلحق بالمعز لدين الله الذي كان انداك فيها، وعند وصوله الى برقة سكر ونام عرياناً وكان البرد شديداً فأفلج... ويختلف هذه الرواية ياقوت الحموي... فيذكر انه وجد مخنوقاً بتكرة سرواله، ولم يعرف السبب؟

من هنا نتبين ان المؤرخين لم يتتفقوا على كيفية موت الشاعر... ولكنهم اتفقوا على تاريخ الوفاة واكدوا حصولها في برقة.

اما عن ولادته ومكانتها، فابن خلkan، وياقوت، واصحاب الاحاطة، والمطمح، والمقرى، وشذرات الذهب ووفيات الاعيان، لم يتتفقوا ايضاً على تاريخ ولادته، كما انهم اختلفوا في عمره عند الوفاة.. فمنهم من قال اثننتين واربعين، ومنهم من لم يستطع البث ، والتأكد .

اجل... من الواضح ان ابن هانىء مدح المعز لدين الله، وهنأه بالظفر الذي احرزه الفاطمي على الروم في معركة المجاز... وهذه المعركة حصلت سنة ٣٥٤ هـ.... والذي يهمنا منها ان ابن هانىء في قصيده اخذ يصور نفسه وكأنه في آخر عهد الشباب... اننا نرى الدموع تترقرق على خديه اسفاً على شباب ولّى، وغضن اوشك ان يذوى، كما اننا نحس معه المرارة، والالم لهذا الشيب الذي اخذ في ذلك الوقت يغزو رأسه. فهو يقول :

لا مثل وجدي بريغان الشباب وقد رأيتُ املود غصني غير املبود
والشيب يضرب في فودي بارقه والدهر يقدح في شملي بتبديد
ورابي لون رأسي انه اختلفت فيه الغمام من بيض ومن سود
ومهما يكن من امر... فكل هذا يعطي الدليل على ان ابن هانىء حين
موته كان قد تجاوز الاربعين عاماً ...

اما والده فيقول ابن الأبار:

هو من احدى قرى المهدية، وقد دخل الاندلس، فولد له ابنه ابو القاسم ويزيد ابن خلكان على التعريف بهانىء بن محمد بن سعدون الاذدي فيقول:

وكان هانىء شاعراً، أدبياً، فانتقل الى الاندلس حيث ولد محمد يمينة، اشبيلية، وفي هذا يؤكد ان والده كان غريباً عندما دخل الاندلس، وأقام فيها، لسبب من الأسباب... ولكن ما هو هذا السبب؟ اطمعاً في مركز يشغلة، او رزق يجنيه؟ وهو الاديب الشاعر... وكان الادب في ذلك العصر يهد الصالحة الوصول الى المراكز السامية.

نقول:

ليس غريباً ان تصبو نفس الشاعر الاديب الى الجاه، والثروة، ولكن التاريخ لا يذكر انه اتصل بأمير، او مرح ووزير.. وهذا معناه انه لم يأتِ طمعاً في ثروة، او جاه بل، جاء ليبلغ رسالته الدعائية الفاطمية، ويبشر بتلك الافكار التي شغلت المغرب، والشرق على السواء... هذا ومن جهة اخرى، فاننا لا نعلم شيئاً عن حياة ابن هانىء الخاصة، ونجهل فيما اذا كان قد تزوج، او انجب اولاداً.

ومهما يكن من امر فاننا ايضاً لا نعلم الاساتذة الذين درس عليهم ابن هانىء الادب، والشعر، وعندما نستعرض العلماء الذين اشتهروا في عصرهم يبرز امامنا: ابراهيم بن عبد الله المعافري من اهل اشبيلية، وكان عالماً بالشعر مطبوعاً فيه... وهناك محمد بن يحيى بن عبد السلام الاذدي من قرطبة، وكان حجة باللغة العربية فهل درس ابن هانىء عليهما، او على احدهما؟

وهناك من يقول: انه اكتفى بوالده الذي سهر عليه، وأدبه وعلمه...
قال الوزير محمد لسان الدين بن الخطيب:

كان ابن هانىء من فحول الشعراء، وامثال النظم، وبرهان البلاغة...

لا يدرك شاؤه، ولا يشق غباره، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فك المعنى.

وجرى ذكرى ذكره في «تلخيص الذهب» بما نصه:
العقاب الكاسرة، والصمصامة الباترة، والشوارد التي تهادتها الآفاق،
والغaiيات التي عجز عنها السباق.

وذكره ابن شرف في مقاماته . . قال:
واماً ابن هانىء فنجدى الكلام، سردي النظام، وله غزل معدى . . لا
عذرٍ .

ويقول ابن خلkan:

وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم، ولا من
متأخريهم . . بل هو اشعرهم على الاطلاق، وهو عندهم كالمتبىء عند
المشارقة .

ويفتخر به ابو الوليد الشقندى في مناظرته لأبي يحيى بن المعلم الطنجي
في مجلس صاحب سبتة، وقد اوردها المقرى صاحب نفح الطيب بكلماتها ،
فقال في وصف اهل الاندلس :

هل منكم الذي طار في مشارق الارض، ومغاربها قوله . . وهو ابو
القاسم محمد بن هانىء الألبيري :

فُتُّقت لكم ريح الجлад بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
وجنitem ثم الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الاخضر
ثم قال الشقندى :

وقد سمعت فائيته في النجوم، ولو لا طوها لانشقتها هنا، فانها من
احسن ما قيل في معناها .

ويذكره الحميدى في سفره فيقول :

محمد بن هانيء شاعر اندلسي كثير الشعر، محسن جواد، الا ان قعقة الألفاظ اغلب على شعره.. انشدني له ابو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان النحوي قوله في جعفر القائد المعروف بابن الاندلسية :

المدنفان من البرية كلها جسمي وطرف ببابلي احرور
والشرقات النيرات ثلاثة الشمس، والقمر المنير وجعفر
وممّا يستحسن من قوله :

ولما التقى الحاظنا ووشانتنا واعلن سر الوشى ما الوشى كائم
تساؤه انسى من الخدر ناشج فأسعد وحشى من السدر ناعم

ويشبهه محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضايعي البلنسي المعروف بابن الآبار بابي تمام بقوله :

هو، وأبو عمرو = ابن دراج = القسطلي نظيران لحبيب، والمتيني،
ومدحه الفتح بن خاقان بقوله :

هو علق خطير، وروض ادب مطير.. غاص في طلب الغريب حتى
اخرج دره المكتنون، ويهرج بافتنانه فيه كل الفنون، وله نظم تمنى الثريا
ان تتوج به، وتقلد، ويود البدر ان يكتب فيه ما اخترع وولد،... زدت
به الاندلس وتأهت، وحاست بداعيه الاشمس، وزاحت... فحسد
المغرب فيه المشرق، وغضّ به من بالعراق، وأشرق، غير انه نبتت به
اكنافها، لانه سلك مسلك الموري، وتجزّد من التدين، وأبدى الغلو،
فمجّته الانفس، وأزعجه الاندلس، فخرج على غير اختيار، وما عرج
على هذه الديار، فله بداعٍ يتحير فيها، ويختار، ويختال لرقتها انها اسحار،
فانه اعتمد التهذيب، والتحرير، واتبع في اغراضه الفرزدق مع جرير..
واما تشبيهاته فخرق فيها المعتاد، وما شاء منها اقتاد.

وقال الذهبي :

وأبوه شاعر اديب، وليس يلحقه احد في الشعر من اهل الاندلس،
وهو نظير المتنبي . وقال ابن رشيق في باب اللفظ والمعنى:

وفقة اصحاب جلبة وقعقة بلا طائل معنى الا القليل النادر كأبي
القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه . . . فانه يقول في اول مذهبته :

أصاحتْ فقالتْ وقع اجرد شيطُمْ وشامتْ فقلتْ لمعَ ايضُمْ مخْدمْ
وما ذعرتْ الا بجُرس حليها ولا رمقتْ الا بُرْيَ في مخدِّمْ
وليس تحت هذا كله الا الفساد، وخلاف المراد .. ما الذي يفيدنا ان
تكون هذه المنسوب بها لبست حليها ، فتوهمته بعد الاصاحة ، والرمق ،
وقد فرس ، او لمع سيف غير انها مغزوة في دارها ، او جاهلة بما حلته من
زينتها ، ولم يخف عنّا مراده .. انها كانت تترقبه .. فما هذا كله ؟

ويينقل الشيخ تقي الدين ابو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي في
باب تجاهل العارف للمبالغة في المدوح قول ابن هانئ :

ابني العوالى السمهيرية والسيوف المشرفة والعديد الأكثـر
من منكم الملك المطاعـ كأنـه تحت السوابع تبعـ في حـيرـ
كلـ الملوكـ من السروجـ سواقطـ الاـ الملكـ فوقـ ظهرـ الأشـقرـ

يقول :

انه لما تجاهل في هذا البيت عن معرفة المدوح ، ترجلَ الجيش بكامله
تعظيماً للمدوح ، اذ هو ملكهم ... وهذه القصيدة سارت بها الركبان ،
والخداء تشدو ببلاغتها ، وهي احب من « قفا نبك » في الشهرة لفصاحتها
ومطلعها : « فُتقت لكم ريح ». اقول :

ان هذه الاستعارات المرشحة ، يرشح منها ندى البلاغة ، وتعثر فحول
الشعراء في حلبة سباقها .

وقال ياقوت الحموي :

ابو القاسم الاذدي الاندلسي ... اديب شاعر مغلق اشعر المتقدمين ،
والمتأخرین من المغاربة وهو عندهم کالمتنی عند اهل المشرق .

وقال يوسف بن يحيى بن الحسين بن المؤيد :

ابو القاسم .. ويلقب ايضاً ابا الحسن بن هانئ الاندلسي الاذدي المشهور بـ متنیء المغرب شاعر المعز لدین الله المشهور... فاضل ينظم الكواكب ، ويترك الطائرين للحاقه صرعي على المناكب ان وصف الوعي ترك ابا الطيب كالبغاء ، او اطري المحبوب ترك حبيباً في ضد يعقوب ، او مدح ذا الكرم الهنيء الشبم ، ترك زهيراً يكبح بعلاجه في هرم ... فهو اشعر المغاربة ... معانیه لكل دمية كالوشاح ، بل لكل روضة كالاقاخ .

اماً ابو العلاء المعري ... فكان اذا سمح ابن هانئ يقول :

ما اشبهه الاَ برحي تطحن قرونَا لأجل القعقة التي في الفاظه ، ويزعم ان لا طائل تحت الالفاظ . وقد ردَ ابن خلkan على المعري بقوله :

لعمري ما انصفه في هذا المقال ، وما حمله على هذا الاَ فرط تعصبه للمتنی ، وبالجملة فما كان الاَ من المحسنين في النظم .

ومن المستشرقين الذين ذكروا ابن هانئ في كتبهم : فان كریم ، وهامر ، وهوارت ، وقد ترجم فان كریم بعض اشعاره الى اللغة الالمانية ، وقال :

قوة البيان ، وكثرة التمثيلات ، وجودة الالفاظ التي لا يكاد يقدر عليها من الشعرا الاَ قليل ، وهي الاوصاف التي نشرت صيته ، ورفعت ذكره ، وجعلته من الشعرا المحسنين وهذا سمة المغاربة « متنی المغرب » فلا شبهة في كونه مستحقاً لهذا الاسم ، وان نسخ دیوانه قليله جداً بالنظر لما فيه من الاشياء المخالفة لعقائد عامة المسلمين ، ودیوانه اهم الدواوين عندنا لانه ذريعة لنا الى الاطلاع على عقائد الخلفاء الفاطميين ، ومقاصدهم .

ومهما يكن من امر فابن هانئ عرف بأنه شاعر المعز لدین الله ، وله فيه غرر القصائد التي خرجت في بعض الاحيان على المألوف من القول بالنسبة

لامة المسلمين، على ان المطلعين على التأویل الفاطمي والفلسفة الاسماعيلية يرون باقوله كل ما يتفق وتعاليم هذه الفلسفة. ومن قوله في قصيدة انشدتها عندما خرج المعز لدين الله لوداع جوهر عندما توجه الى مصر.

رأيت بعيري فوق ما كنت اسمع وقد راعني يوم من الحشر اروع
غداة كأنَّ الافق سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
تسير الجبال الجامدات بسيره وتسجدُ من ادنى الحفيض وترکع
اذا حلَّ في ارضِ بناتها مدائنَا وان سار عن ارضِ ثوت وهي بلقوع

ومنها :

فسرْ ايها الملك المطاع مؤيداً فللدين، والدنيا اليك تطلع
سيعلم من نساواك كيف مصيره ويبصرُ من قارعته كيف يقع
اذا صلتَ لم يكرُم على السيف سيدٌ وان قلت لم يقدم على النطق مصفع

ومن غرر اقواله في المعز لدين الله :

فإذا الانام جبلة دماء وطفقت اسئل عن اغرَّ محجل
فعلمت ان المطلب الخلفاء حتى دفعتُ الى المعز خليفةً
وكأنما الدنيا عليه غشاء جسد كأن اليم فيه نفاثة
ملك اذا نطقت علاه بمحله خرسَ الوفود وافحم الخطباء

ومنها :

لناس اجماع على تفضيله حتى استوى اللؤماء والكرماء
هذا امين الله بين عباده وببلاده ان عُدت الامناء نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الاصباح والامسأء

وقال في المعز لدين الله :

في الغيث شبه من نداك كأنما مسحت على الانواء منك يينُ
اماً الغنى فهو الذي اوليتنا فكان جودك بالخلود رهين

لو يستطيع البحر لاستعدى على جدوى يديك وانه لقمني
امده او فااصفح له عن نيله فلقد تخوف ان يقال ضئيل

وقال فيه ايضاً :

وما لسماء ان تعدّ نجومها اذا عدّ آباء له وجدد
فأسيافه تلك العواري نصوها الى اليوم لن تعرف لهنّ غمود
ومن خيله تلك الجوافل انها الى الان لم تحطّط لهنّ لبود
امام له ممّا جهلت حقيقة وليس له ممّا علمت نديداً

وقال فيه ايضاً :

والوحفَ يكُن فيه الاَّ انه لا يطلق التشبيه والتمثيلُ
والناس ان قيسوا اليه فانهم عرض له في جوهرِ محمولٍ
ولقد سمعتك لا بسمعي هيبة لكن وجدىك جوهراً مصقولٍ

هذه بعض مقاطع من قصائده الثلاثة والعشرين التي اطلقنا عليها اسم
«المعزيات» وجعلناها في مقدمة ديوانه الكبير الماثل للطبع.

٥ - تميم بن المعز ل الدين الله:

تعتبر حياة الشاعر تميم بن المعز ل الدين الله الفاطمي مقللة من جميع ابوابها ، وغامضة اشد الغموض من جميع نواحيها ... فالمراجع التي بين ايدينا لا تعطينا الا نذر اليسير عن حياته القصيرة، ولا تصف لنا تلك الايام التي عاشها في الغرب، وفي مصر... وقد أجمعت هذه المراجع على ان تميم هو ابن الخليفة الفاطمي الرابع المعز ل الدين الله الأكبر، وأخ الخليفة الخامس العزيز بالله .

هذا ما اورده الشعابي في اليتيمة ، والباخرزي في الدمية ، وابن خلكان في الوفيات ، وياقوت في معجم الأدباء ، وابن فضل الله في المسالك ،

والمقرizi في الخطط، وابن ثغري في النجوم الزاهرة، والسيوطى في حسن المحاضرة.

ولد تميم سنة ٣٣٧ هـ في مدينة المهدية بال المغرب الأوسط، وهي المدينة التي بناها «عبد الله المهدى» سنة ٣٠٨ هـ، وجعلها عاصمة لدولته الفاطمية، وقد ظلت كذلك إلى أن بنى المنصور بالله مدينة المنصورية سنة ٣٣٧ هـ. بعد نجاحه في اخماد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجى.

اذن ... فولادة تميم جاءت بعد القضاء على هذه الثورة العاتية بعام واحد ... اي في خلافة المنصور بالله، ومن الطريف حقاً ان اباه المعز لدين الله كني بأبي تميم، ومتى يولد تميم بعد ... ومعنى هذا ان تميم هو الابن الأكبر للمعز لدين الله، وقد أكدت المصادر انه كان للمعز لدين الله اولاد اخرين هم: عبد الله، والعزيز، وعقيل، نشأوا جميعهم في قصر الخلافة في المهدية، ثم بالمنصورية ، وأخيراً جاءوا الى مصر مع والدهم.

نحن: لا نعلم كيف نشأ تميم، كما أنا لا نعلم شيئاً عن أستاذته، ومربيه؟ بالرغم من أنها على معرفة أكيدة بشغف جده المنصور بالله، والمعز لدين الله والده، بالعلوم، والآداب، والشعر... ولعل هذه البيئة الثقافية التي احاطت بتميم اثرت في تكوينه، وتوجيهه منذ الصغر هذه الوجهة الأدبية.

ومهما يكن من أمر... فان تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب لم يذكر لنا إلا اسماء ثلاثة شعراء عاشوا في ظل الدولة الفاطمية في المغرب... او لهم: ابن هانئ الاندلسي، واحمد المرزوقي نجل القاضي المرزوقي الذي تولى القضاء بعهد الخليفة الفاطمي الأول عبد الله المهدى، وعلى بن محمد الأيدي... وكما هو الحال قان الايام، والاحداث لم تبق لنا من انتاجهم سوى مقاطع ذكرها النعسان بن حيون في كتابه افتتاح الدعوة، وبالنسبة لتميم فان شعره في المغرب ضائع ولم يبق منه إلا القليل... فقد ورد في ديوانه ان والده المعز لدين الله اوفده من سوسة الى المنصورية لمقابلة عس狼، وقبض بعض الاموال منه.. فكتب اليه:

دهاني بعدك الخطيب الجليل فلا حسن لدى ولا جحيل
اروح فلا ارى الا ثقيل ومن انا عنده ايضاً ثقيل

قدم تميم الى مصر وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره، وسكن القصر الكبير في القاهرة ومن الواضح ان المعز لدين الله كان شديد الحرص على الا يعهد الى تميم بأي عمل من الاعمال... ولا ندري سبب ذلك؟

فعندما هاجم القرامطة مصر سنة ٣٦٣، عهد المعز لدين الله الى الامير عبد الله بقيادة الجيوش، وظل تميم بمعز عن كل عمل سياسي، بل من المؤكد انه اهمل اهالاً شديداً، وعندما مات ولـي العهد الامير عبد الله سنة ٣٦٤ هـ. تطلع الناس الى تميم مرة ثانية، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه مرة ثانية، وجعلها في ابنه الثالث العزيز بالله... وهنا عرف تميم بان الامر قد خرج من يده وللابد.

ويذهب ابن الأبار الى ان المعز لدين الله لم يولي تميم بدعوى انه لم ينجـب ولـداً... ولكن الحقيقة غير ذلك فتميم النجـب ولـداً هو علي، وكان الناس ينادونه باسم ابي علي.

اجـل... بعد هذا التدبير استسلم تميم الى حـكم الـاقدار التي حـرمتـه من الملك... فلم نسمع عنه بعد ذلك ان دـبرـ فـتنـة لـزعـزـعة اـخـيهـ او قـامـ بـمؤـامـرة عـلـى سـلامـة الخـلـافـة... بل بـالـعـكـسـ اـظـهـرـ خـضـوعـهـ، وـاعـلنـ وـفـاءـهـ وـكانـ اـخـاهـ العـزـيزـ بـالـلـهـ يـهـبـ الـهـبـاتـ الـكـثـيرـةـ، وـيـغـدقـ عـلـيـهـ الـامـوـالـ الطـائـلةـ.

فقد ذكر:

ان الخليفة العزيز بالله وهب له البستان المعروف بالعشوق بخطبة راشده وعرف فيها بعد باسم جنة الامير تميم، كما جعل له القصور المنبفة على ضفاف بركة الحبس.

ويروي ابن الأبار:

ان العزيز بالله تنزه مرة الى بركة الحبس... فلما قرب من قصور أخيه سأله عن تميم؟ فخرج اليه راجلاً حافياً حتى لقيه، فسلم عليه بالخلافة وقال:

يا امير المؤمنين قد وجبت على عبده الضيافة... قال... نعم...
ودخل معه الى بستانه، وقد امر بجينة من الجنائز التي كانت بين يديه،
وأقسم على تميم ان يركبها، ويسايره... فلما توسط البستان نظر الى ثر
يلوح الذهب عليه... فتعجب منه، واستظرفه، ودنا من شجرة فأخذ
منها ليمونة واحدة، وادا مكتوب عليها:

انا الليمون قد غذيت عروقي ببرد الماء في حرز حريز
فجعلها في كمه وقال:

هذه ضيافي عندك، وانصرف الى قصره، فبعث الى جعفر بن قد هب
صاحب بيت المال فقال له: ما عنك من الدنانير ضرب هذه السنة؟ وكان
العام في اوله... فقال:

مائة وستون الف... فأمر بحملها من ساعته الى الامير تميم مع راشد
العزيز...
وقال له:

امير المؤمنين يقرأ عليك السلام... ويقول لك استعن بهذه على مؤنتك
وهكذا... عاش تميم في مصر حياة هو وترف، ووجد في البيئة
المصرية من المنتزهات والديارات والأسباب ما وافق مزاجه، وهواء.
فاكثر من الخروج الى المختار بجزيرة الروضة، والى دير القصیر، ودير
مرضى، وشارك المصريين لهوهم، وطربهم، واكثر من الشرب، والعبث،
والبذخ، والتأنيق.

فكان يركب على عشاري في النيل، ويتبعه اربعة زوارق مملوءة فاكهة،
وطعاماً، وشراباً، فاذا كانت الليلية مقمرة، والاً كان معه من الشموع ما

يعيد الليل نهاراً . . . وكان اذا مرّ على طائفة، واستحسن من غنائم صوتاً امر باعادته، وسألهم عما عزّ عليهم، فيأمر لهم به، ويأمر من يغنى لهم، وينتقل منهم الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله، ثم ينصرف الى قصوره، وبساتينه، فلا يزال على هذا الحال حتى تنقضي ايام الاعياد.

وكان تيم كريماً يسرف في الكرم الى حد السفه، مقبلًا على الشراب، محباً للسماع، مشركاً اصحاب اللذة، واللهو، والقصف، والمجون . . . وقد اتخذ لنفسه عدداً من الاصدقاء، ومن بينهم «بني الرستي» وهم اسرة من العلوين الحسينيين التي اقامت دولة الزيدية في اليمن . . . ولا ندري كيف جاءت هذه الاسرة، واستوطنت مصر في ذلك العهد؟ وكان جد الاسرة ابو القاسم نقيب الطالبين بمصر، وأحد الذين حضروا عهد الاخشيد، وكان شاعراً مجيداً وتوفي سنة ٣٥٢ هـ. وكان ولداته: ابو محمد القاسم، وأبو اسماعيل ابراهيم من الشعراً ايضاً، وهذا الاخير من اصدقاء تيم ولكن يتضح ان صلته بالحسين بن ابراهيم كانت امتن، فكانا يتهاديان، ويتراسلان بالشعر، ويدعوا احدهما الآخر للقصف، والشراب .

امتاز شعر تيم بالرقى، والعذوبة، والتشبيهات الجميلة، وقد نلمس في روحه الشعرية الصنعة المصرية والذوق الاندلسي، الذي صبغ شعره بلونه الجذاب، وديباجته الرائعة . وموسيقاً الشجية .

ونرى في شعره ايضاً جلباباً نسجه البيان المغربي الساحر، ودبجه خيال قرطبة وأشبيلية وغيرها من المدن الاندلسية التي نقشت فيها الطبيعة ابدع صورها، وألوانها .

ذكرت المصادر:

ان تيم مات سنة ٣٧٥ هـ. فيكون قد عمر ثمانية وثلاثين عاماً . . . ودفن في القاهرة المعزية في المقبرة الفاطمية المعروفة بقبة الزعفران . وكأنني به كان يردد وهو على فراش الموت قوله:

وتمرّيني بجورٍ واعتداءٍ
يعاقبني الزمان بغیر ذنبٍ
وتخذلني يدي وذروا اصطفائي
حياتي بين واشٍ او حسودٍ
واسع بي يسر بطول دائني
ان من يتسلل الى حرم تميم ، ويتجول في فسحات ديوانه فيرى : انه قد
اعطى الطبيعة القسم الأكبير من اهتمامه فعندها اطيب الحانه، عندما تكون
اكمام الرياح محملة بفتات المسك ، وعنقיד اللؤلؤ الابيض معلقة في اعناق
النسرين ، وبراعم الورد الاحمر تعانق اوراق الاغصان ... او عندما يكون
حبيبه الى جواره ، والقمر شاهد على مناجاته ، وحينما تتجاوب الخمائل بانغام
الاعواد ، وصخب السقاة المخمورين ، وقبل العشاقي ، والسمّار :

ذكرني النسرين لما اتى ريحُ حبيب لي اطال الصدود
كأنما قبلت من نشره بيض الثنایا واحجار الخدود
ما اجود النسرين لكنه ذكرني هاجراً لسن يعود
ويغب من الليل ما يشاء ، وكأنه راهب يجلس امام شاطئ النيل الهادئ
ساعة الدغشة المتلائمة يقطف منها الصور والالوان ، ليضعها على لوحاته
المخلدة :

اما ترى حركات الريح خبرة ان الغمام يصوب الارض بالمطر
فالجو ملتحف بسطاً مفتوحة كانهن اختلاف الوشي والخبر
كأنَّ برد نسيم الغيم حين بدا برد ارتشاف حبيب زار في السحر
والنجوم امامه ترمي شعاعاتها من الازرق حفنة ، ومن الاخضر حفنت
عندما يكسو الضباب شاطئ النهر كالغاللة الشفافة ، وحينما يهب النسيم
العليل ، ليداعب الورد النابت على جوانب الماء ، هامساً في اذنه اغاني
الحب ، والشوق والجمال .

اذا حان من شمس النهار غروب تذَكَّر مشتاق وحنَّ غريب
وانِي لأهوى الريح من كل ما بدا بريّاه من ريح الشمال هبوبُ

وما بِلَدِ الْأَنْسَانِ إِلَّا الَّذِي لَهُ
وَيَشْرُبُ، وَيَحْلِقُ بِرُوحِهِ، وَيَغْنِي الرُّوْضَ، وَالْوَرْدَ، وَالنَّسِيمَ، وَالنَّدَى،
تَارِكًا فِي أَذَانِ الْعُشَاقِ الْأَنْغَامَ الْمُضْمَخَةَ بِالْعَبِيرِ :

خَلِيلِي لَا عِيشَ سُوِيَ اللَّهُوَ وَالصَّبَا وَلَا طَوَ الْأَلَّ فِي سَمَاعٍ وَفِي خَمِ
فَحَثَّا كَؤُوسَ الرَّاحِ صَرْفًا فَأَنِي ارَى الدَّهَرَ صَعِبًا لَا يَدُومُ عَلَى امْرٍ
وَأَعْطَى مِنَ الْعِيشِ الشَّبَابَ نَصِيبَهِ وَلَا تَنْظُرْنَ كَرَّ الْبَيَاضَ عَلَى الشِّعْرِ
وَيَتَلْفَتُ يَمِنَهِ وَيَسِرهِ فَيَتَذَكَّرُ امْرَأَهُ بَيْنَ الْحَدَائِقِ الْوَارِفَةِ الظَّلَالِ... عَلَى
ضَفَافِ النَّيلِ الْوَادِعِ... يَتَذَكَّرُ حَبِيبَهُ الْغَائِبُ... فَيَقُولُ :

ظَلَمًا لِيَلَةَ النَّهَرِ
مِنَ الْمُخْتَارِ لِلْجَسْرِ
فَأَخْدَتْ سَنَاهُ الْبَدْرِ
سَهْكَ فِي الْلَّيْلِ بِلَا فَجْرِ
عَنِ التَّشْبِيهِ بِالْخَمْرِ
حَتَّى رَحَتْ لَا ادْرِي
أَمْ كَحْلَ مِنَ السَّحْرِ
سَكَ مَزْوِجًا مِنَ التَّغْرِ
عَلَى اضِيقِ مِنْ فَتَرِ
قَانَ وَافَ لِيَلَةَ الْفَطْرِ
بِلَا بَغَيَّ وَلَا نَكَرِ

اتَّسَى إِلَيْهَا الْعَاتِبُ
وَكَرَأَتْ بِهِنَّا
وَقَدْ قَابَلَكَ الْبَدْرُ
وَلَاحَ الْفَجَرُ فِي وَجْهِ
وَفِي خَدِيكَ مَارَقَ
وَاضْتَنَى الْحَاظِكَ
اسْقَمَ بَيْنَ اجْفَانِكَ
وَقَدْ عَاطَيْتَنِي كَأَ
وَبَتَنَا مِنْ تَدَانِنِكَ
مَبِيتَ الصَّائِمِ الْفَغْرِ
بِلَا بَغَيَّ وَلَا نَكَرِ

وَوَصَفَ تَمِيمَ الصَّيدِ، وَالْخِيلِ، وَالْكَلَابِ، وَالْبَزَاءِ، وَالْخَمْرَةِ، وَالْطَّبِيعَةِ...
وَأَفْرَدَ بَابًا لِلْهَجَاءِ، وَلِلرَّثَاءِ، وَلِلْمَدِيْعِ، وَلِلْغَزْلِ .

اجْلُ... كَانَتْ حَيَاتُهُ وَآمَالُهُ، وَقَلْبُهُ، وَعَوْاطِفُهُ تَتَآمِرُ فِي سَبِيلِ ارْهَاقِ
حَيَاتِهِ الْجَبَّارَةِ الْأَبِيَّةِ فَجَاءَ شِعْرُهُ يُعْرِضُ عَوْاطِفَهُ، وَمُشَاعِرَهُ، وَمَا يَخْتَلِعُ فِي صَدْرِهِ.
وَمِمَّا يَكُنُ مِنْ امْرٍ... فَقَدْ عَبَرَ شِعْرُ تَمِيمٍ عَنْ حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ، وَحَيَاةِ

الطبقة المترفة ، واعطى صورة صادقة عن الفن والجمالي .. فهو يقول :

عاقب بما شئت من المجر واغلق رضا قلبك عن غدرى
 اليـس قد رحت على كل ذا اجـول في سرك والـجهـر
 جـددـيـلـوـ بالـسوـءـ ذـكـريـ فـهـاـ اـحـبـ انـ تـنـفـكـ عـنـ ذـكـريـ
 ويـعـرـجـ تـمـ عـلـىـ اـمـاـكـنـ اللـهـوـ فيـ ساعـاتـ مـبـكـرـةـ .. ليـخـلـوـ بـنـ يـحـبـ ..
 وـكانـ هـذـاـ ماـ يـخـفـ الـآـمـهـ :

ورـدـاحـ عـلـىـ الصـبـاـ وـالـعـقـارـ
 قـلـيلـ الـوقـارـ لـسـتـ اـدـارـيـ
 وـظـلـامـ وـصـلـتـهـ بـنـهـارـ
 قـاصـفـاـ عـازـفـاـ خـلـيـعـ العـذـارـ

كم بـديـرـ القـصـيرـ لـيـ منـ بـكـورـ
 حـيـثـ اـخـلـوـ بـنـ اـحـبـ منـ القـصـفـ
 كـمـ صـبـوحـ شـدـدـتـهـ بـغـبـوـقـ
 اـنـهـ العـيـشـ اـنـ تـرـوـحـ عـشـيـاـ

وـماـ اـرـوـعـ تـمـ وـهـوـ يـصـفـ لـنـاـ لـيـلـةـ منـ مـغـامـرـاتـهـ :

ولي صـاحـبـ لاـ يـرضـ العـقـلـ جـهـلـهـ وـلاـ تـنـأـيـ النـفـسـ مـنـهـ وـلاـ القـلـبـ
 اذا قـلتـ لاـ فيـ قـصـةـ لـمـ يـقـلـ نـعـمـ وـانـ قـلتـ اـصـبـوـ قـالـ :ـ لـاـ بـدـ اـنـ اـصـبـوـ
 وـانـ قـلتـ هـاـكـ الكـاسـ قـالـ مـبـادـرـاـ الاـ هـاتـهاـ طـابـ التـنـادـمـ وـالـشـربـ
 غـدوـتـ بـهـ يـوـمـاـ اـلـىـ بـيـتـ حـانـةـ وـلـلـغـيمـ دـمـعـ مـاـ يـكـفـ لـهـ سـكـبـ

الـىـ زـوـلـةـ شـمـطـاءـ منـزـلـهـ رـحـبـ
 وـقـلـ لـكـ مـنـيـ الـبـاشـاشـةـ وـالـرـحـبـ
 دـعـاهـمـ الـيـكـ القـصـفـ وـالـعـرـفـ وـالـلـعـبـ
 فـعـنـدـيـ الفتـاةـ الرـؤـدـ وـالـأـمـرـدـ الرـطـبـ
 فـجـاءـتـ كـمـاـ يـذـرـيـ مـدـامـعـهـ الصـبـبـ
 اـذـاـ اـقـبـلـتـ مـنـ جـانـبـ الدـنـ تـنـصـبـ
 وـلـاـ يـكـ فـيـاـ قـلتـ خـلـفـ وـلـاـ كـذـبـ
 فـجـاءـتـ تـحـرـ الزـقـ نـحـويـ كـأـنـهـ
 فـلـمـاـ مـزـجـناـهـ بـدـاـ فـوـقـ رـاسـهـاـ حـبـابـ كـمـاـ يـنـسـابـ مـنـ سـلـكـهـ الـحـبـ

فـافـضـىـ بـنـاـ الـادـلاـجـ بـعـدـ شـقـةـ
 فـقـالـتـ لـنـاـ اـهـلـاـ وـسـهـلـاـ وـمـرـحـبـاـ
 مـنـ اـنـتـ ؟ـ فـقـلـنـاـ عـصـبـةـ مـنـ بـنـيـ الصـبـاـ
 فـقـالـتـ عـلـىـ اـسـمـ اللـهـ حـطـواـ رـحـالـكـ
 وـرـاحـ نـفـيـ اـقـذـأـهـ طـولـ عمرـهـاـ
 كـأـنـ سـرـاجـاـ فـيـ تـرـائـبـ دـنـهـاـ
 فـقـلـنـاـ لـهـاـ هـاتـيـ بـهـاـ وـتـعـجـلـيـ
 فـجـاءـتـ تـحـرـ الزـقـ نـحـويـ كـأـنـهـ
 فـلـمـاـ مـزـجـناـهـ بـدـاـ فـوـقـ رـاسـهـاـ حـبـابـ كـمـاـ يـنـسـابـ مـنـ سـلـكـهـ الـحـبـ

وطافت بها هيفاء مخطوفة الحشا معاطفها سلم والحاظها حرب
 تمايل ردهاها وادرج خصرها لياناً ولطفاً مثلاً تدرج الكتب
 احلىت لي الصهباء تقبيل ثغرها وما كان قبل السكر في لشنه عتب
 ومن روائعه وصفه لرحلة قام بها في النيل... فوصف السفن وهي
 صاعدة، وهابطة فوق الامواج، وشبهها بالخيول وهي في صعودها وهبوطها
 في الطرق المترجة، وما اجل تشبيهه الامواج بطيات اللحم التي تنمو
 على البطن من فرط السمنة، امّا داراته المدورة فكأنها خطوط الكف، او
 الجبهة . ويعتبر كل هذا ابداعاً ، وفتحاً جديداً .

يُوْمَ لَنَا بِالنَّيلِ مُختَصِّرٌ
 وَلَكُلِّ يَوْمٍ مُسْرَةٌ قَصْرٌ
 وَالسُّفُنْ تَصْعُدُ كَالْخَيْوَلِ بَنَا
 فَكَانَ أَمْوَاجُهُ عَكْنَانٌ
 وَكَانَمَا دَارَاتُهُ سَرَرٌ

ويقول ايضاً في وصف السفن:

بَعْثَتْ بِسَاكِنَاتِ طَائِرَاتٍ
 تَفُوتُ الْلَّحْظَ وَهِيَ بِلَا جَنَاحٍ
 تَطِيرُ إِذَا الْمُجَادِيفُ اسْتَحْثَتْ
 كَأَنْ سُوَادَهَا فِي الْمَاءِ يَحْكِي
 هَذَا مَا امْكَنَ عَرْضُهُ عَنِ الشَّاعِرِ نَعِيمِ بْنِ الْمَعْزِ لَدِينِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ، وَلَعِلَّ
 مَا ذَكَرْنَاهُ يَعْطِي صُورَةً وَاضْحَى عَنِ شَاعِرٍ مُغْمُورٍ غَنِّيًّا بِالْدِيَارِ اجْمَلُ
 الْأَلْهَانِ، وَتَرَكَ بَعْدَهُ أَرْقَ الْأَغَارِيدِ، وَأَشْجَى التَّرَانِيمِ، وَذَهَبَ عَنِ هَذِهِ الدُّنْيَا
 وَهُوَ يَرْدُدُ :

وَلَسْوَلَا احْتَمَلَ النَّفْسَ كُلَّ مَشْقَةٍ
 اذْنَ لِتَسَاوِي فِي الْعَلَا الْحَرَّ وَالْعَبَدُ
 كَذَا السَّيْفُ لَا تَسْتَخِبِرُ الْعَيْنَ عَتْقَهُ
 اذَا لَمْ تَفَارَقْهُ الْخَمَائِلُ وَالْغَمَدُ
 وَلَيْسَ لِكُلِّ النَّاسِ يَسْتَحْسِنُ الْغَنِّيَ
 كَمَا لَيْسَ فِي كُلِّ الطَّلَى يَحْسِنُ الْعَقْدُ

المصادر العربية للكتاب :

استثار الامام

نشرته مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦

م

سيرة جعفر الحاجب للبياني

نشرته مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦

م

تاج العقائد

علي بن الوليد - نشره و . ايفانون .. وعارف تامر .

الفاطميون في مصر واعمالهم السياسية والدينية

حسن ابراهيم حسن - القاهرة ١٩٣٣

تاريخ الاسلام السياسي والديني ..

حسن ابراهيم حسن - القاهرة ١٩٤٦

النظم السياسية

حسن ابراهيم حسن - القاهرة ١٩٣٩

بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن

عبد الله المهدى

امام الشيعة الاسهاعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب -

بالاشتراك مع طه احمد شرف - القاهرة ١٩٤٧

اخبار ملوك بني عبد وسيط

ابن حمّاد القاضي - الجزائر ١٣٤٦ هـ .

كنوز الفاطميين

زكي محمد حسن القاهرة ١٩٤٠

تاريخ الاسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد

طه احمد شرف « مخطوط »

تاريخ جوهر الصقلي

علي ابراهيم حسن القاهرة ١٩٣٣

المؤيد في الدين

هبة الله الشيرازي - محمد كامل حسين ١٩٤٧

المجالس المستنصرية

للداعي ثقة الامام - القاهرة ١٩٤٧

اتعاظ الحنفأ باخبار الخلفا

المقرizi - بيت المقدس ١٩٠٨ م

المجالس والمسائرات

القاضي النعمان بن حبيون - « مخطوط »

الهمة في ادب اتباع الائمة

محمد كامل حسين - القاهرة ١٩٥٤

الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين

عارف تامر - بيروت ١٩٨٠

القائد جوهر الصقلي

عارف تامر - بيروت ١٩٨١

شرح ديوان ابن هانىء الاندلسي

عارف تامر - بيروت ١٩٨١

المعز لدين الله

حسن ابراهيم حسن، وطه احمد شرف - القاهرة ١٩٦٤

عيون الاخبار

ادريس عياد الدين « مخطوط »

نزة الافكار

ادريس عماد الدين « مخطوط »

في ادب مصر الفاطمية

محمد كامل حسين - القاهرة ١٩٥٦

كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة

الحادي الياني - مصر ١٣٥٧

لمعة من اخبار المعز

مؤلف مجهول « مخطوط »

ثورة القرامطة الاشتراكية

عارف تامر - ١٩٨١

الoramطة

عارف تامر - بيروت ١٩٧٨

عقبالية الفاطميين

محمد - بيروت ١٩٦٠

اساس التأويل

تحقيق عارف تامر - بيروت ١٩٦٠

الرياض

عارف تامر - بيروت ١٩٦٠

الحاكم يامر الله

عارف تامر - بيروت ١٩٨١

دعائم الاسلام

تحقيق آصف علي أصغر فيضي - القاهرة ١٩٦٠

تميم بن المعز ل الدين الله

« دراسة ادبية » عارف تامر - بيروت ١٩٨١

اروى بنت اليمن

عارف تامر « سلسلة اقرأ » - القاهرة ١٩٦٥

المصادر الأجنبية

- (1) A Short History of the Fatimid Khalifate
London 1923.
- (2) A guide to Ismaïli literature
W. Ivanow London 1934.
- (3) A Chronological List of the Imams and Dai's of the Mustalian
Ismailis—Royal (fayzee—Asaf) Asiatic— society
1934 London 1934.
- (4) A Compendium of Ismaili esoterics
Islamic Culture, H. Hamazani 1937.
- (5) Cadi an Numan (J.B.R.A.S.)
Asaf—fayzee—London 1934.
- (6) Cairo—Jerusalem and Damascus
Margoliothe Oxford 1907.
- (7) Essai sur l'histoire de l'Islamisme
Dozy — R.P.A. Paris 1879.
- (8) Essai sur l'histoire des Ismaeleens de la Perse
Defrémy—M.C. Leyden 1881.
- (9) Etudes sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes
Henri—Fournel—Paris 1881.
- (10) Esquisse d'une Bibliographie Carmathe-
-Massignon—Cambridge 1922.
- (11) Enquête au pays du Levant
(Mauris—Barrés) Paris 1924.
- (12) Fragments relatifs a la Doctrine des Ismailis
Paris— 1874—Guard—S.

- (13) Geschichte des Fatimiden Chalifen
Göttingen-1881- «Wustenfeld».
- (14) Histoire des Musulmans d'Espagne
Dozy-R.P.A. Leyden 1861.
- (15) Histoire de l'ordre des Assassins
Hammer (Paris) 1833.
- (16) Literary History of Persia
Browne Edward-G- London 1909.
- (17) Les Siecles obscures du Maghreb
Paris 1927.
- (18) Le Dogme et la Loi de l'Islam
Paris 1920.
- (19) La fin de l'Empire de Carmathes du Bahrain
Journal- Asiatique- de Goeje- M. J Leyden
1895.
- (20) Literary History of the Arabs
Nicholson- Cambridge 1930.
- (21) Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides
De Goeje M.J. Leyden 1886
- (22) Memoires Historiques sur la Dynastie de Khalifs Fatimides
J.A. Paris 1836.
- (23) Some unknown Ismaili authors and their works
(J,R,A,S) 1933 H. Hamazani.
- (24) The preaching of Islam
Arnold Thomas W. London 1935.
- (25) The Rise of the Fatimids
Calcutta 1942-W. Ivanow.

- (26) The Karmathians «Encyclopaedia of religion and Ethics»
De Goeje—M.J. 1895.
- (27) The Ismailian Law of Muta (Fazee—Asaf) J.B.R.A.S.
London 1929.
- (28) The origins of Ismailism
Bernard—Lewis—Cambridge—1940.
- (29) The Story of Cairo
Lane—poole Stanley—London 1912.
- (30) The Caliphate: Its Rise Decline and Fall
Muir London 1924.

الفهرس

مقدمة	١٠ - ٥
في ربوع التاريخ	١٤ - ١١
الامامة الفاطمية	٢٣ - ١٤
قيادة وسياسة في ظل الاسلام	٢٣ - ٢٣
قيام الدولة الفاطمية في المغرب	٢٣ - ٢٣
عبيد الله المهدي - الخليفة الاول	٣٦ - ٢٣
الرحلة العجيبة	عودة الى التاريخ
الفتح العربي في شمالي افريقيا	٣٩ - ٣٦
قبائل شمالي افريقيا	٤١ - ٣٩
البربر	
دول شمالي افريقيا	٤٢ - ٤١
الايات الاخيرة	٤٦ - ٤٢
القائم بامر الله	٥٠ - ٤٦
الخليفة الفاطمي الثاني	
المنصور بالله	٦٧ - ٥٠
الخليفة الفاطمي الثالث	
المعز لدين الله	٧٦ - ٦٧
الخليفة الفاطمي الرابع	
الامبراطورية الفاطمية	٧٩ - ٧٦
امام الاحاديث	٨٥ - ٧٩

رأيات جوهر	٨٧ - ٨٥
بين الفاطميين والامويين	٩١ - ٨٧
المعز لدين الله وجزيرة كريت	٩٦ - ٩١
الفاطميون وচقلية	١٠٣ - ٩٧
بين المشرق والمغرب	١٠٧ - ١٠٣
الدعاة والفتواحات	١٠٨ - ١٠٧
القائد المظفر	١١٨ - ١٠٨
في ربوع فلسطين والشام	١٢٧ - ١١٨
بين الفاطميين والقرامطة	١٢٩ - ١٢٧
الاعصم يدق ابواب القاهرة	١٤٠ - ١٢٩
جوهر امام التاريخ	١٤٤ - ١٤٠
الصراع في الشام	١٤٩ - ١٤٤
١ - اعمال جوهر في مصر	١٥١ - ١٤٩
٢ - انظمة الحكم	١٥٥ - ١٥١
٣ - الشرطة	١٥٦ - ١٥٥
٤ - النظام المالي	١٥٧ - ١٥٦
٥ - النظام القضائي	١٥٨ - ١٥٧
٦ - المظالم	١٥٨ - ١٥٨
٧ - المنشآت والعمaran	١٦٣ - ١٥٨
عودة الى المغرب	١٦٦ - ١٦٣
النظام الاداري في المغرب	١٧٠ - ١٦٦
في الطريق الى القاهرة	١٧٢ - ١٧٠
الآثار الفاطمية في المغرب	١٧٤ - ١٧٢
المعز لدين الله في المشرق	١٧٧ - ١٧٤
١٠ - الجيش الفاطمي	١٨١ - ١٧٧

٢ - الاسطول	١٨٤	١٨١
٣ - التشريع والقضاء	١٨٧	١٨٤
٤ - مظاهر الحياة الاجتماعية	١٩٤	١٨٧
٥ - المخلفات والأعياد	١٩٥	١٩٤
٦ - النهضة الثقافية والعلوم	٢٠٤	١٩٥
٧ - كلمة اخيرة في المعز لدين الله	٢٠٦	٢٠٤
اعلام الادب والشعر والفلسفة في عهد المعز لدين الله		
١ - جعفر بن منصور اليمن	٢٠٩	٢٠٧
٢ - يعقوب بن كلس	٢١٧	٢٠٩
٣ - النعمان بن حيُون التميمي	٢٢٠	٢١٧
٤ - ابن هانئ الاندلسي	٢٣٠	٢٢٠
٥ - قيم بن المعز لدين الله	٢٣٨	٢٣٠
المصادر العربية للكتاب	٢٤١	٢٣٩
المصادر الاجنبية للكتاب	٢٤٣	٢٤٢
المحتويات	٢٤٦	٢٤٤

**AL — MUCİZ LI — DİN ALLĀH
AL — FĀTIMI**

**WĀDI^C USUS AL — WAHDAH
AL — CARABIYYAH AL — KUBRA**

**by
Dr. CĀRIF TĀMIR**

Dar al-Afaq al-Jadida BEIRUT, LEBANON